

الأمطار!
(زلة قديس)

وكتب أخرى



الحسناء ! La Bella (لوحة للفنان « تيسيان » بمتحف « بيتي » بفلورنسا)



استقبال المولود (لوحة للفنان « جيراردو دا، نوتي » بمتحف « أوفيزي » بفلورنسا)

كتابى

كتاب شهرى لتلخيص الكتب العالمية

يصدر أول كل شهر

صاحبه ورئيس تحريره : حلمى مراد

شعار الكتاب

مصباح الفكر عند الاغريق

الكتاب الثانى والثلاثون (السنة الثالثة) : نوفمبر ١٩٥٤

الاشتراكات ومجموعة الاعداد السابقة : اقرأ التفصيلات بالداخل

الادارة : عمارة الجندول ـ ١٤ شارع ٢٣ يوليو ـ بالقاهرة

تليفون ٥٩٥٥٦ و ٦٥٦٠٨

« كتابى » يشترى الاعداد الستة الاولى من القراء !

نظرا لالحاح الكثيرين من القراء فى طلب الاعداد الستة الأولى من « كتابى » ، ولتعذر اعادة طبعها فى الوقت الحاضر ، ولما كان لا يبعد ان يكون لدى البعض اكثر من نسخة من الاعداد المذكورة ٠٠ **فقد رأت ادارة «كتابى» أن تعلن عن استعدادها لشراء أى عدد من نسخ الاعداد الستة الأولى، تمهيدا لتمكين من تنقصه الاعداد المذكورة من اقتنائها بعد ذلك من الادارة ٠ فالرجا الاتصال بالمجلة فى هذا الشأن، على أن يكون تسليم النسخ اليها حضوريا أو بالبريد المسجل .**

الاشتراك فى « كتابى »

◆ ترسل جميع الأعداد الى المشتركين : فى مصر والسودان بالبريد المسجل ، وفى الخارج بالطائرة ٠ وقيمة الاشتراك فى مصر والسودان : عن سنة (١٢ عددا) : ١٢٠ قرشا ، وعن نصف سنة (٦ أعداد) ٦٥ قرشا ـ فى الخارج (العراق وسوريا ولبنان والحجاز والأردن الخ ٠٠) ترسل القيمة بشيك أو بحوالة بريدية نقدية عن طريق مكاتب البريد MONEY ORDER وتحتسب القيمة بما يوازى ١٣٠ قرشا (عن سنة) و ٧٠ قرشا (عن نصف سنة)

نحو بناء مصر العظمى ..

عزيزى القارىء ...

أكتب لك هذه الـكلمات فى ظل الفرحة المزدوجة ، بل الفرحتين ، اللتين انفعلت بهما مصر خلال أسبوع واحد ـ وشاركتها فى ذلك البلاد العربية كلها ـ كما لا أذكر أنها انفعلت من قبل فى تاريخها الحديث !

وأعنى بهاتين الفرحتين : الفرحة الاولى بتوقيع اتفاقية اجلاء المستعمر عن بلادنا .. ثم الفرحة الثانية بنجاة البطل المكافح الشجاع جمال عبد الناصر مما أريد به ، بل أريد بمصر والشرق جميعا ..

ذلك أن الرصاصات التى تسدد الى قلب الرئيس ، سيما فى هـذا الوقت بالذات ، فى أعقاب نصره الكبير باسدال الستار على ماض تعس للبلاد ، وفى مستهل كفاحه الأكبر فى سبيل مستقبل مجيد لها .. انما هى ضربات توجه بغير أدنى شك أو نزاع الى صدر مصر كلها ، فى الوقت الذى تتأهب فيه لأن تفتح فى تاريخهـا صفحة جديدة من الاستقرار ، كى تتفرغ ـ بعد أن كسبت معركة الحرية ـ لبدء جهادها الاكبر فى سبيل كسب معركة الرخاء .. بالعمل والانتاج

فلست أعتقد أن التاريخ يعرف جريمـة انتفت فيها جميـع مبررات القتل والاغتيال بالنسبة لانسان من الناس ، فى مناسبة من المناسبات ، مثلما انتفت هذه المبررات ازاء هذا الانسان بالذات .. وفى هذه المناسبة بالذات .. لا لسبب واحد ، أو سببين ، بل لعشرات الاسباب ، التى منها حكم العقل ، والمنطق ، والمصلحة الوطنية ، والاعتبارات الانسانية والعاطفية جميعـا !

ومع ذلك ، فلندع الاحتكام للعواطف والاعتبارات الانسانيـة ـ على قوتها ـ ولنقصر كلامنا على حكم المنطق والعقل .. ومصلحة مصر :

١ ـ فمصلحة مصر تقول :

ان هذا الحاكم ، الذى استطاع بسياسته التى رسمها ان يحقق لها ما لم يحققه سواه فى مدى أكثر من سبعين عاما .. هو أولى بحكمها ـ لخيرها ـ من جميـع من عرفت ومن لم تعرف ، لأن بقـاءه على رأس حكومتها يمنيها بتحقيق المزيد من أحلامهـا العريضة التى يعدها بهـا برنامجه المرسـوم ..

٢ ـ والمنطق يقول :

ان الحاكم الذى استطاع ـ فى ظل الاحتـلال وجيوشه الرابضة فى القنال ـ أن يخلص مصر من طغيان ملك « أجنبى » ..

.. **ويخلصها** من نظام ملكى وراثى عتيق لم يعد يلائم مصلحة الشعوب فى هذا العصر ..

.. **ويخلصها** من حزبية أشاعت الفرقة والبغضاء والتفكك بين أبنـاء الوطن الواحد ..

.. **ويخلصها** من التباين الشاسع الظالم بين مستوى معيشة الطبقات المترفة والطبقات المعدمة من الشعب ، بما ينطوى عليه هذا التبـاين من زرع الأحقاد والضغائن بين فريقى الأمة ، ثم ما ينطوى عليـه من أخطار داهمة لو قدر لهذا الزرع أن يحصد !

.. **واستطاع أن يخلصهـا** - بالفاء الرتب والالقـاب - من الفوارق « النفسية » بين أفراد مختلف الطبقات ، وما ينجم عنها من مرارة وحسد ومذلة أو غطرسة ، تعوق كلها تقدم الشعب ورقى البلاد ..

.. **واستطاع أن يرد** للشعب أمواله التى اغتصبتها لنفسها ، بدون حق أو استحقاق ، أسرة أجنبية باغية عاطلة ..

.. **المنطق يقول :**

ان الحاكم الذى استطاع أن يفعل ذلك كله فى ظل الاحتلال ، وفى سنتين اثنتين ، ورغم شواغل الفتن والقلاقل والمؤامرات التى حيكت له ولحياته طوالها ، من شمال ومن يمين .. لكفيل من باب أولى بأن يحقق لمصر - بعد الاحتلال - أضعاف أضعاف هذا الخير ، لو تركت له الفرصة ووفر له الوقت والمجهود والاعصاب التى يستنفدها منـه التيقظ الدائم للفتن والدسائس والانقلابات ، والتأهب فى كل لحظـة لتلقى الطعنـات من الخلف ..

٣ - .. والعقل - المجرد من الهوى - يقول :

ان اغتيال هذا الرجل بعد أن فعل لمصر ما فعل ، يكون وصمة «أخلاقية» لنا كشعب لن يعترف له العالم بحق فى الحرية أو يمنحه ثقة دولية أو اقتصادية ، اذا بدا على هذه الصورة من العقوق ونكران الجميل !

٤ - ثم أن مصلحة مصر ، والمنطق والعقل جميعا ، تقول :

ان الأمل الوحيد فى الرخاء الذى تحلم به بلادنا ، معقود على استقرار الاوضاع فيها - ولكن ليس أى استقرار كان ! - وانما استقرارها لحكم نزيه نظيف يستهدف خير الوطن وحده ..

.. **حكم يثق فيه** أصحاب رؤوس الاموال الاجانب ..

.. **وتثق فيه** الهيئات الدولية والحكومات ذات المصالح التجارية معنا ..

.. **ويثق فيه** السياح من كافة الاقطار .. السياح الذين تقتضينا الفطنة أن نشجعهم بكل وسيلة على الحضور الى مصر ، آمنين ، **لا ليروا مجدنا الغابر ويحترموا أجدادنا .. بل ليروا مجدنا الحاضر ويحترمونا نحن ! .. ثم يتركوا أموالهم فى بلادنا ويمضوا عائدين ..**

.. يتركون أموالهم فى بلادنا كما يتركون فى النمسا مثلا ، كل عام ، ما يوازى - بالعملة المصرية - عشرة ملايين جنيه .. وفى ايطاليا ٨٠ مليونا .. وفى فرنسا ١٢٥ مليونا .. أى ما يوازى نصف ميزانية مصر ، وما يفوق دخلنا القومى من القطن ، الذى عشنا عشرات السنين نقصر عليه كل همنا وكل أملنا .. بفضل ضيق أفق حكامنا الغابرين !

هذا حكم المنطق والعقل والمصلحة الوطنية .. **فماذا تقول العاطفة ، والمشاعر الانسانية ؟**

تقول : ان هذا الرجل قد خرج من بيته الآمن - ومن جوار أولاده وزوجه وأبيه وأخوته ! - فى فجر يوم ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ ، واضعا حياته على كفه ، كى يكتب الحياة لمصر !

وتقول : ان هذا الرجل لم يفسده المجد والسلطان ، فلم يمد يده الى مال حرام ، أو يمد سيفه الى رقبة خصم لدود .. بل أنكر ذاته ورحب بالتعاون مع الجميع ، وصبر على كيد الجميع ، وبسط راية الصفح والتغاضى على رؤوس الجميع .. فلما أراد له الله أن يتحقق أمل مصر على يديه ، لم تبطره النعمة - وكان يحق له أن يفعل - فيزهو ويشمخ بما حقق .. ويستكبر ! .. ولم ينتهزها فرصة فيستغنى بمؤيديه عن معارضيه - وهو القوى برماح الجيش وقلوب المواطنين معـــا - **بل وقف وقفتـــه النبيلة يناشد الجميع فى شهامة : « هاتوا أيديكم وخذوا أيدينا .. وتعالوا نبنى وطننا بالمحبة والتسامح .. »**

.. فلما انطلق عليه الرصاص ليسلبه الحياة ، لم يضعف ، أو يخور ، أو ينجو بنفسه من الموت الداهم - وكان يحق له ، بل ينبغى عليه أن يفعل ! - وانما وقف وقفته الثانية الخالدة ، يزأر كالليث الهصور : « دمى فداؤكم .. حياتى ملك لكم .. فليقتلونى .. فلئن مت الآن ، فانى أموت قرير العين ، مطمئن البال .. فلقد أودعت فى مصر العزة ، وأنبت فيها الكرامة .. ولن تكون حياة مصر معلقة بحياتى ، بل بحياتكم أنتم أيها الأحرار .. أيها الرجال ، اذا مات جمال عبد الناصر ، فلتحملوا الرسالة ، ولترعوا الأمانة .. »

ألا أن رجلا استطاع أن يواجه المجد بذلك التواضع ، ويواجه الرصاص بهذه الشجاعة .. لهو ذخر قومى ينبغى أن يصان لمصر .. ولمستقبلها

وحرام - من أجل مصر ، ومن أجل مستقبلها - أن يضن عليه مصرى بالحياة ..

أو يضن عليه مصرى بالحب ..

ولقد أحببته من أول يوم .. وان لم أره حتى اليوم !

حلمي مراد

كتابى

اعداد نفدت

كتابى الاول : ((خطايا الحب)) وكتب أخرى ، وكتابى الثانى : ((قلب عذراء)) وكتابى الثالث : ((الهاربة من الجنة)) وكتابى الرابع : ((حواء الجديدة)) وكتابى الخامس : ((احدب نوتردام)) وكتابى السادس : ((جريمة حب)) .

اعداد توجد نسخ منها بالادارة

كتابى السابع ((عشيقة نابليون)) ، والثامن ((مذكرات كيوبيد)) ، والتاسع ((صنم تحطم)) ، والعاشر ((حديقة الله)) ، والحادى عشر ((عندما تحقد المرأة)) ، والثانى عشر ((لعبة الحب والموت)) ، والثالث عشر ((توبة خاطئة)) ، والرابع عشر ((ايها الربيع ترفق)) ، والخامس عشر ((الشيطان على الأرض)) ، والسادس عشر ((ليدى هاملتون)) والسابع عشر ((الارملة المرحة)) والثامن عشر ((حياة جورج صاند)) ، والتاسع عشر ((حياة سارة برنار)) ، والعشرون ((رباعيات عمر الخيام)) ، والحادى والعشرون ((حياة بيتهوفن)) ، والثانى والعشرون ((حياة موسولينى)) ، والثالث والعشرون ((كوخ العم توم)) والرابع والعشرون ((الزوج والعشيق)) والخامس والعشرون ((البوهيمية)) ، والسادس والعشرون ((فتاة لها ماض)) والسابع والعشرون ((ترويض النمرة !)) والثامن والعشرون ((فن الحب)) ، والتاسع والعشرون ((الجريمة والعقاب)) والثلاثون ((المنافق)) (طرطوف) ، والحادى والثلاثون ((أميرة مصر))

◆ **وتطلب** من ادارة كتابى: ١٤ شارع ٢٣يوليو بالقاهرة (عمارةالجندول)، وثمن كل عدد (من العدد ٧ الى ٢٤) ١٠ قروش خالص اجر البريد (المسجل) ما عدا الاعداد ١٣ ، ١٦ ، وثمن كل منهما ١٢ قرشا ، والعدد العاشر والعدد العشرون وثمن كل منهما عشرون قرشا .. وابتداء من العدد ٢٥ ثمن كل نسخة بالبريد المسجل ١٢ قرشا

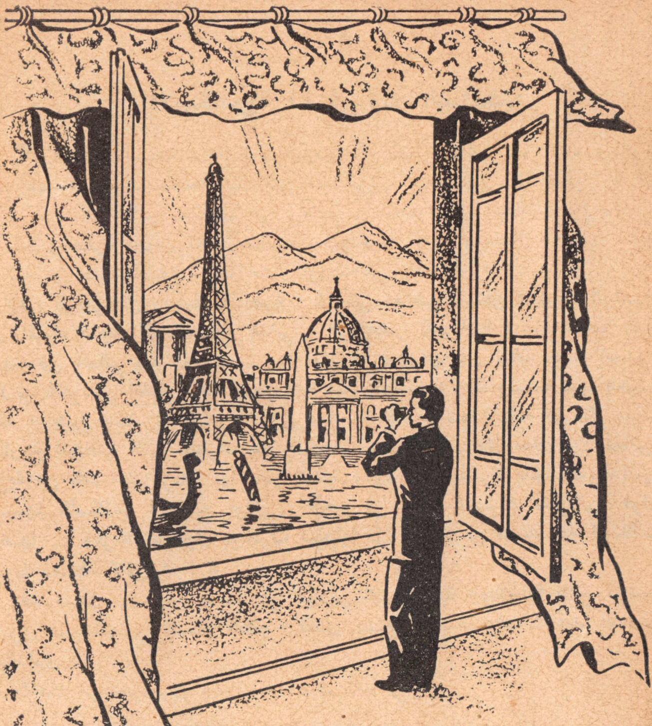
◆ **ملحوظة : ترسل القيمة فى مصر والسودان باذن بريد عادى ، وفى الخارج بحوالة بريدية نقدية عن طريق مكاتب البريد MONEY ORDER أو بشيك** على أحد بنوك القاهرة ، ولا تقبل العملة الاجنبية أو أذونات البريد الخارجية . وتحرر الاذونات والشيكات باسم صاحب المجلة شخصيا .

مطبوعات كتابى

صدر منها حتى الآن :

١ ـ قصة مدينتين	٢ ـ ذات الثوب الابيض
٣ ـ الخالدون	٤ ـ الخاطئة

وثمن كل من الأول والرابع عشرون قرشا خالص اجر البريد المسجل (نظرا لوشك نفادهما) ، والثاني ١٢ قرشا ، والثالث ١٠ قروش



نافذة "كتابي" تطل على العالم :

رأيت وسمعت لك في أوربا

للمحرر

الاسكندرية .. فى رأى السائحين

◆ **ميناء** الاسكندرية ظهر يوم ٢ أغسطس الماضى .. الحمالون بوجوههم المصرية السمحة يتنازعون المسافرين مع سائقى (التاكسى) ، كل فريق يريد ان يظفر بحقائبهم كى ينقلها من الجمرك الى السفينة .. وآثرت ألا أخيب نظرة حمال كادح منهم ، يجر عربة يد متواضعة . لكم جنت المدنية على هذه الطبقة ، كما جنت على سائقى «الحنطور» !

وفى طريقى الى رصيف الباخرة ، ذكرتنى مداخن السفن العديدة الراسية فى الميناء بمجد الاسكندرية الغابر ، فى عصر كليوباترة ، يوم كانت اكبر مدينة فى العالم بعد روما ! .. وعاودتنى فقرة قرأتها فى كتاب جديد اصدره الاديب الفرنسى الكبير «هنرى بوردو» منذ أسابيع ، وقد وصف فيها «خيبة امله » حين هبط الاسكندرية لأول مرة : « فقد رأيتها خالية من كل معالم التاريخ الخالدة التى سطرت على صفحات مصر ! .. فلا معابد ولا تماثيل أثرية من تلك التى تزدان بها مصر العليا.. ولا شىء يذكرك بأنها المدينة التى أسسها الاسكندر ، ووقع يوليوس قيصر فى شرك غرام كليوباترة فوق أرضها .. وغزاها نابليون بونابرت ليبعثها الى الحياة من جديد بعد أن ظلت قرونا محنطة كالمومياء ! »

وقد صدق .. ولن يسبغ على ميادين الاسكندرية ومداخلها طابع مجدها الاثرى غير الوزير الهمام الطموح الذى صنع المعجزات : عبد اللطيف البغدادى !

وأفقت من خواطرى وقد بلغت سلم الباخرة ..

الجوع .. ودوار البحر !

◆ **وكنت** قد اخترت لسفرى تلك الباخرة اليونانية ، الصغيرة نسبيا ، (اذ لا تزيد حمولتها عن ٩٥٠٠ طن) كى تتيح لى زيارة «أثينا» فى الطريق الى ايطاليا - فان خطوط الملاحة اليونانية هى الوحيدة التى تمر بواخرها ببلاد اليونان ! - وكان موعد ابحار الباخرة الساعة الثانية بعد الظهر ، لكنها لم تتحرك الا فى الخامسة .. وقد قضينا الساعات الاربع السابقة على تحركها فى دوامة من الضجيج المنبعث من « ونشات » شحن البضائع ! .. وكان طريفا ان تسمع اكثر المسافرين يبدون مضايقتهم من التأخير ، لأكثر من سبب :

فمن ناحية .. كان الكثيرون منهم لم يتناولوا غداء ، لحرصهم على ان يكونوا فى الميناء قبيل الثانية عشرة ، كى يواجهوا اجراءات الجمرك وفحص جوازات السفر قبل موعد تحرك الباخرة بوقت كاف .. وهم لو علموا انها ستتأخر حتى الخامسة لاستطاعوا أن يتناولوا غداءهم فى المدينة على مهل ، بل ولاتسع وقتهم لأخذ نصيبهم من « تعسـيلة » القيلولة فى بيوتهم !.. ثم ان الباخرة لن تقدم وجبتها الاولى ، وجبة الشـاى ، قبل السـاعة الخامسة .. وهكذا امسك الركاب بطونهم على الطوى .. وانتظروا

.. وكان السبب الثانى للشكوى اكثر طرافة : فلقد حرص الكثيرون على تناول اقراص « الدرامامين » أو « الفاسانو » - التى تعين على مقاومة دوار البحر - قبل الموعد الاصلى المحدد للرحيل بوقت كاف ، كى يسرى مفعولها فى أجسامهم قبيل تحرك الباخرة .. فلما تأخرت الى الخامسة ، بطل مفعول الاقراص أو ضعف ، وتعذر عليهم فى الوقت عينه تناول اقراص اخرى ، خشية الضرر الذى حذرهم منه الاطباء اذا تكرر تعاطى العقار فى فترات متقاربة !

وكان من حسن حظى اننى لست ممن ينتابهم الدوار اللعين .. فجلست أتفرج على الفصل الثانى من الرواية ، أو « الفاجعة » الحقيقية المضحكة ، فاجعة بعض المتخوفين من دوار البحر ، الذين قيل لهم ان احسن طريقة للتحايل عليه - الى جانب تناول الاقراص المخففة - هى مواجهة فترة بدء تحرك الباخرة بمعدة خالية ، ثم الاحتفاظ بها خالية بعد ذلك لمدة ساعتين اخريين على الاقل ، حتى تألف المعدة حركة اهتزاز المركب فوق الامواج !

.. وهكذا امتنع هؤلاء عن تناول اى طعام منذ الافطار ، فلما تأخر قيام الباخرة الى الخامسة ، صار عليهم ان يمتنعوا ايضا عن تناول الشـاى ويواصلوا « صيامهم » حتى وجبة العشاء !! .. ثم تضاعف « الاشكال » حين ضعف مفعول الاقراص بسبب التـأخير ، فأصيب البعض بالدوار بالفعل بعد تحرك الباخرة ، ومن ثم امتنعوا - بل عجزوا - حتى عن تناول العشاء ! .. بينما امتنع عنه البعض الآخر بدافع الخوف ، أو الوهم ، أو الاحتياط !

برج بابل !

❖ **وجلست** أتأمل القافلة العجيبة من البشر التى تضمها السفينة ، من مختلف الاجناس والأعمار : فهذا مهندس فرنسى عائد من رحلة هندسية فى الشرق الاوسط ، وهو رغم تقدمه فى السن على درجة من النشاط وسرعة

الحركة يحسده عليها ابن العشرين ، **وبجواره زوجته البدينة الظريفة التى لا تكف عن الثرثرة ، وقد صبغت شعرها الأشيب ـ صدق أو لا تصدق ـ بلون بنفسجى زاه ! .. ورغم غرابة « التقليعة » فانى أعترف بان امتزاج الفضة والبنفسج فوق هامتها كان رائعا !**

.. وهذا شاب مصرى دمث الاخلاق ، وعروسه الحسناء الوديعة . انهما يطلان على الامواج فى ركن بعيد ، ويتهامسان بأحلام شهر العسل .. فان زواجهما السعيد لم تنقض عليه ٢٤ ساعة ! .. وذاك فلسطينى يعمل فى مكاتب هيئة الامم المتحدة ، وهو عائد الى نيويورك بعد أن قضى مدة عطلته . لقد جلس وسط حلقة مختلطة ، يتحدث عن نزوات الفتاة الامريكية ، ومدى تحررها !

.. ومن هذا الكهل الأشيب الانيق الرشيق الذى يرطن بفرنسية رائعة ، وقد ارتدى قميصا شفافا ، وبنطلونا من الصوف الابيض الخفيف خرج لتوه من يد الكواء ، وحذاء ابيض ناصعا كالذى يرتديه الرياضيون اثناء لعب التنس .. ووقف منتصبا بقامته المهيبة ونظارته الانيقة ، يتحدث مع آخر ؟ لا بد انه « سفير » لفرنسا فى احدى الدول ذاهب الى بلاده فى اجازة ! .. وهذه زوجته الحسناء الهيفاء قد جلست على بعد منه ، مع آخرين ، وقد وضعت على كتفيها شالا انيقا من الصوف الابيض فوق ثوب قاتم رائع . **وهمس لى صديق كان يعرفهما : « انه يا عزيزى ليس فرنسيا ، ولا سفيرا .. بل هو مصرى ، من الصعيد ، وكل ما هنالك انه يعمل منذ زمن بعيد فى احدى الشركات الفرنسية .. اما زوجته فيونانية تتقن ثلاث لغات ، وتصغره بربع قرن ! »**

وذهلت .. فقد كان يتكلم كمن يجهل العربية تماما !

ثم من هذا « الهندى » الاسمر ذو الشعر الاسود الفزير والقميص الاصفر الزاهى ، الذى لا يسير الا وآلة التصوير معلقة فى كتفه ، يلتقط بها صور الحسان ؟ .. كلا ، انه ليس هنديا ، بل يونانيا من أثرياء مصر !

وهذا ايطالى بدين يرتدى « الكاسكيت » ، ولا يكف عن الحركة والثرثرة والتمثيل بيديه ووجهه وجسمه كله كالبهلوان ، وهو يتنقل فى انحاء السفينة من جماعة الى جماعة بلا ملل ، وزوجته الطويلة النحيلة تتبعه كظله صامتة .. وهذا طبيب « متمصر » من سكان القاهرة يتحدث عن معجزاته فى حماية مرضاه من دوار البحر ، فلا تكاد تمضى ساعة حتى يقع هو نفسه فريسة للدوار !

وهذا ألمانى يعمل فى احد مصانع البلاستيك بمصر ، قد جلس منعزلا يكتب خطابا الى زوجته المقيمة فى فرانكفورت ، ينبئها بموعد وصوله .. وهذان مهندسان مصريان صديقان ، تزاملا مدة الدراسة ثم فرقت بينهما الايام ، فعمل أحدهما فى الحجاز ، والآخر فى القاهرة .. حتى التقيا اليوم مصادفة فى السفينة ! وهما فى طباعهما طرفا نقيض : الأول خجول هادىء متحفظ ، تنم سماته عن نبل الخلق .. والثانى جرىء ظريف غير هياب ، و « اجتماعى » بطبعه لا يحب ان يضيع وقته سدى ، فانه لم يلبث ان اشتبك فى نجوى عاطفية سريعة مع سمراء اسبانية ساخنة النظرات !

.. وكان الركاب قد بدأوا - برغم عذوبة نسمات الليل - ينسحبون بالتدريج من شرفات السفينة التى جمعت كل هذا الخليط المتنافر من الاشخاص والأجناس ، وكأنها « برج بابل » عصرى ، كى يأووا الى قمراتهم « الخانقة » فى تلك الليلة من ليالى اغسطس ..

مترو أثينا .. ومترو مصر الجديدة !

◆ وفى صباح اليوم الثالث رست الباخرة فى ميناء « بيريه » ، ميناء اليونان الرئيسى ، الذى لا يبعد عن العاصمة « أثينا » أكثر من بضعة كيلومترات يقطعها المترو فى نحو ثلث ساعة ..

وعلى ذكر المترو - وهذه حقيقة اخرى أضعها تحت أنظار الوزير المصلح عبد اللطيف البغدادى - أقول انك تحس بالدهشة ، المزوجة بالحسرة ، حين تقارن بين مترو مصر الجديدة الكسيح الاعرج الذى لا يسير دقائق الا ليتعطل ساعات ، والذى يصدع رأسك - اذا سار ! - بضجيج قاطراته المستهلكة وعرباته التعسة التى تساهم بنصيب مشكور فى « غربلة » أمعاء الركاب المساكين ، وكأنها خلفت فى هذه المهمة غربال « لونابارك » القديم ! .. أقول انك لا تملك الا أن تحس بالحسرة حين تقارن بين مترو مصرالجديدة الذى هذه حاله ، وبين - لا أقول مترو باريس الجبار الذى يسير تحت الارض - وانما مترو « أثينا » ، العاصمة المتواضعة التى تقول الجغرافيا وتقول الاحصاءات انها لا تزيد فى مساحتها وتعدادها على « ربع » مدينة القاهرة !.. وأول ما يلفت نظرك فى مترو أثينا انه يتألف من « خمس عربات » عريضة بالغة الاتساع والنظافة ، وانه يتتابع كل ٤ دقائق بانتظام وسرعة مثاليين .. فلا تأخير ولا تعطيل ، ولا حوادث ولا « تكسيات » احتياطية أصبحت فى مصر هى الخط المنتظم وصار المترو هو الاستثناء !

على أننى أوثر ارجاء حديثى عن بلاد اليونان الى نهاية الرحلة ، فقد كانت زيارتى لها فى العودة أطول وأفسح مجالا للحديث

القناة التى تشهد بجبروت الانسان !

وبعد وقفة فى ميناء « بيريه » استمرت نحو سبع ساعات ، استأنفت الباخرة سفرها متجهة نحو ميناء جنوا بايطاليا .. ولم تمض ساعة أو أكثر قليلا ، حتى أشرفنا على قناة كورنث (ويسميها اليونانيون « كورنثوس ») التى شقت لتفتح طريقا بحريا عند أضيق « عنق » من الارض الجبلية كان يصل شبه جزيرة « بيلوبونيز » بالرقعة الكبرى لبلاد اليونان .. أما الآن ، بعد شق القناة المذكورة ، فقد أصبحت شبه الجزيرة جزيرة منفصلة تماما ، لا يربطها بأرض اليونان الرئيسية غير قنطرتين حديديتين انشئتا خصيصا « فوق » القناة لتربطا بين ضفتيها الشاهقتين .. وقد كان الغرض من شق القناة أن توفر على السفن عناء الدوران حول شاطىء شبه الجزيرة المترامى ، وتختصر الطريق بين عاصمة اليونان وموانىء أوربا جميعا ..

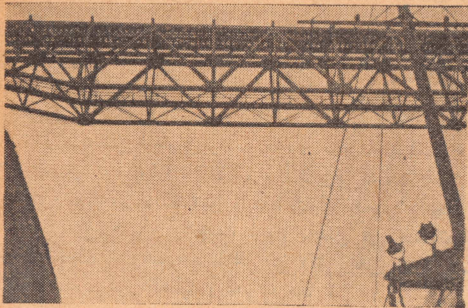


قناة كورنث ، بين جداريها الشاهقين

ولم تكد السفينة تشرف على القناة حتى أوقفت محركاتها ، واقتربت منها قاطرة عائمة فربطتها الى مؤخرتها ، وبدأت تجرها فى حذر وبطء شديدين .. حتى لقد استغرق اجتياز القناة التى لا يزيد طولها على ستة كيلومترات و ٣٤٣ مترا ، أكثر من ساعتين !

وصعد الركاب جميعا الى السطح والشرفات ، فلقد كان المنظر فريدا : **كانت الباخرة تسير بصعوبة بين حائطين شاهقين من الجبال ، شبه أملسين ، لا يكاد يفصل كليهما عن جانبها أكثر من سنتيمترات !.. ويبلغ ارتفاع ذينك الجدارين نحو ثمانين مترا ، وقد استغرق شق القناة على أيدى أفذاذ**

المهندسين وبواسطة أضخم الآلات وأسلحة التفجير ، أحد عشر عاما كاملة (من سنة ١٨٨٢ الى سنة ١٨٩٣) .. وتصل بين الجدارين فوق القمة ، كما ذكرت ، قنطرتان انشئتا لتربطا بين شقى الجزيرة اللذين فصل بينهما الاخدود الصناعى الجبار ، وتستخدم احدى القنطرتين لمرور



احدى القنطرتين اللتين أنشئتا للمرور فوق القناة ، والصورة مأخوذة من السفينة اثناء عبورها تحتها

القطارات والسيارات والمارة ، بينما يقصر المرور فى القنطرة الاخرى الضيقة - التى تبعد عن الاولى نحو كيلو مترين - على المشاة وحدهم ..

شاطىء لوتراكى

فاذا خرجت السفينة من هذا « النفق » المائى الهائل ، طالعها البحر العريض من جديد ، وقد شيد فى مستهل المخرج حاجز حجرى دائرى على شكل قوس كبير ، تتخلله فى الوسط فتحة عريضة يشرف عليها فناران صغيران ، كى تمرق منها الباخرة الى الخضم المتلاطم تدريجا .. وقبل أن تخرج من هذا « الميناء » الصغير يحل وثاقها عن القاطرة العائمة التى قادتها خلال القناة ، ويهبط قبطان القاطرة من السفينة عائدا الى قاطرته السوداء المتواضعة ، القوية !.. ثم تستأنف محركات السفينة هديرها وتنطلق نحو الخضم الفسيح ..

ولا يلبث ان يلوح الى يمينك من بعيد سهل مترام يطرز جزءا منه مصيف « لوتراكى » المشهور بمياهه المعدنية وشاطئه المعد للاستحمام .. ثم تواصل السفينة تسكعها بين جزر اليونان العديدة المتعاقبة ..

جزيرة صقلية : بلاد الحب والثأر !

◆ **وقبيل** منتصف الليلة التالية تقاطر الركاب الى الشرفات ، فقد لاحت عن بعد من اليمين واليسار أضواء كثيرة تتلألأ على بر قريب .. كانت السفينة مقبلة على مضيق « مسينا » ، الذى يفصل بين طرف ايطاليا الجنوبى - المسمى شبه جزيرة « كالابريا » - وبين جزيرة صقلية التابعة لها ، وقد سمى المضيق باسم مدينة مسينا الواقعة فى طرف الجزيرة المطل على المضيق .. وكانت الاضواء الكثيرة تنبعث من زينات اقيمت فى الشوارع والدور والكنائس ، فقد كانت الجزيرة تحتفل فى تلك الليلة بأحد أعيادها الدينية .. **وعجبت لقوم تأصل فى خصائصهم التعلق بالدين منذ أقدم الأزمان ، وهم مع ذلك من اكثر أهل الأرض شهرة بجرائم الغدر والانتقام .. فى الحب والحرب معا !**

وقال البعض ان الباخرة سوف تمر على مقربة من جزيرة سترومبولى قبيل الفجر ، وهى الجزيرة ذات البركان الذى اشتهر أمره وأمرها منذ اطلق اسمها على فيلم سينمائى انتجه المخرج الايطالى « روسيلينى » وأسند دور البطولة فيه الى زوجته الممثلة القديرة « انجريد برجمان » .. لكن اكثرية الركاب لم تبد استعدادا لليقظة خصيصا فى ساعة البكور لمجرد القاء نظرة على جزيرة ساكنة بها بركان خامد .. على ان ذكريات فيلم انجريد برجمان لم تعدم لها أنصارا معجبين ، فى أشخاص ثلاث فتيات انجليزيات صعدن الى الباخرة من أثينا ، وعلمت من أمرهن ما أثار عجبى ، واعجابى .. فقد كن طالبات فى قسم الآداب اليونانية بجامعة كمبريدج الانجليزية المشهورة . ورغم أن سنهن كانت - حسب قولهن ! (وهو قول يؤيده المظهر) ١٨ ، ١٩ ، ٢٠ ، على التوالى ، فقد تركن بلدهن فى عطلة الصيف وجئن بمفردهن ليقضين خمسة أسابيع فى بلاد اليونان ، متنقلات بين ربوعها وآثارها ومعالمها التاريخية والأدبية المشهورة التى تخصصن فى دراستها فى جامعتهن .. كيما يستكملن



طالبتان من « كمبريدج » ..

ثقافتهن الـكلاسيكية «على الطبيعة» !.. وزاد من عجبى واعجابى بالروح التى أملت عليهن هذه الرحلة ، انهن برغم هذه الحرية الكاملة التى أتاحتها لهن عائلاتهن - والتى يضن بمثلها الشرق على الشبان الذكور ! - وبرغم اشتراكهن فى الحديث مع الركاب بكل طلاقة فى كثير من المناسبات ، فانهن كن نماذج فريدة للفتيات المثاليات اللواتى يعرفن الحدود بين ما يجوز ومالا يجوز ، ويلتزمن هذه الحدود !

لكنها التربية السليمة ، وكفى .. كفى القلب لوعة وأسى على بعض العقليات الآسنة التى ما تزال تدب فى بلادنا مع الأسف الشديد .. والتى لا تريد ان تقتنع - رغم شواهد التاريخ والمجتمع فى كل زمان ومكان - بأن المرأة ذات النزعات المنحرفة تستطيع أن تضل ولو قيدت بالاغلال بين أربعة جدران ! .. أما أختها التى غرست فى نفسيتها المبادىء السليمة منذ نعومة اظفارها ، فى البيت وفى المدرسة ، عن طريق الاقناع وليس عن طريق الضغط والزجر والارهاب ، فانها لن « تستطيع » ان تتنكر لمبادئها ولو ألقيت بين براثن الوحوش .. ولن تنحرف عن الصراط الذى نشأت عليه مهما ترك لها الحبل على غاربه .. بل ان الشعور بالحرية فى ذاته خير عاصم لها من اساءة استعمال هذه الحرية ، واقوى دافع يجعلها تحرص على الاحتفاظ باحترامها لنفسها .. وكسب احترام النفس أولى فى نظرى من كسب احترام الناس ، سيما اذا كان المجتمع يموج - كمجتمعنا - بالمنافقين والمرائين !

عندما يغضب البحر !

◆ **وكأن** مضيق مسينا كان الحاجز بين الهدوء والعاصفة .. فاننا لم نكد نمرق منه الى البحر « التيرانى » ، (الذى يطل عليه الساحل الغربى لايطاليا) ، حتى هاجت الامواج وتلاطمت ، وأرغت وأزبدت .. فاذا مقدم الباخرة يرتفع وينخفض فى عنف مع كل موجة عاتية ، حتى لقد كانت الامواج تتكسر على السطح الامامى فتغطيه كل لحظات ثم تنحسر عنه مسرعة ، بعد أن تلعق ما عليه كالذئب الجائع !

وتوترت الاعصاب ، وفعل الدوار فعله الرهيب فى أكثرية المسافرين ، فانسحب كل الى فراشه وقد غامت الدنيا فى عينيه ولفظت معدته ما فيها فى نوبات حادة قاسية .. وذكرنى المنظر بالوصف الرائع المروع الذى

أبدعه قلم الطبيب الاديب السويدى « أكسيل مونته » فى تصويره لضحايا الكوليرا يوم تفشت فى (نابولى) ! .. فقلت لنفسى : « حقـا أن السفر بالبحر .. عذاب ! »

شكاوى الركاب .. بالجملة !

◆ **وفى** النهار التالى كانت الباخرة شبه مقفرة من الركاب .. لم يظهر من المئات الذين تحملهم على ظهرها سوى أفراد قلائل ، تبعثروا فى شرفاتها وصالوناتها وقد نجوا من الدوار .. وحتى هؤلاء كانوا واجمين ، لا تسمع منهم غير عبارات التأفف والشـكوى : من صغر السفينة الذى جعلهـا كالريشة تعبث بها الأمواج .. ثم من خلوها من كافة أسباب التسلية التى ينعم بها ركاب البواخر الكبيرة ، فلا سـينما ، ولا حوض للسباحة، ولا ملعب للتنس ، ولا حتى بضعة أجهزة راديو فى قاعاتها (الا اذا اعتبرنا من قبيل « الراديو » تلك الميكروفونات المتـواضعة التى نثروها فى كل مكان كى تذيع برنامجا موحدا أكثره نشرات أخبار باللغة اليونانية التى لا يفهمها من الركاب غير موظفى البـاخرة وحدهم !) .. وعلى ذكر هؤلاء الموظفين ، كان من أهم أسباب الشكوى جهلهم المطبق جميعا بكافة اللغات التى يتكلمها الركاب ، من انجليزية وفرنسية أو ايطالية .. حتى اللغـة العربية التى تفهمها آلاف من أفراد الجالية اليونانية فى مصر ، روعى فى اختيار هؤلاء أن يجهلوها تماما !.. أما استغلال القوم لكرم المسافرين فى أجور غسل الثياب وكيها فحدث عنه ولا حرج : فأجر كى القميص « السبور » المغسول الذى أصاب ياقته شيء من التكسر فى الحقيبة، عشرة قروش ! ولك أن تقيس على هذا أجر غسل وكى سترة بيضاء من (الشارك سكين) مثلا !

والاعجب من هـذا كان « نظام الطبقات » الذى غالى المشرفون عـلى الباخرة فى تطبيقه .. فاذا كان لك صـديق فى درجة غـير الدرجة التى أنت فيها فأنتما محرومان من أن تلتقيا طيلة مدة الرحلة ، لان جميع الابواب التى تفصل بين درجة وأخرى مغلقة بالمفـاتيح !.. ويكفيكما أن يصادف أحدكما الاخر مرة خلف باب الشرفة العليا المصنوع من السلك ، فتتبادلان بضع عبارات « من وراء القضبان » ، كالمساجين !

واذا دق الساقى (الجونج) ايذانا بموعد الطعام وتأخرت فى الذهاب الى قاعة المائدة بضع دقائق ، استقبلك عابسا مقطب الجبين ، وقدم لك الطعام مصحوبا بنظرة مضايقة وتأفف !.. فاذا تكررت منك هذه «المخالفة» الخطيرة لم تجد من يقدم لك الطعام !.. وبقى أن تعلم أن الموعد الصارم الذى حددته الباخرة للغداء مثلا ، هو الثانية عشرة ظهرا بالتمام والكمال !

حضارة سطرت بالتضحيات !

◆ وفيما كنا نتبادل هذه الشـكاوى ذات يوم ، أنا ونفر من الركاب الاصدقاء ، كرر بعضهم ضيقه بهياج البحر ، وطول مدة الرحلة ، وعدم وجود أسباب للتسلية .. الخ .. فوثب الى ذهنى خاطر أخجلنى : كنا نشكو من البقاء فى البحر اربعة أو خمسة أيام بلا تسلية ، ولا راديو ، ولا صحف .. أو نشكو من بضع هزات تهتزها السفينة البخارية « الآمنة » المزودة بأجهزة اللاسلكى وعشرات من قوارب النجاة .. **فكم بالاحرى كانت قسوة ما كان يعانيه المسافرون فى الماضى من انزعاج ومخاطر ، قبل اختراع البخار ، واللاسلكى .. بل وفى القرون البعيدة حين كانت رحلة كرحلتنا تستغرق أسابيع عديدة ، بل أشهرا ، يقضيها الركاب فى سفينة شراعية صغيرة ، وربما مكشوفة ، يتعرضون فيها لاخطار العواصف ، والبرد ، والمرض ، والجوع — اذا لم تسعف الريح ، فطال السفر ونفد الزاد !.. الخ**

وفكرت فى التضحيات المروعة التى بذلها الرائدون الاول لصناعة السفن واستكشاف البحار ، من فجر التـاريخ ! .. كم من الجهـود ، والآلام ، والضحايا ، دفعتها البشرية ثمنا لهذا التقدم الذى بلغ بها هذه المرحلة .. والذى كان الفضل الاول فيه : للمصريين ؟ ! .. انه لمن دواعى الفخر والزهو ان التاريخ يسجل لهم أنهم كانوا أول من صنع السفن فى العـالم ، حوالى سنة ٣٠٠٠ قبل الميلاد — كما هو ثابت من رسومها المنحوتة على آثارهم ! — ثم تلاهم الاشوريون والفينيقيون ، حوالى عام ٧٠٠ قبل الميلاد .. وجاء بعد هؤلاء اليونانيون ، الذين نقلوا جيوشهم الى أسوار طروادة بواسطة أسطول من السفن .. ثم أهل قرطاجنة ، وعنهم أخذ الرومان ، فالايطاليون أبنـاء القرن الخامس عشر (أهل البندقية وجنوا) ، فالانجليز ، والاسبـان ، والهولنديون .. الخ

بل أى عناء قاساه أولئك المجاهدون الاول ، فى رحلاتهم الاستكشافية التى كانت تتقاذفهم البحار فيها قرابة العام : كولومبس فى رحلته سنة ١٤٩٢ ، وفاسكوداجاما سنة ١٤٩٧ ، وماجيلان سنة ١٥١٩ .. وغيرهم ، وغيرهم ؟

وكم من محن ، وبلايا ، احتملت .. وكم من جهود ومحاولات بذلت ، ودماء سفكت ، واموال انفقت ، وعرق أريق ، منذ كانت حمولة أكبر سفينة - حتى أوائل القرن السادس عشر - لا تزيد على الالف طن .. الى أن أتيح للبشرية أن تشهد - فى السنوات الاخيرة - « مدنا عائمة » فى ضخامة البواخر الثلاث : «كوين مارى» الانجليزية التى حمولتها ٨١ ألف طن و « نورماندى » الفرنسية ، (٨٣ ألف طن) .. وأخيرا «كوين اليزابيث» الانجليزية التى ضربت الرقم القياسى فارتفعت حمولتها الى ٨٥ الفا من الاطنان ؟

.. ونحن نشكو من المضايقة والملل وهياج البحر ، ونروح نسبح بحمد الطيران ، اذا طال بنا المقام أربعة أو خمسة « أيام » فى سفينة مزودة بكافة وسائل الراحة والتسلية والامان - اذا قيست بسفن كولمبس أو ماجيلان الشراعية ، ولا أقول بسفن قدماء المصريين ذات العشرين أو الثلاثين مجذافا !

ألا ، قتل الانسان .. ما أكفره !

الطموح لازم لتقدم البشرية

ولكن ، لماذا نفكر على هذا النحو الذى يناقض سنة التطور والارتقاء ؟.. وهل من المنطق فى شىء أن نطالب انفسنا باحتمال عناء السفر فى قطار عتيق بطىء مثلا ، لا لشىء الا لان اجدادنا كانوا يسافرون على ظهور الابل ؟ .. أو من المنطق أن نقنع بالسكنى فى بدرومات رطبة خانقة ، لا لسبب سوى أن أسلافنا الاقدمين كانوا يعيشون فى الكهوف والخيام ؟ .. أو نشرب الماء العكر الملوث ، ما دام فى الصحارى أناس يموتون من الظمأ ؟ .. أو نرتضى الفقر والمرض ، لان على ظهر البسيطة من يموتون جوعا أو تفتك بهم الاوبئة ؟

اننا لو فعلنا نرتكب أكبر جرم فى حق البشرية ، فليس أعوق للتقدم من منطق هذا الخمول .. ولا ألزم لمضى الركب الانسانى من الطموح الوثاب !

مجد « جنوا » الغابر !

◆ **وفى** الساعة الثالثة من بعد ظهر اليوم السادس ، من بداية الرحلة ، رست بنا الباخرة فى ميناء (جنوا) ، أكبر وأهم موانىء ايطاليا - (وان كانت ايطاليا غنية بالموانىء الاخرى ، ومنها : نابولى ، فينيسيا « البندقية » تريستا .. الخ) - **اذ يبلغ تعداد سكان جنوا ٦٧٠ الفا ، ويمر بها كل عام ٢٠٠ الف مسافر ، وتفرغ على أرصفتها المتعددة من البضائع مايزن ١٢ مليونا من الاطنان ! .. وتلتقى فيها بواخر ذاهبة أو آيبة من فرنسا وانجلترا وأمريكا واستراليا والشرقين الادنى والاقصى ..**

وانت اذا صعدت الى قمة فنار (لانتيريا) القريب الذى يهدى السفن الى الميناء ، استطعت أن ترى من قمته - على ارتفاع ٧٠ مترا - منظرا عاما لجنوا ، بل لجانب كبير من ساحل الريفييرا الايطالية .. ترى المدينة مبنية على شكل مدرج هائل ينحدر من سفوح التلال العالية التى تطوقها ، الى البحر ..

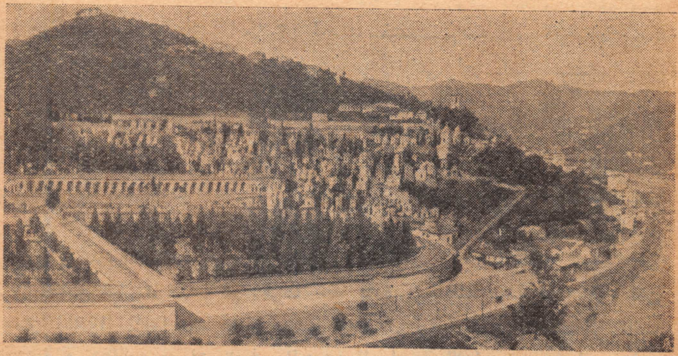
ويميز جنوا جمال مناظرها الساحرة وتنوع هذه المناظر ، مما جعل أهلها يطلقون عليها superba ، أى « الرائعة » !.. وهم يفخرون بانتمائهم اليها قبل أن يفخروا بأنهم ايطاليون !.. وتنقسم مدينتهم الى مدينتين ، تفصل بينهما مفارقة حادة : جنوا الحديثة التى أعيد تشييد أجمل أجزائها بعد الحرب الاخيرة - على أثر الدمار الشديد الذى أصابها أثناءها من الغارات الجوية والبحرية - ثم جنوا القديمة ، بشوارعها الضيقة الى حد غير مألوف ، وقصورها الباذخة التى شيد أكثرها فى منتصف القرن السادس عشر .. فجنوا مدينة ذات مجد غابر ، بلغ أوجه فى العصور الوسطى ، يوم كانت جمهورية بحرية قوية تنافس « فينيسيا » و « بيزا » .. على أن تاريخها يبدأ من قبل ذلك العصر بزمن طويل : **فقد شيدت فى القرن الثامن قبل الميلاد ، ثم دمرها أحد قادة قرطاجنة سنة ٢٠٥ م ، لكن الرومان أعادوا بناءها بعد عامين اثنين فقط . وفى القرن العاشر كانت جمهورية مستقلة ، وساهمت فى الحرب الصليبية الاولى بنصيب ايجابى معروف . ومنذ بداية القرن الثالث عشر بدأت توسع رقعتها وتتوسع فى غزواتها حتى بلغت حدود القرم وسوريا وبعض بلاد أفريقيا الشمالية !..**

لكن فينيسيا لم تلبث أن قهرتها فى معركة حاسمة سنة ١٣٨٠ .. ثم انتزع منها الاتراك ممتلكاتها فى الشرق . وعلى أثر اكتشاف كولمبس لامريكا سقطت جنوا تحت سيطرة اسبانيا ، ثم فرنسا ، فالنمسا .. وفى سنة ١٨١٥ ضمت الى مقاطعة بيدمونت .. حتى توحدت مقاطعات ايطاليا فى دولة واحـــدة فصارت جنوا مجرد ميناء من موانىء الدولة الجديدة ، وما زالت حتى الآن ..

مقابر « جنوا » الضـــاحكة !

◆ **والى** جانب زهو جنوا بمجدها الغابر ، وقصورها الباذخة ، وميناءها الرئيسى الكبير ، تراها تزهو أيضا بمفخرتين : نهضتها الصناعية الحالية التى تساهم فيها ثلاثمائة ألف يد من أبنائها (أى نحو نصف تعدادها !) .. ثم مقابرها المشهورة « الفيحاء » ، وتعرف باسم مقابر « ستاليينو » أو (مقر القديسين) ..

فتعال معى نزور هذه المقابر الفريدة فى نوعها فى العالم ! .. ولنستقل اليها الترام من ميدان فيرارى الجميل الذى يزدحم ، والشوارع المتفرعة منه ، بالمحلات التجارية الكبرى (وترى صورة للميدان فى صفحة٣٢) .. ثم

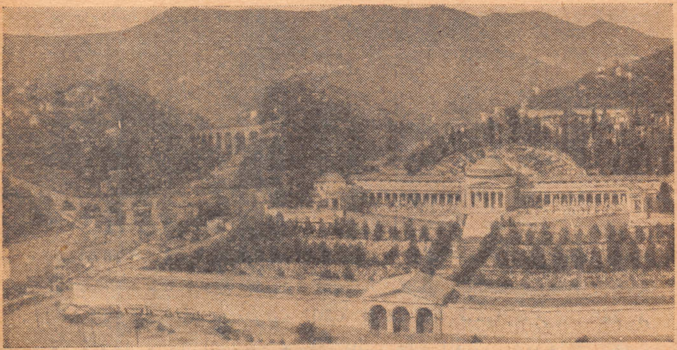


فى هذه الصورةوتكملتها المنشورة على الصفحة المقابلة ، ترى منظرا عاما لمقابر جنوا المشهورة التى يطلقون عليها «مقر القديسين» ، وهى أول ما يراه

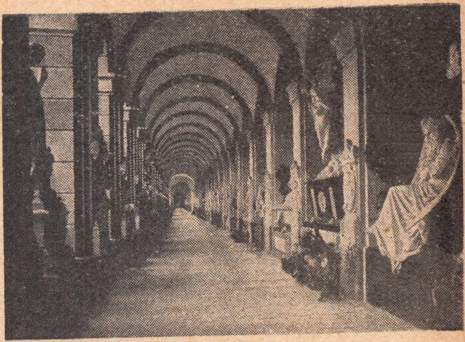
يمر الترام بشارع « ٢٠ سبتمبر » ، فميدان محطة « برنيولى » ، أجمل محطات السكك الحديدية بالمدينة - (ففى جنوا ثلاث محطات كبرى ! فى حين أن القاهرة التى يبلغ تعدادها ثلاثة أضعافها ، ليس بها غير محطة واحدة !) - وبعد أن يعرج بنا الترام الى محاذاة الضفة اليمنى لنهر « بيسانيو » ، يسير فى هذا الاتجاه نحو ربع ساعة ، بين النهر الى اليمين ، والتلال الشاهقة الى اليسار .. ونرى الى يسارنا شارعا عجيبا على صورة سلم كبرى مؤلفة من مئات الدرجات ومنحوتة فى التلال ، تفضى الى حى عصرى جديد فى أعلى التل !

حيث يرقد الزعيم مازينى !

ثم يبلغ الترام موقفه النهائى ، فاذا نحن أمام باب « مقر القديسين » !.. **وندخل من باب المقابر الى حديقة شاسعة ضاحكة .. منسقة أروع تنسيق.. لا يوحى منظرها بأن لها بالموت أدنى صلة !.. فيما عدا هذه الآلاف من الصلبان الصغيرة الانيقة التى انتثرت فوق رخام القبور المنبثة بين أحواض الزهر ، وأشجار التل .. وفوق قمة التل يرقد فى قبره الزعيم الايطالى « مازينى » ..**



السائح من معالم المدينة .. ويرى حولها سورها العظيم الذى تتألف منه من الداخل أبهاء فاخرة مزينة بالتماثيل الرخامية الشخصية للموتى ..



صورة لأحد أبهاء المقبرة الرائعة وقد تتابعت على جانبيه القبور الرخامية وتماثيل الموتى

ولكن ما لنا نتعجل بنظراتنا الوصول الى التل ، ونحن ما نزال عند الباب ؟ .. فلنقم بجولتنا فى أرجاء المقبرة ، على مهل .. وأول ما يصادفنا بمجرد اجتيازنا العتبة ، بهو طويل مسقوف ذو أربعة أضلاع - تكاد تكون هى الاطار الخارجى للحديقة الفسيحة المربعة التى فى الوسط والتى يقوم فى مركزها تماما تمثال شاهق للعذراء ..

تماثيل للموتى بالحجم الطبيعى !

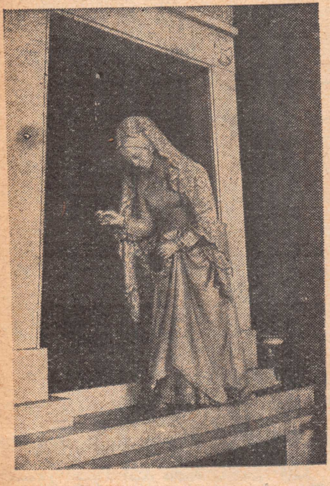
فاذا سرنا داخل البهو الرخامى المترامى - الذى ترى صورة له مع هذا الكلام - وجدناه مقسما الى مئات المقاصير الصغيرة التى تفصل بينها أقواس متقاربة متتالية .. وفى كل مقصورة قبر من الرخام ، يقوم فوقه تمثال رائع - بالحجم الطبيعى - يمثل الفقيد فى موقف من مواقف الحياة أو الموت ، مع عائلته أو وسط موكب الملائكة ، وقد كادت ملامح وجهه أن تنطق فتحدثنا ، من فرط ما أتقنها الفنان الذى صنع التمثال ! .. وقد تبارى أثرياء المدينة وذوو اليسار من أهلها فى شراء أمكنة لهم فى المقبرة تقام فيها قبور أفراد عائلاتهم وتماثيلهم « الحية » ، كما تباروا فى تكليف أقدر المثالين والفنانين من رجال المعمار بنحت تماثيلهم وتصميم مقابر جميلة لهم .. أما الذين لم تتسع قدرتهم المالية لذلك فقد قنعوا بدفن موتاهم فى قبور صغيرة مجانية فى الحديقة ، وان كانت هذه القبور بدورها لا ينقصها الجمال ، والمهابة ، وأحواض الزهر المنسقة المحيطة بها ، والصور والتذكارات الانيقة التى تحف بها ..

قصة بائعة الدانتلا !

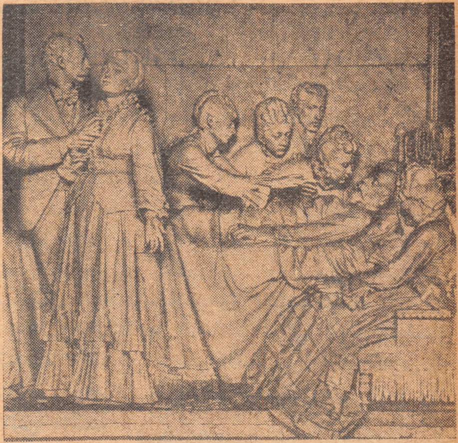
ويتوسط الجانب الايسر من المقبرة مبنى بل صرح ضخم مكون من عدة طوابق ، وله « سلاملك » رخامى لم أر فى قصور الملوك والأباطرة أجمل ولا أعرض منه ، اذ يبلغ عرض درجاته وارتفاعها عشرات الامتار ! .. وبالمبنى كنيسة كبيرة للصلاة على الموتى مزينة بأبدع النقوش ، كما أن به أبهاء أخرى يتتابع فيها معرض الموتى « الاحياء » الذين خلد الفن والذوق الجميل ذكراهم ، وسماتهم ، ونظراتهم وابتساماتهم .. بل خلد أحيانا دموعهم التى تراها تنحدر على وجناتهم فى روعة تكاد معها أن تخرج منديلك لتكفكفها عنهم وتدخل السلوى على قلوبهم المفطورة .. **ومن أروع التماثيل التى تراها فى هذا القسم تمثال بائعة دانتلا عجوز عاشت حياتها تدخر الليرة فوق الليرة ، من كدها وعرق كفاحها الصامت ، كى تجمع المبلغ الذى يكفى لأن تبتاع به لنفسها مكانا فى « مقر القديسين » ، وتكترى به فنانا يصنع لها قبرا وتمثالا .. وقد كان ، واحتلت مكانها فى البهو وقد ارتدت ثوبا من الدانتلا ، التى عاشت تبيعها ولم يقدر لها أن تلبسها حية! ، وأحنت رأسها الذى أثقله الأسى والهم .. تعرض بضاعتها على الراغبين !**

.. فاذا انتهت جولتنا ، وأشبعنا أنظارنا من « متحف » الموتى ، بل جنة الاحياء .. اتجهنا نحو باب الخروج ، ولن نعدم فى طريقنا أرملة حزينة أو ابنة مكلومة قد انحنت على قبر عزيز لها ، تشعل الشموع حوله أو تتفقد الازهار التى تحف به أوانيها الجميلة ، لترى هل أبدلها البستانى فى ذلك الصباح بأزهار جديدة أم لم يفعل بعد !

وهكذا يصنعون فى ايطاليا من الموت جمالا !



تمثال بائعة الدانتلا فوق قبرها !



صرح «رخامى» يمثل أسرة كاملة تودع عائلها وهو على فراش الاحتضار

« الاخت ماريا »

◆ **ونخرج** من المقبرة الضاحكة وقد حان موعد الغداء - ويا للمفارقة بين الموت والحياة ! - فيهمس لنا الدليل مقترحا أن نمضى لنقضى وقتا طيبا عند « الأخت ماريا » أو « الأخت جينا » .. وكلاهما مطعم من مطاعم جنوا التى تقدم وجبتها التقليدية الممتازة : المحار ! .. ويقع أحد المطعمين بقرب الميناء والآخر بناحية ميدان (كاريكا منتو) ، فاذا دخلنا ايهما بهرنا من أول وهلة طابعه المحلى الخالص ، وسقفه المقوس ، وذلك الجو العتيق الذى يهىء لك أنك تعيش فى قصة من قصص العصر القوطى !

فاذا رفع الساقى من أمامك الطبق الأخير ، تجاهلت حنينك الى فنجان القهوة المصرى ونهضت لتواصل تجوالك فى المدينة ، فليس فى أى مكان من أوربا - وأيا كانت حرارة الطقس - خمول أو اغفاءة بليدة ساعة القيلولة ، ولا فى وقت السائح متسع .. للنوم !

ولنبدأ جولتنا من ميدان (أكوافيردى) - ومعناها « المياه الخضراء » - حيث يقوم تمثال هائل لابن جنوا « كريستوف كولمبس » ، وقد انحنت «أمريكا» راكعة أمامه ! .. ثم ندلف منه الى شارع «بالبى» فنستهل زياراتنا لقصور جنوا التاريخية بالقصر الملكى - « بالازو ريالى » - وأهم ما فيه قاعة فان‌دايك ، الحافلة بلوحات هذا الفنان الهولندى الخالد .. ثم قصور

« بيانكو » ، و « روسو » - الذى تحتل طابقه الأرضى الآن بصفة مؤقتة اكاديمية الفنون الجميلة ، وبه لوحة رائعة لكليوباترة بريشة « جيرشان » - ويليه قصر « دوريا تورسى » أو قصر البلدية ، الذى تعرض فيه « الكأس المقدسة » التى تناول فيها المسيح نبيذ الكرمة ليلة العشاء الربانى الأخير . ومن طريف ما حدث لهذه الكأس أن نابليون حين غزا ايطاليا حسبها من الزمرد فأخذها معه الى فرنسا ، لكنها انكسرت عن غير قصد فظهر انها مصنوعة من عجينة من الزجاج الشرقى القديم أو الخزف الرومانى .. لكنها رممت من جديد وأعيدت بعد ذلك الى حيث تعرض الآن ، ويطلقون عليها « الكنز » ..

فى بيت « كولمبس » .. وبيت « مازينى »

فاذا خرجنا من قصر البلدية تابعنا جولتنا الى قصر « سان جورجيو » ، الذى يرينا مزيجا من الفن القوطى وفن النهضة .. ثم قصر « سبينولا » ، فقصر « دوريا بامفيلى » الذى شيده أميرال البحر فى عهد شارلكان .. ثم قصر « كوميونال » ، وبه مجموعة من اللوحات الرائعة ومخلفات العظماء : منها خطابات كريستوف كولمبس ، و «كمنجة» العازف المشهور باجانينى ، ومائدة رائعة من البرنز من مخلفات الرومان يرجع تاريخها الى عام ١١٧ قبل الميلاد .. ثم نختتم الجولة بين القصور بزيارة قصر الدوج - مقر حكام المدينة القدماء - وهو يستعمل الآن كمحكمة ! - وقد شيد عام ١٢٩١ ، ثم التهمه حريق سنة ١٧٧٧ ، فأعيد بناؤه ، وأخيرا جدد سنة ١٩٣٥ ..



تمثال آدم بالمقبرة



..وتمثال حواء

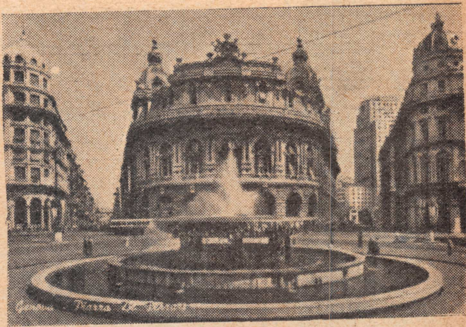
وبعد أن رأينا من تذكارات كريستوف كولمبس خطاباته وتمثاله ، بقى

أن نزور منزله ، فى احدى شعب شارع دانتى .. ومن هناك نستطيع أيضا أن نزور البيت الذى ولد فيه الزعيم مازينى ، فى شارع لوميللينى .. وبذلك نكون قد استنفدنا أهم معالم جنوا التاريخية

٥ ملايين ونصف مليون سائح !

◆ وهبط المساء ، وتلألأت أنوار المدينة ، وأضيئت نافوراتها .. وبدأت حياة الليل تدب فى شرايينها المختلفة . والايطاليون نوابغ فى كل فن ، بما فى ذلك فن اجتذاب السياح .. وهم لذلك قد أنفقوا الأموال الطائلة — منذ عهد موسولينى — لتجميل مدنهم والاكثار فيها من أماكن النزهة ودور اللهو .. وحين دمرت القنابل جزءا كبيرا من جنوا خلال الحرب الأخيرة سارعوا الى اعادة تشييد ما هدم منها على أجمل نسق .. **وكان لما فعلوه فيها وفى سائر مدن ايطاليا الكبرى مفعوله السريع فى اجتذاب السائحين ، حتى لقد فاق عددهم منذ سنة ١٩٥٢ نسبة زوار ايطاليا فى السنوات السابقة للحرب ، فبلغ هذا العدد فى العام الماضى خمسة ملايين و ٥٠٠ر٨٠٠ر٤٠٥ سائح ، أنفقوا فى ايطاليا خلال العام نحو ١٣٥ مليار ليرة ايطالية ، أى ما يوازى ثمانين مليون جنيه مصرى !**

ومن أكثر مجالى جنوا التى يقبل عليها السائحون طريق الكورنيش الجديد ، وميدان الجولف ، ثم شاطىء «ليدو دالبارو» ، الذى يستحمون فيه أو يتغدون فى النهار ، ويقضون فيه السهرة فى المساء .. ثم هناك الطريق المتعرج الجميل الصاعد الى ساحة ميدان (مانين) ، حيث يطل الناظر على خليج جنوا وعلى المدينة بأسرها ، وقد تلألأت ليلا بالأنوار .. وفى جنوا أكثر من طريق للنزهة يشرف



ميدان « فيرارى » بجنوا ، تتوسطه نافورته الجميلة ، وهو من أهم ميادين المدينة

على أبدع مناظر البحر والميناء والمدينة .. وفيها مصعد طائر ينقل طلاب النزهة من ميدان (بورتيللو) الى مرتفع « ريجى » الذى يعلو عن سطح البحر بثلاثمائة متر .

ومن أماكن النزهة التى أعدتها جنوا لزائريها واعتنت بها كل العناية ، ضاحية (بيلى) التى تبعد عنها أحد عشر كيلو مترا ، وهى محطة للحمامات يقصدها الكثيرون من السياح وأهل البلاد على السواء ، وبها قصر « بالافيتشينى » ذو المنتزه المشهور المزدان بالتماثيل الرائعة ، وقد خصصت بعض أجنحته لكثير من المتاحف .



منظر عام لضاحية «بيلى» الجميلة ، وهى من ضواحى جنوا المشهورة بحماماتها

ضاحية تاريخية تقترن باسم غاريبالدى

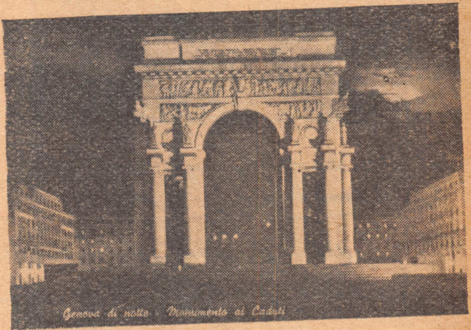
والضاحية الثانية لجنوا هى ضاحية (نيرفى) – على بعد ١٠ كيلومترات – ويمر الترام فى طريقه اليها بمكان يسمى « حى الألف » لأنه الحى الذى بدأ منه غاريبالدى حملته الى صقلية بألف جندى من أتباعه يوم ٥ مايو سنة ١٨٦٠ . و « نيرفى » من الضواحى التى يقصدها الناس كثيرا فى الشتاء بحكم موقعها المحمى من العواصف . ومن أجمل معالمها متنزه البلدية ، ومتحف الفن الحديث الذى يقع فى وسطه .

ومن أشهر مسارح الأوبرا فى ايطاليا كلها مسرح « كارلو فيليس » بجنوا ، ويقع فى ميدان فيرارى ، بقلب المدينة ، وقد ألقيت عليه القنابل أثناء الحرب فدمرت منه أجزاء كثيرة ، ولا سيما من الداخل .

على أن فن اجتذاب السياح يقتضى وضع سياسة لارضاء جميع طبقاتهم ، ونزواتهم .. ومن ثم يستطيع الباحث عن اللهو الرخيص والمتع الخفية أن يتجه الى الميناء القديم ، على بعد خطوات من المحطة ، فيجد فيه ما يشاء من أماكن اللهو العلنى والسرى . ومن أشهر ملاهى ذلك الحى « بار شنغهاى » و « بار سنغافورة » .. كما يستطيع أن يمضى الى شارع « برى » ، حيث يقع نظره على أغرب خليط من الغرباء والبحارة ، من جميع الأقطار ، وتصافح أذنه شتى اللغات واللهجات .. وهناك تنعقد أجرأ سوق للرقيق الأبيض، ويتم التفاهم بين قناصات الفرص وطلاب المتعة ، تحت سمع البوليس وبصره ، دون أن يحرك ساكنا أو يتدخل .. ذلك أنه ، بنوع من التصريح الضمنى ، يغض رجال البوليس الطرف عن كل ما يجرى !

جولة فى « جنوا » القديمة

◆ **وقبل** أن نغادر جنوا ينبغى أن نلم ولو المامة سريعة بأحيائها القديمة ، فتعال معى هذا الضحى نزور تلك الأحياء.. ها نحن ندخل حوارى وأزقة ضيقة ، معتمة ، لا تكاد ترى الشمس.. ان الثياب المغسولة المنشورة على الحبال خارج النوافذ — فوق رؤوس المارة — قد أصبحت



منظر ليلى لقوس النصر المقام فى جنوا ، وهو لا يقاس بقوس النصر الضخم الرائع الذى يتوسط ميدان « الاتوال » بباريس

جزءا لا يتجزأ من طابع هذا الحى ، فهى فى حاجة الى ساعات طويلة ، بل ايام ، كى تجف ! .. وبين صفى المبانى العالية الكالحة التى تحد تلك الازقة من الجانبين ، تصطخب حياة لاهثة يتزاحم فيها المارة بالمناكب .. وفى داخل الحوانيت الصغيرة المتلاصقة ، وتحت مظلات الباعة المتواضعين الذين ليست لهم حوانيت ، تسمع المساومات بين الشارين والبائعين بكافة لغات الارض ! .. وتشم وانت سائر تلك الرائحة التقليدية التى تشيع فى جو الموانىء ، رائحة الملح والقار ، مختلطة برائحة الزيت الساخن الذى يستعمله باعة الفطائر فى قلى بضاعتهم المحشوة بالخرشوف ، والسبانخ ، والأرز ، والبصل ، والقرع !

وفى الميادين الصغيرة - التى يطلق عليها هذا الوصف تجاوزا - والتى « تتورم » فيها تلك الازقة الضيقة بين الحين والآخر ، تجد اسواقا مختلفة « مصغرة » : للخضروات ، والفاكهة ، والازهار .. والى جانبها صبية مرحون يلعبون « الحجلة » ! .. ثم تبلغ سوق السمك ، فيروعك فيه منظر حشد من القطط الضالة ، قد هرعت من جميع انحاء المدينة لتأخذ نصيبها من الغنيمة !

وفجأة تلمح بائعا جائلا يعرض مئات من « الكرافاتات » الانيقة على عربة صغيرة ، فتتقدم نحوه لتبتاع بعضا من كرافاتات جنوا المشهورة ، « بنصف الثمن » ! .. ولكن حذار ، فانت واهم . ان الثمن واحد ، هنا كما فى متجر « سكابينو » بميدان فيرارى ! وأمامك ساعتان تستطيع فيهما ان تذهب الى هناك لتبتاع ما تريد ..

هل فرغت من مشترواتك ؟ اذن هيا بنا نأخذ متاعنا من الفندق ونمضى لنستقل القطار .. الى روما

بيوت منثورة على سفوح التلال الخضراء

وفى محطة جنوا الأنيقة « برينيولى » ، كان قطار روما السريع الذى يسير بالكهرباء ، رابضا يتأهب للرحيل . انه يقطع المسافة ، التى تبلغ ٥٢٦ كيلو مترا ، فى خمس ساعات ونصف .. أى بسرعة نحو ١٠٠ كيلو فى الساعة !

واخذت مكاني في مواجهة رجل ايطالى في نحو الخامسة والثلاثين ..

وآثرت فى البداية ان اتجنب الاشتباك معه فى حديث ، كى لا يشغلنى عن تأمل المرحلة الاولى من الطريق التى سنقطعها فى ضوء الغروب ، قبل ان يخيم الظلام .. ولم يكد القطار ينطلق محاذيا من يمينه شاطىء البحر ومن يساره سلسلة المرتفعات الخــلابة المكســوة بالخضرة والتى انتثرت على سفوحها الدور الجميلة الهادئة .. حتى استولى المنظر ، بل المناظر ، على مشاعرى تماما .. فقد كانت تحمل الى وعيى فى كل لحظة زادا جديدا من الجمال ، والسحر .. وخيــل الى اننى ادركت سر شغف الايطاليين بالفن ، ونبوغهم فيه ، فلقد حبتهم الطبيعة بالجمال المصفى ، المبذول بغير ثمن !

الطبع الايطالى .. والطبع الانجليزى !

ووجدت فى هذا الخاطر فرصتى للاشتباك مع جارى فى حديث .. فقد تذكرت المثل الطريف الذى يقول : **« اذا اردت ان تعرف ما ينبغى ان تفعله فى ايطاليا ، فاذكر ما يفعله الناس فى انجلترا ، وافعل عكسه ! »**

.. وقد تكون المفارقة جريئة الى حد ما ، لكن فيها نصــيبا كبيرا من الحقيقة : ففى انجلترا لا يقبل الناس ان تلقى عليهم اسئلة شخصية .. وهنا ، ينتظر الايطاليون منك ان تلقى هذه الاسئلة ، حتى على جارك فى القطار ، الذى تراه لأول مرة ! .. ينبغى ان تسأله هل هو متزوج ؟ وماذا يعمل ؟ واين يقطن ؟ وما هى اسماء اطفاله ؟ .. واذا فتح ســلة الطعام الانيقة التى يحملها معه فى القطار ، فعليك ان تقبل منه الفاكهة التى يمد يده بها اليك .. واذا كان معك بدورك طعام ، فلتقدم له منه ، ولتتكلم .. كلمه عن نفسك ، وعنه هو .. عن كل شىء .. والا اعتبرك متغطرسا ! .. كن معه لطيفا ، بشوشا ، فأنت فى بلاد اللطف والرقة .. واذا اردت أن تدخن سيجارة ، أو تفتح نافذة، أو رجوت من سيدة أمامك فى السينما ان تخلع قبعتها .. فليكن طلبك مسبوقا دائما بعبــارة اذا سمحت ، لا تؤاخــذنى (per piacere mi scusa) **ثم تعقب بانه ظريف للغــاية** (troppo gentile) **وانك شاكر ممتن ، تموت خجلا** (gratissimo, confuso, obligatissimo) **.. ولتحرص على ان تربت على خدود اطفاله ، وتمد اليه يدك بالجريدة التى فرغت من قراءتها ، وتقول له كلمة لطيفة عن بلاده .. وعن الناس .. وعن الطقس .. الخ - ففى ايطاليا كلها ، جنوبها وشمالها ،**

يحب الناس الاختلاط ، والتبسط ، والثرثرة .. مهما بدا على بعضهم من تجهم أو تحفظ فى بداية الأمر

ولكن قبل أن تتكلم ، لتحرص على تجنب العبارات التقليدية المحفوظة ، مثل : « انكم فى ايطاليا لا تأكلون سوى المكرونة ! » - لأن هذا غير صحيح - أو : « ان بلادكم متحف اوربا ! » .. واذا كان فى وسعك ان تبدى له اعجابك بجمال فن المعمار فى روما أو فلورنسا ، فلتقرن ذلك على الفور بامتداح ضخامة المشروعات الحديثة ، وتقدم الصناعة فى السنوات الأخيرة ..فان عبقرية «ميكيل انجلو» ينبغى ألا تحجب عبقرية « فيات » .. وعظمة ملعب الفورم الرومانى لا تحجب روعة طريق « الأوتوستراد » الهائل الذى أنشأه موسولينى بمحاذاة شاطىء ايطاليا من شمالها الى جنوبها !

موسولينى قضى على اللصوص والمتسولين !

وقد كانت السمعة السائدة عن ايطاليا قبل نهضتها تحت الحكم الفاشى انها بلاد يكثر فيها المتسولون واللصوص وقطاع الطرق ، ولا يؤمن على السائح اذا سار فى بقعة غير مطروقة فى ساعة متأخرة من الليل .. حتى لقد كان الشعار الذى يلقن للراغبين فى زيارتها : « لا تأمنوا للأيدى التى تمتد اليكم متوسلة ! » .. لكن الصرامة التى عالج بها موسولينى تلك الحال طيلة ربع قرن ، بدلت الأوضاع كلها وخلقت من المواطن الايطالى رجلا أمينا يحرص على سمعة بلاده ويسمو بها الى المستوى المعهود فى الدول الكبرى .. وبعد أن كان يتعين عليك أن تحصى باقى النقود التى يردها اليك أى بائع أو صراف ، صرت تستطيع أن تضعها فى جيبك وانت آمن ، دون أن تحصيها ، بنفس الثقة التى تحسها فى المعاملات فى لندن أو فينا أو باريس ..

وآنسنى الحديث مع جارى فى كثير من الموضوعات التى طرقناها - بانجليزيته المتعثرة حينا ، وايطاليتى العرجاء حينا - فانقضت الساعات الخمس أو الست بغير أن أتنبه لشىء من صور الشريط المتحرك المعتم الذى كان يتتابع فى الظلام خارج نافذة القطار .. اللهم الا حين وقف بنا فى محطة (بيزا) - مدينة البرج المائل المشهور - لكن الليل لم يرنى منها بالطبع غير رقعة سوداء تتلألأ خلالها الأنوار ..

وقبيل الساعة الواحدة صباحا ، وقف بنا القطار فى محطة روما ..

وفى العدد القادم نزور معا « المدينة الخالدة » - كما يطلق العالم على روما ! - ثم نستأنف رحلتنا معا الى فلورنسا والبندقية

سلاح الاسلحة والمهمات
اعلان

تقبل عطاءات بادارة العقود والمشتريات بسلاح الاسلحة والمهمات بالمعادى لغاية الساعة الثانية عشر ظهر يوم ١٩٥٤/١١/٢٨ عن توريد ترابيزات وكراسى للحلاق وشماعة بالمرآة ويمكن الحصول على الشروط وقائمة الاثمان من الادارة المذكورة مقابل مبلغ ٢٥٠ مليما يضاف اليها مبلغ ٤٠ مليما أجرة البريد وتقدم الطلبات على ورقة تمغة فئة الخمسين مليما .

٩٠٦٣

مجلس بلدى بورسعيد

تقبل العطاءات بمجلس بلدى بورسعيد حتى ظهر يوم ٤ ديسمبر سنة ١٩٥٤ عن ادوات لصيانة روافع وماكينات محطة المحارين وتموين المخازن

وتطلب الشروط والمواصفات من المجلس على ورقة تمغة فئة الخمسين مليما نظير دفع مبلغ ٢٠٠ مليم خلاف أجرة البريد للنسخة وكل عطاء لا يرفق به تأمين ابتدائى قدره ٢ ٪ من قيمته لا يلتفت اليه.

٩٠٤٩

مصلحة المساحة بالجيزة
(أورمان)

تقبل العطاءات لغاية الساعة ١٢ من ظهر يوم ٤ ديسمبر سنة ١٩٥٤ عن توريد قضبان حديد خفيفة ويمكن الحصول على الشروط مقابل مبلغ ٣٠٠ مليم يضاف اليها مبلغ ١٠٠ مليم أجرة البريد وتقدم الطلبات على ورقة دمغة فئة ٥٠ مليما .

٩٠٣١

تفتيش رى البحيرة
بدمنهور ـ اعلان

تقبل العطاءات بمكتب تفتيش رى البحيرة لغاية ظهر يوم ١٩٥٤/١١/١٥ عن انشاء بدالة جديدة على ترعة بلقطر كيلو (٢٠٠ر١١) على مصرف العموم

ويطلب اورنيك العطاء على عرضحال تمغة نظير دفع مبلغ ٤٥٠ مليما زائدا ١٠٠ مليم مصاريف بريد .

٩٠٤٢

تفتيش رى البحيرة
بدمنهور ـ اعلان

تقبل العطاءات بمكتب تفتيش رى البحيرة عن الاعمال الآتية :

١ - يوم ١٩٥٤/١١/١٨ عن تحويل مسقة كوم النفوة الى ترعة عمومية

٢ - يوم ١٩٥٤/١١/٢٠ عن تحويل مسقة المنشية الى ترعة عمومية

٣ - يوم ١٩٥٤/١١/٢١ عن تحويل مسقة عقاب الى ترعة عمومية

ويطلب أورنيك العطاء عن العملية الأولى على عرضحال تمغة نظير دفع مبلغ ٤٥٠ مليما زائدا ١٠٠ مليم مصاريف بريد وعن كل من العمليتين التاليتين نظير دفع مبلغ ٧٥٠ مليما زائدا ١٠٠مليم مصاريف بريد .

٩٠٥٧



روما فى الليل : ميدان (ايزيدرا) ونافورته المشهورة مضاءة ليلا وسط حى المقاهى والملاهى والمحلات التجارية الكبرى



روما فى النهار : تماثيل رائعة فى الشوارع ، ومصابيح النور على شكل مسلات مصرية (فى « طريق الهدنة » المفضى الى ميدان الفاتيكان الذى تتوسطه المسلة المصرية الكبرى التى نقلها الامبراطور « كاليجولا » من هليوبوليس – عين شمس – الى عاصمة ملكه !)



"مس جميل"

قصة مصرية بقلم: الدكتور سعيد عبده

◆ **عند ما** فتحت باب البهو وتهادت منه الى غرفتها لم يكن من حقى أن أنظر اليها أكثر من نظرة استطلاع ٠٠

كنا ثلاثة فى البهو مجتمعين على مائدة العشاء فى احدى ليالى نوفمبر سنة ١٩٢٩

الاول شيخ فى السبعين ، حياها عندما دخلت تحية مملوءة بمرح الشيخوخة ، ردتها بابتسامة خفيفة ، وانحناءة من رأسها الاشم أضفت عليها مظهر أميرة تحيى أحد رعاياها المخلصين

والثانى شاب وسيم متأنق فى الثانية والعشرين ، دخل احدى كليات الجامعة منذ شهر ، وكان الاثر الذى تركه فى نفسى منذ عرفته أنه طفل مدلل ، شب قبل الاوان ٠٠

كان الشيخ هو صاحب البيت

وكنا ـ زميلى وأنا ـ نزلاء فى هذا البيت من بيوت الكراء ٠
وكنت يومئذ فى الثامنة والعشرين ، أستعد لامتحانى النهائى فى كلية الطب ، وألتمس العزلة فى هذا البيت ، الذى أغرانى به يوم اكتريت غرفة فيه منذ خمسة عشر يوما ، خلوه من كل دواعى الفتنة ، اذ كان كل نزلائه النساء : قرينة صاحب البيت وهى عجوز مشلولة تقضى معظم وقتها فى الفراش ٠٠ وطاهية زنجية هتماء ، هى فى الوقت نفسه خادم ، لا تفارق المطبخ الا لتلبى نداء العجوز ، أو تنظف البيت ، أو تقدم الطعام ٠٠

وتهيأت لى كل أسباب الجهاد لمستقبلى ، والقراءة كلما شئت ومقدار ما أشاء

*

من أين هبطت هذه الفتاة ذات الشعر الذهبى والعيون الزرق ، والوجه الفاتن ، والقوام الممشوق ؟

أعود بالقارىء الى قبل مقدمها بيومين :

كنا يومئذ نسمر بعد العشاء ـ زميلى وأنا ـ وبدا لى أنه صامت ، قلق ، عابس على غير ما اعتاد ٠٠ فسألته ما به ، فقال : « قد أحببت ! »

قلت : « ألعلك محب غير محبوب ؟ »

قال : « كلا »

قلت : « ألعل الطريق شائكة ؟ »

قال : « أقسى شوكها أننى أخشاك ! »

قلت وأنا فى ما يشبه الذهول : « تخشـانى أنا ؟ ولكنى لا أعرف أحدا هنا تخشانى عليه ، اللهم الا أن تكون العجوز المشلولة قد سلبت فؤادك ، أو الزنجية الهتماء !؟ »

قال : « انها ساكنة جديدة ستتقدم بعد يومين ، وقد رأيتها وهى تتفق مع صـــاحب البيت على كراء الغرفة المجاورة لغرفتك ! »

قلت : « فانى نازل لك عن غرفتى منذ الليلة ان كان فى هذا ما يرضيك ٠٠ »

قال : « لست أعنى هذا ٠ انما أخاف أن تحبها ! »

قلت أجاريه وقد آمنت أكثر ممـــا كنت أومن أنى أخاطب طفلا أدركه الشباب قبل الاوان : « وما الذى يخيفك من حبى لها ما دمت مطمئنا الى حبها اياك ؟ »

قال : « انما أخشى أن أخسرك ، وقد أصبحت أنظر اليـك كأخ أكبر فى هذا الوقت القصير ! »

ولم أتمالك من الضحك من هذه السلسلة التى لا يحسن سبكها الا منطق الاطفال ٠٠

وساءه الضحك فى مثل هذا الموقف الجاد الخطير ، فأ[illegible]
أن أسرى عنه ، فقلت له : « **اسمع ، لقد شبعت من ا**[illegible]

ثم انى مغرق فى عملى اغراقا لا أظن كليوباترا نفسها تصدنى عنه لو سعت الى فى زورقها الجميل ، وفوق ذلك فلك من الشباب والفتنة أسلحة أنا منها أعزل ، وأنا أحرص على نفسى من أن أزج بها فى مثل هذا النزال ! »

ولو كنت وجهت هذا الثناء الى صبية لم تر فى حياتها رجلا لما احمرت كل هذا الاحمرار الذى ضرج وجنتى زميلى بلون الارجوان ..

واطمأن بعد خوف ، وانفرجت أساريره ، واندفع يروى لى قصة الساكنة الجديدة التى هى كالعادة أجمل فتاة على وجه الارض :

كل ما عرفه عنها أنها بولندية من أم انجليزية ، تقطن الاسكندرية ، وقد قدمت الى القاهرة أول مقدمها اليها فى نزهة تستغرق بضعة أيام ..

وكل القصة التى ألفها حول حبه الموفق ، تتلخص فى أنها نظرت اليه نظرة اعجاب ، وضحكت له وبادلته الحديث عن البيت ونزلائه عشر دقائق ، آمن أثناءها أن كليهما كان يبحث دون شعور عن الآخر منذ قدر لكل منهما أن يرى نور الحياة !

وتكشف لى المحب المحبوب فى لحظات عن صبى يحلم بالحب ، فأشفقت على سندانه الهش من مطرقة الزمان !

*

◆ **نظرت** اليها وهى تتهادى فى البهو بعين المستطلع ، فعادت النظرة الى عينى موقرة بحمل ثقيل من آيات الفن الجميل ..

ثم نظرت الى زميلى فاذا اللقمة كأنما غص بها حلقه وكأنما [illegible]اول ولا يستطيع أن يخفيها فى جب من فمه. لا يطلع منه على [illegible] آدمى هذا الاله المعبود !



ومرت أيام أربعة لم أرهـا فيها ، ولم أر زميلى ، فقدكانت تحب أن تبكر فى تناول طعامها عن المواعيد المقررة • وانضم اليها زميلى بطبيعة الحال

وأكلت مع الشيخ أول يوم• ثم اجتـذبه المعسكر الآخر فى اليوم الثانى ، فبقيت وحدى••

وآثرت أن يعد لى الطعـام فى غرفتى ، وأنا سعيد بهذه الوحدة التى أعانتنى عـلى ما اعتزمت من تكريس وقتى كله لعملى ، وقطعت علاقتى بكل الوجوه الا وجه الزنجية الهتماء

ونسيت فى غمرة جهادى زميلى الحالم والساكنة الحسناء •• حتى كان اليوم الخامس

وكانت بواكير الشتاء تملأ الفضاء ••

وعدت الى البيت فى أصيل اليوم أحمل فى روحى عبئا من أعباء الحياة آدها حتى القرار ••

كنت حزينا لامر ما ففتحت الباب ، ودخلت ، فألفيت الجميع حول المائدة يسمرون •• حتى العجوز المشلولة هيأوا لهـا مقعدا وأثقلوا لها فى الغطاء

حييتهم تحية مقتضـبة ، ثم اندفعت الى غرفتى ، وأغلقت الباب

وتمددت على سريرى دون أن أخلع معطفى ، ولبثت أفكر فى ما كان وما يكون

وما هى الا دقائق حتى سمعت قرعا على البـاب ٠٠ واذا الشيخ صاحب البيت يقول : « **نحن أهل بيت واحد ، ويبدو عليك أنك حزين ، فهـلا روحت عن نفسك بالسـمر مع السامرين ؟** »

وشكرت له عطفه ، واستعفيته محتجا بأنى متعب ، أحتاج للراحة أكثر مما أحتاج للسمر ٠٠

قال : « **اذن فتعال أقدمك الى الساكنة الجديدة الحسناء٠٠** »

قلت : « سيكون شكرى لك مضاعفا ان قدمتنى اليها فى وقت آخر »

قال : « **ولكنها هى صاحبة الاقتراح أن أدعوك للجلوس معنا الآن ٠٠** »

وفى هذه المرة أصاب السهم هدفه !

وأكذب ان قلت انى خرجت معه على مضض ٠ انما خرجت وفى نفسى نشوة من زهو الشباب الآفل ، ولمحة من فتنـــة الشىء المجهول !

وكان التعارف ٠٠ ثم تلاه صمت أحسست فيه وقد رأيت وجوم زميلى اننى دخيل

ـ هل أكون متطفلة اذا سألتك لماذا أنت حزين ؟

قلت : « قد فقدت صديقا ٠٠ »

قالت : « كلنا للموت »

قلت : « لم يمت ٠ ولكن سرقته منى أدنى مطامع الحياة ٠

وضحك الكل الاها من هذا الجواب ٠٠ حتى الطفل الكبير !

أما هى فأحدت الى النظر ولم تتكلم ، ولكن نظرتها كانت أبلغ فى العطف على نكبتى من كل كلام ٠٠

قالت : « هل أدلك على سلوى ؟ »

قلت : « ومن لى بها ؟ »

قالت : « انك طبيب »

قلت : « بل أكاد ٠٠ »
قالت ضاحكة : « وأنت مريض ؟ »
قلت : « قد أكون ٠٠ »
قالت : « دعنى أكن طبيبك الليلة ٠٠ »

وكدت أقول ليتك طبيبى طول الحياة ، لولا أن وقعت عينى على زميلى ، وكان يتشـــاغل بتصفح مجلة مصورة ، فاذا أساريره تنقبض على مثل ألم الملدوغ من أفعى ، فاكتفيت من الرد عليها بأن قلت باسما :

ـ هذا شرف عظيم

واستعارت منى قلما وورقة فكتبت فيهـــا على هيئة وصفة طبية كاملة :

وسكى : كأسان
سندوتش مشكل : ٣ قطع
ســردين : علبة
زيتـــون : كمية كافية !
تؤخذ قبل النوم !

ولم تنس التاريخ ٠٠٠ ولا توقيع الطبيب !

ولم أكد أقرأ ما كتبت حتى انفجرت ضاحكا ، وضـــحك الكل معى ـ الا زميلى ـ على غير معرفة علام يضحكون !

واستأذنت فى الذهاب الى الصيدلية !

قالت : « لا تتعب نفسك ٠ أنت ضيفى الليلة ، وسأكون الصيدلى كما كنت الطبيب ! »

وبسطت المائدة ، وصفت الكؤوس ، واشترك الكل حتى العجوز المريضة فى تعاطى الدواء !

وبعد الكأس الاولى انصرفت العجوز الى ماواها ٠٠
وبعد الثانية استأذن الشيخ ٠

وبقينا ثلاثتنا ، اثنان يتجاذبان الحديث ، يشرقان فيه ويغربان ، والثالث بينهما ساهم واجم ، كأنما انحشرت فى حلقه ضفدعة لا تسمح له أن يقول أكثر من لا أو نعم كلما اتجه اليه أحد السامرين بسؤال !

وبعد الكأس الثالثة نسيت صديقى الذى فقدته !

فلما كانت الكأس الرابعة كان البرم بزميلى ووجهه العابس فى مثل هذا الجو الباعث على الحبور قد بلغ أقصاه . فقلت له ممازحا :

ـ تحرك ، أبا الهول !

ولو كنت صفعته بنعل لما فعل فيه مثلما فعل هـذا اللفظ القصير ..

فقد هب من مجلسه قائما ، ثم رمى كأسه فى وجهى ، وصب على سلسلة من الشتائم أهونها فى نظر قانون العقوبات انى نذل وسافل وجبان .. ثم اندفع الى غرفته مغرورق العينين بالدموع ..

ولم تفهم الساكنة الحسناء ما قال ، اذ كانت لحسن الحظ لا تعرف هذه العربية الفصحى ! فسألتنى مرتاعة :

ـ ماذا يقول السيد ؟ ولماذا هذه الثورة ؟

قلت : « انه مخمور ! »

قالت : « يا له من طفل ! »

ثم استأنفت ما كانت فيه من حديث ..

*

◆ **فى** صبح هذه الليلة فارق زميلى المنزل الى غير رجعة ، وعلى غير انتظار ..

ولم يؤبنه أحد الا الزنجية الهتماء !

وحسبت ما لى وما على فى اليوم الذى مضى فوجدتنى خسرت

صديقا وكسبت « صديقة » ، وكان ربحى فى الصـفقة ربح التاجر الجشع فى السوق السوداء !

ومضت عشرة أيام زرنا فيهـــا كل مكان كانت تجهله فى القاهرة ، واصطحبتها الى المسرح والسينما ، واستغرقت معها كل السمر البرىء الذى كان يمكن أن يكون موضوعا للحديث بين شاب وفتاة ..

وبدأنا نترك للعيون والشفاه ، أن تتفاهم بالاسلوب الذى تعرفه ولا تعرف أسلوبا سواه !

وفى الليلة الحادية عشرة كانت جالسة فى البهو بعـــد العشاء منصرفة الى خيطها وابرتها ، وأنا بجوارها أنظر اليهـا وأتنهد ولا أدرى ما أقول

وطال السكوت حتى قطعته قائلة :

ــ ألم يبق لديك شيء تقوله ؟

قلت : « بقيت كلمة واحدة تتردد تردد الخوف بين القلب واللسان »

قالت وعينها الى الخيط والابرة :



ــ اننى أنتظرهـــا من زمن طويل !

قلت : « عدينى أن تنسيها ان لم تصادف هواك »

قالت : « لك ما تشاء »

قلت وكأنى أحس بطيـــف كليوباترا منتصبا أمامى يسخر من سخريتى بها فى لحظـــة غرور : « اننى أحبك ! »

فطاف فى وجنتيهـــا ظل من الحمـــرة ، ثم رفعت رأسها ، ونظرت الى قائلة :

ـ ليتك تحبني كما أحبك .. منذ حدثتني عن فقد صديقك !.. ان الحزن على ضياع الاصدقاء شيء جميل

ولكن الاجمل منه كانت القبلة الطويلة التى ختمت هذا الحوار القصير !

*

◆ **لست** بحاجة الى أن أقول للقارىء انى لم أعرف بانعقاد الامتحان فى كلية الطب الا يوم قرأت فى الصحف بعد شهرين أسماء زملائى الناجحين !

ولكل معركة حب نصيبها فى الخسائر والاسلاب

ان الحياة تنهى قصصها عادة بأساليب ليست من البراعة بمقدار ما يتفتق عنه خيال القصاص

ففى نفس هذه الليلة عدت الى البيت أحمل الصحيفة التى نشرت أسماء الناجحين ، وفى نيتى أن أجعل من هذا الموضوع تفكهة الليلة بينى وبين « مس جين »

لكنى لم أجد « مس جين » .. انما وجدت بدلا منها خطابا تودعنى فيه ، وتشكرنى من أعماق قلبها على السعادة التى هيأتها لها فى ثلاثة أشهر ، ستكون ذكراها كنزها الحى ما امتدت بها الحياة ، وتستغفرنى عن تحطيم الاحلام التى شيدناها قصورا للمستقبل السعيد !

كانت متزوجة لا تستطيع الزواج من جديد ، وكان زوجها فى عمل له فى وطنه وقد عاد !

راحت ولم يبق من آثارها الا وصفة أعانتنى يوما على شجن فقدر لها أن تعيننى على عذاب طويل ..

ظاهرة عالمية ٠٠ ومن قديم الزمان !

◆ **جلس** الملك « أنشلاوس » ليقص لحيته الطويلة ذات يوم ، على يد حلاق جديد لم يسبق أن قصها له ، فسأله الحلاق قبل أن يبدأ :

ـ كيف تريدنى أن أقصها لك يا صاحب الجلالة ؟

فكان جواب الملك :

ـ فى صمت !

الصمت من ذهب !

◆ **كانت** احدى نساء « واشنطون » البـــارزات فى المجتمع جالسة فى احدى الحفلات ذات مســـاء بجوار الرئيس « كوليدج » ـ رئيس جمهـــورية الولايات المتحدة وقتئذ ـ وكان مشهورا بميله الى الصمت، فبادأته الحديث قائلة :

ـ انك صموت للغاية الليلة !٠٠ لقد راهنت بعضهم اليوم على اننى أستطيع أن أنتزع منك أكثر من كلمتين!

فأجاب الرئيس :

ـ ستخسرين الرهان !

ولم يزد جوابه على الكلمتين !

« اللبيبة » بالاشارة تفهم !

◆ **كان** الاديب المفكر الدكتور « صمويل جونسون » يتحدث يوما مع سيدة ثرثارة ، لم يبد احتفالا بها ٠٠ فقالت له وقد أدهشها مسلكه :

ـ يخيل الى يا دكتور جونسون انك تفضل صحبة الرجال على صحبة النساء !

فأجابها جونسون بلباقته المعهودة :

ـ بل انى شغوف للغاية بصحبة النساء يا سيدتى ٠٠ فأنا مولع بجمالهن ، ورقتهن ، وحيـــويتهن ٠٠ وصمتهن !

عندما ترفع الستار..



روائع المسرح العالمى
(التمثيلى.. والغنائى)

عزيزى القارىء ...

قدمت لك فى هذا الباب فى الاعداد الماضية المسرحيات العالمية الآتية :

- خطايا الحب : لاوسكار وايلد
- الحب الآثم : تولستوى
- نزاهة الحكم : جوجول
- سلاح المرأة : اريستوفان
- فولبون : بن جونسون
- جيوكندا : دانونزيو
- كلام الناس : جوزيه اشيجاراى
- مدرسة الفضائح : شيريدان
- سيرانو دى برجراك : روستان
- لعبة الحب والموت : رومان رولان
- مروحة الليدى وندرمير : وايلد
- فاوست : جيته
- اوديب الملك : سوفوكل
- فى سبيل الحب : جون درايدن
- وليم تل : شيللر
- الأم : مكسيم جوركى
- الملك يلهو : فيكتور هوجو
- الذبيحة : اندريه اوبيه
- الجنس الآلى : كاريل كابيك
- الابن الاكبر : جالزورثى
- هرنانى : فيكتور هوجو
- ترويض النمرة : شكسبير
- الحياة نفاق : لويجى بيراندللو
- اغلال الحب : ستيف باسير
- المنافق (طرطوف) : موليير
- بيت الليل : تييرى مونييه

واليوم اقدم لك فيما يلى هذه المسرحية الحديثة التى تقترح حلا لمشكلة الشباب المراهق ((المشاغب)) !



عرض وتلخيص : الاستاذ أنور لوقا

المسرح الفرنسى يساهم فى حل مشكلة شبابنا !

فى افتتاحية « كتابى » الاسبق حدثتك عن مشكلة الشباب فى مصر - والشرق عامة - وطالبتك بأن تنزل الى الميدان لتبدى رأيك فيها ..

واليوم يوافينا من باريس صوت الاديب الاستاذ انور لوقا ، معلقا على هذه المشكلة ، وملخصا - تعزيزا لتعليقه - هذه المسرحية الرائعة التى كأنما كتبت خصيصا لتساهم فى اضاءة الطريق المظلم الذى يتخبط فيه مجتمعنا العاجز عن فهم نفسيات الشباب ومعالجة مشكلاتهم :

عزيزى « المحرر »

حديثك عن « مشكلة الشباب » ينبغى أن تتجاوب أصداؤه حتى ينكشف الداء وينجع الدواء ..

وحقا ، لماذا نثرثر فى مصر كفلاسفة بيزنطة ، ونتساءل كمن فقد الرشد : أنعيم شبابنا أم جحيم ؟ أخير شبابنا لنا أم شر علينا ؟ ... فما هو بالخير ولا هو بالشر ، وانما هو طور من أطوار الطبيعة فينا ، أردناه أم أبيناه . ومن الضلال أن نستخدم مقاييس الفضيلة والرذيلة فى تقدير تصرفات الشباب وأن نصدر على نتائجها أحكاما أخلاقية . وهل كانت ظاهرة الربيع - بما يحمل من ورد وشوك - مشكلة يتدخل فى حلها عالم الأخلاق أو مشرع قانون العقوبات ؟

ان الشباب جمال ، وفتوة ، وشعور دافق بالحياة ونحو الحياة . انه العاطفة العاتية ، والمغامرة الجامحة ، وصوت القلب الذى لا يعلو عليه صوت العقل ، والرغبة الفردية التى لا تعبأ بأى حائل اجتماعى يتصدى لها . ومن هنا كان الخطر وكانت المشكلة . الا أن المشكلة ليست فى الشباب نفسه ، بل فى التفاعل المحتوم بينه وبين المجتمع القائم . فاذا انحرف الشباب عن الطريق ، لماذا نتهمه بالانحراف ولا نلوم المجتمع الغاشم الذى سد دونه الطريق ؟

مشكلة الشباب اذن من اختصاص علماء النفس أولا وعلماء الاجتماع ثانيا ، وهؤلاء وأولئك خليقون بأن يريحوا منها علماء الأخلاق وهيئات القضاء ورجال الدين .

ولحل كل مشكلة ينبغى - كما تقول - مواجهتها بصراحة ، والنظر فيها بعين بصيرة وتفهمها بصدر رحيب ، فليست المشكلات فى أكثر الاحيان ناشئة الا من سوء تفاهم ..

ويا ليت المتصلين بشباب المدارس فى مصر من أولياء الأمور والأساتذة والمربين وأهل الفكر قد شاطروا الشباب عيشهم ، ولمسوا واقع يومهم وليلهم ، وتعرفوا خواطرهم ونزعاتهم ، ثم أعطوهم ما هم فى حاجة اليه . اذ ذاك تسكن النفوس وتقر العيون ، ويطمئن الأمن وتنعدم جرائم الأحداث ، وتتجه جهود الشباب الضائعة الى أعمال ايجابية انشائية لا حياة للأمة بغيرها .

انهم قوة هائلة تعوزها الرعاية والقيادة والارشاد ... لا الرعاية السامية الجافة التى تأتيهم من فوقهم ، ولا القيادة الصارمة التى تأمرهم وتنهاهم ، ولا الارشاد الخارجى الى الفروض والواجبات ، بل هذا الشعور بالزمالة والاخاء والحب ممن يرعونهم ويقودونهم ويرشدونهم ، دون استعلاء ودون مداراة ودون تكلف ، فهلا قدمتم لهم بدل الزجر ابتساما ، وبدل النصيحة فكاهة ، وبدل الجمود حركة ؟

ان فى قلوبهم كنزا من العاطفة ، وفى سواعدهم كنزا من النشاط ، فعلموهم الحب والحب يعلمهم العمل ...

واذا لم يقتنع بهذا الرأى البسيط دعاة التقاليد البالية وأصحاب الأفق الضيق ، فلا بأس عليهم من دخول هذه « المدرسة الجديدة » ـ الرواية التى تصفق لها باريس كل ليلة منذ بدء هذا الموسم الجديد ـ ففيها نرافق التلاميذ المراهقين ونرى كيف يفسدون رغم شدة ناظرهم وكيف يصلحون بفضل رقة أستاذتهم ! وكاتب هذه المسرحية المرحة البارعة الناجحة ـ روجيه فردينان ـ رجل قد اشتغل بالتدريس فى صدر حياته ، وأتيحت له فى التربية خبرة واقعية وفى التأليف المسرحى منزلة ممتازة خولته الآن رئاسة « جمعية المؤلفين » . فلنستمتع بفنه ولنستفد من درسه :

ـ ١ ـ

• **ناظر** المدرسة الثانوية باحدى مدن الاقاليم جالس الى مكتبه ، يتحدث فى وقار الرجل المسئول الحازم الى الصيدلى «لامى» والد تلميذ مشاغب لم يفلح فى ردعه النصح ولا الانذار ولا العقاب وليس بد من فصله !

ويبدى الوالد حسرته لسوء سلوك ولده «جبرييل» ، متسائلا : كيف استطاع الفتى أن يفسد وهو من عائلة كريمة تضم أشرف الاسماء ، من المحافظ الى السفير الى رجل الدين ؟ فيشكو الناظر من ظاهرة الفساد العامة التى عمت تلاميذ

هذا الجيل ، فقد دل الاحصاء فى مدرسته على أن تسعة أعشار التلاميذ من المتمردين ، ولا جدوى فى ذلك للمثل الصالح الذى تضربه الاسرة لابنائها ، فهذا ولده فى نفس المدرسة يشاطر زملاءه الاحداث عبثهم واجرامهم وينفق ليله خارج البيت ! ان جرثومة الفساد فى الجو ، فهل من سبيل للقضاء عليها ؟

يستدعى الناظر «جبرييل» ، فيدخل فتى طويل القامة قد وضع يمناه فى جيبه وتدلت من يسراه محبرة مشدودة الى خيط يهزه رقاص الساعة . وينهره والده آمرا اياه بالاحتشام والاحترام ، فيخرج الولد يده من جيبه قابضة على علبة سجاير يقدمها لابيه ، طالبا نظيرها « لترا من الكولونيا » لأن سعر التبغ قد ارتفع !.. ولا نلبث حتى نعلم أن هذا الفتى ورفاقه - وبينهم ابن الناظر نفسه ! - يروجون السوق السوداء .. (والقصة تجرى فى فرنسا عام ١٩٤٣ ، أى فى أيام الحرب والاحتلال العصيبة التى تفشى أثناءها الاتجار فى الخفاء بجميع مواد التموين) . واذ تنهال على «جبرييل» كلمات التقريع والتأنيب من أبيه الذى يريد أن يحمله على أن يعتذر «لحضرة الناظر» عن سلوكه الفاضح ، وأن يتعهد بالرجوع عن غيه والانتظام فى الدراسة ، يخرج الفتى منديلا :

الوالد : اطو منديلك ! نحن لا نريدك أن تبكى .

جبرييل : اننى أخرجه لكى يذكرنى طرفه المعقود بميعاد !

الوالد : أى ميعاد ؟

جبرييل : هذه مسألة شخصية !

الناظر : أرأيت يا سيد «لامى» ؟ اننى لا أسمع منهم غير هذا : تجارة ، سينما ، نساء !.. ولو كان الامر أمر عاطفة طاهرة تنتابهم فى ربيع المراهقة لاستطعنا أن نجد بعض العلاج ..

الوالد : أجل ، فلقد عرفنا هذه العاطفة جميعا فى طور المراهقة ..

الناظر : أما أنا فلم أعرفها ٠٠ أو فلأكن عرفتها ٠٠ ولكن هؤلاء الشبان لا مكان لديهم لمثـــل هذا الضعف واللين ٠٠ أليس كذلك يا جبرييل ؟

جبرييل : أوه ! اننى شخصيا لا أعير ذلك من الاهتمام أكثر مما يستحق ٠ فليس لدينا الوقت الكافى لكل شىء !

الوالد : اخجل من نفســـك !٠٠ أين تعلمت هذا ؟ فى السينما ؟

جبرييل : كل الناس يذهبون الى السينما ٠٠

الوالد : أنا فى مثل سنك لم أكن أرتاد القـاعات المظلمة ٠ كنت قد بدأت دراسة الصيدلة لأحل بعد خمس سنين محل جدك الذى كان «دكتورا» فى المـادة ٠ فهـلا اقتديت بأعمامك وأخوالك ؟

جبرييل : أنى لا آخذ على عائلتى شيئـــا ٠ واذا كنت قد رسبت مرتين فما ذلك بذنبى ٠٠

الناظر : بل ذنبك أنت ٠٠ لقد طلب أستاذ الفلسفـة نقله من هذه المدرسة بسبب ما تقود اليه زملاءك من أعمال التشويش عليه بلا انقطاع ، ولم يستطع خلفه البقاء أكثر من أيام ثلاثة فى هذا الجو !

⁂

◆ **وليت** الامر قد وقف عنـــد حد التنغيص على أستـاذ الفلسفة ، بل هذه رسائل بخط جبرييل موجهة الى تلميـذة قاصر بمدرسة البنات ، فى الســادسة عشرة من عمـــرها ، ضبطتها معها ناظرة المدرسة فسلمتها للنــاظر المسئول عن سلوك تلاميذه ٠ وينتبه جمهور النظارة لهذه الواقعة التى قد تنبنى الرواية بأكملها عليها ، ولكننا سرعان ما يستغرقنـــا الضحك حين نتبين أن العلاقة بين الفتى والفتاة علاقة بريئة قامت على الحاجة الى تبادل بعض المواد الغــذائية بطريق المقايضة ، وأن أم الفتى على دراية بهــذه القصة ٠ ومع ذلك

فالناظر مصر على طرد «جبرييل» لكى تهــدأ الخواطر فى مدرسته ، والاب الصيدلى يستغفره لانه حريص على أن يحصل ابنه على شهادة البكالوريا ليواصل دراسة الصيدلة ويرث من بعده صيدلية جده العريقة • الا أن الفتى يجهر بأنه يكره أن يصير صيدليا وأن ينفق حياته حبيس جدران أربعــة ، وانه يحب البحر والافق العريض والمغامرات التى لا تنقضى فى حياة الملاحين ••

ويستدعى الناظر تلميذا آخر ، فيخبره الحاجب بأن هناك آنسة تدعى الآنسة «برافار» تنتظر الاذن لها بالدخول ، وقد حضرت فى قطار الصباح من باريس ، وهى تحمل فى يدها كمانا «كمنجة» ! فيندهش النــاظر من قدوم فنانة باريسيــة الى مدرسته ، وهاهو ذا بعد أن أبى استقبالهـا لانشغاله بما هو أهم ـ أى بتأديب تلاميذه ـ يفتح البـاب ويحييها مستطلعـا من تكون ، واذ يتبادل واياها عبارات قليلة يستنتج أنهـا مدرسة جديدة تعينت لمـادة الفنون الجميلة بمدرسة البنات وأنها أخطأت الطريق • فيبدو على الآنسة شيء من خيبة الامل ، وهى التى كانت تتمنى التدريس للفتيان ، وتبرز للناظر خطاب تعيينها فيقرأه ويلاحظ أن اسم المـدرسة غير مذكور على وجه التحديد ، ويشرح لها كيف تصل الى مدرسة البنات • وقبـل أن تنصرف تستفهم عن بعض الاماكن فى المـدينة ووسائل المواصلات الى البحر ، فيجيبها «جبرييل» وزميله «بارباران» فى كثيــر من الاعتداد بالنفس وفى مروءة من يريد أن يؤدى خدمة لشخص مغترب ، غير شاعرين بأنهما يتدخلان فيمـا ليس يعنيهما ويسقطان بذلك هيبة الناظر !

*

ويبدأ التحقيق مع «بارباران» ، هذا الغليظ الذى لا يرعى حرمة التقــاليد المدرسية ولا يهتم الا بالكسب من صفقاته الرائعة فى السوق السوداء ، مستغــلا اشتغال أبيه بتجارة

الخمـــور · ولا يخلو تفتيش جيوبه من مفاجآت ، ولا كلامه السوقى من فكاهة · ويطرق الباب طارق ، واذا بالآنسة تدخل مرة أخرى ، فيسألها النـــاظر أن تنتظر خارج المكتب حتى يفرغ من التحقيق · ولكنها لا تنصرف هذه المرة أيضا قبـــل أن تستفهم عن بعض الامور التافهة التى لا تعنى ناظر المدرسة، ونفهم أنها تريد أن تطيل الحوار لكى تستمتع بمشهد التحقيق مع التـــلاميذ ، لا سيما وقد أحضر الحاجب ثلاثة آخرين ، أحدهم ابن الناظر ! غير أنها تضطر الى الخروج ، ويوصـــد الباب ، ويقف الناظر فى جلال سلطانه أمام تلاميذه الخمسة الذين سرعان ما اصطفوا جنبا الى جنب وأخذوا يتبادلون من الاشارات والغمز واللمز ما اصطلحوا عليه وما يغرق الجمهـور فى موجة من الضحك · **ويشرع الناظر فى محاسبة الفتيـان حسابا عسيرا ، وهو فخور بأنه قد وضع يده على تلك المجموعة من خطاباتهم المرسلة الى تلميذات مدرسة البنات الثانوية ! يسألهم من يكون بينهم هذا الشاعر الذى كتب الى الفتـــاة شارلوت قصيدة من الغزل مطلعها « أنا لا أقارن بالبـــدر حسنك » ؟ ·· فيصمتون ، وأخيرا يجيب «باتوريل» ــ وهو يمتاز عن رفاقه بوجه وسيم وصدر عريض وصوت رخيم ــ بأنه قد نظم تلك الابيات فى صاحبة جمعته واياها حفلة أقامها الهواة أثناء عطلة العيد السابقة ، فقد اضطلعا بدورى البطل والبطلة فى رواية «كارمن» ، وألف بينهمـــا حبهما للموسيقى والغناء** ·· لكن الناظر لا يقتنع بهـــذا الحديث ، ويتناول من على مكتبه خطابا آخر موجها الى الفتـــاة نفسها بخط ابنـه «هنرى» وتوقيعه ! فيقع الخبر على «باتوريل» وقع الصاعقة ويلقى على زميله نظرات نارية ، وان كان يحاول التظاهر بعدم الاكتراث ·· فيقول الناظر فى لهجة المنتصر :

ــ هكذا تتقاسمانها ؟ كل امرىء بدوره ! ؟

فيجيب باتوريل : « أما أنا فلا يعنينى من شـــارلوت الا

صوتها. ولست من الجنون بحيث أقترن بها فى سنى هذه ! »

ويهاجم النـاظر ابنه : «لم أكن أعلم أنك شاعر موهوب ، وكنت أظنك مختصا فى الرسم الكاريكاتورى ومحاكاة أبيك وأساتذتك فحسب !.. سوف نبحث هذا الموضوع عندما تعود الى البيت !»

.. ويصب عليهم جميعا سخطه ونقمته ، ناعتاإياهم بأحط الاوصاف ، مهددا بما له عليهم من سلطة قاهرة تخوله أن يبطش بهم وأن يحطم مستقبلهم : «ان كنتم فى حاجة الى مروض وحوش فدونكم مروض الوحوش ! وان كنتم فى حاجة الى سجان ، فدونكم السجان ! وبناء على ذلك ، انتم محبوسون منذ اليوم الى حين صدور أوامر أخرى ، ومحال أن يغادر المدرسة أحد منكم مهما كان عذره !»

ويأمرهم بالخروج .. فيتحركون فى صمت ، لا يقطعه الا صوت التمليذ «لوجرو» يسأله : «وأنا أيضا ضمن المعاقبين يا حضرة الناظر ؟ »

انه تلميذ متواضع ، ضعيف البنية ، يظهر الفقر على ملابسه . والناظر ـ لكى يحثه على عدم الاشتراك فى مؤامرات زملائه ـ لا يتورع عن تعييره بفقره ، فهو يتيم الاب ينبغى أن ينصرف الى دروسه وأن يجتهد ليعول أمه واخوته ، وهو مدين للمجتمع بالاعانة المالية التى تقررت له ، وليس من حقه أن يعيث فى الارض فسادا :

ـ انك اشتركت اشتراكا ايجابيا فى هذا الاضطراب !؟

ـ أعتقد أن الفقر لا يفرض على أحد أن يفشى سر أصحابه..

ـ فهل فرض عليك الفقر أن تعاونهم فى اثمهم ؟ اننى أقرأ فى خطاب زميل لك هذه العبارة : « الابيات التى يرسلها باتوريل الى شارلوت ليست من تأليفه هو بل من انشاء «لوجرو» الذى سيكون له فى الشعر شأن لامارتين .. »

ـ ليتنى أستطيع .. أين أنا من لامارتين !

– ومع ذلك فانك تتقاضى عن المقطوعة عشرة فرنكات !

– ما كنت أريد أن أتقاضى أى أجر يا حضرة الناظر ..

– سوف تعلمك الحياة يا «لوجرو» ان المرء ينبغى أن يكسب المال عن طريق شريف ، لا أن يستمده من مثل هذه الملابسات الآثمة التى أجهل من تفاصيلها ما تعرفه أنت حق المعرفة !

– أنا لم أسرق من أحد ..

– اننى أترك لضميرك أن يحكم على فعلتك ..

وهنا لا يطيق الفتى الرقيق هذا التقريع الجائر ، ويأخذه الانفعال ، وتغمر الدموع عينيه ، فيخرج من جيبه حافظة نقوده الرخيصة ويرد مبلغا صغيرا الى باتوريل .. ثم يخلع رباط عنقه ويرده الى جبرييل ، قائلا : «منذ الآن لن أكلف أحداً شيئا» ، ويخرج مسرعا . فيدعوه الناظر الذى لا يغير كثيرا من أسلوبه . ويحيط الرفاق الاربعة بزميلهم هذا البائس فى حركة نبيلة من التضامن .. فيمسح «لوجرو» عينيه ، ويبدأ الناظر فى القاء نصيحة أخيرة على تلاميذه المذنبين ، حين يدخل الحاجب وفى يده خطاب وصل الى المدرسة بشأن تعيين «الآنسة برافار» أستاذة للفلسفة وليس للموسيقى ، وفى هذه المدرسة لا فى مدرسة البنات !.. فيستقبلها الناظر باحترام ، معتذرا لها بأن الكمنجة التى فى يدها قد أوحت اليه بأنها لا يمكن أن تكون أستاذة للفلسفة ..

– ليس بين الفلسفة والفن تعارض يا حضرة الناظر !

وينصحها الناظر بأن تؤثر العافية وتؤوب الى باريس فى قطار المساء ، فمن المحال أن تفلح فى تدريس هذه الشرذمة من الاوغاد ، حثالة السنوات السابقة ! لقد تعاقب عليهم ثلاثة من أساتذة الفلسفة فى مدى ثمانية أسابيع ، ولم يستطع الاخير أن يمكث بينهم الا يوما واحدا ، رغم أنه كان رجلا ممتازا قوى البنية مفتول العضلات طويل اللحية ! ولكنها تصر على

البقاء ، والاضطلاع بمهمتها ، وتطمئن الناظر بأنها قد أتمت تمرينها فى مدرسة عريقة من مدارس باريس ، وأنها تعرف كيف تستخدم الشدة فى مكانها • ويقدم لها الناظر تلاميذها الخمسة ، ثم يسألهـــا متى تبدأ دروسها ، فتجيب بأنها على استعداد ، فيصحبها الى أحد الفصـــول •• فى حين يتواعد الرفاق العصـــاة على أن يضطروها الى الرحيل قبل نهـــاية الاسبوع !

- ٢ -

• **والآن** تدور الموقعة : التلاميذ الخمسة فى «الفصل» قبيل بدء «حصة» الفـــلسفة ، وقد أعدوا عدتهم وتأهبوا • فهاهم يستترون وراء أغطية قماطرهم ويلبسون لحى سوداء مستعارة، ثم يخلعونها اذ يشعرون باقتراب خطوات غريبة نحو القاعة • ويستأذن «لوجرو» زملاءه معتذرا عن عدم تجاسره – بعد موقف الناظر منه فى الصباح – على أن يحمل مثلهم لحية مستعارة•• فيصر الجميع على أن يشاركهم فى كل شىء ، فقد ولد النـــاس أحرارا متساوين فى الحقـــوق ، وانهم ليتضامنون معه فى أى أذى قد يلحق به من جراء ذلك ! ويروعنا أن نسمع صيحـــة حيوان وراء الباب الكائن فى مؤخرة القاعة ، وأن نعـــلم أنه خنزير قد احتال التلاميذ على شرائه وعلفه ليربحوا من بيعـــه سمينا فى السوق الســـوداء ! وعلى الواجهة التى لا نراها من نفس الباب قائمة بأسعار كل سلعة : فمثلا «الجورب الحريرى يساوى كيلو من السكر» •• الخ •• ويشجر النزاع بيـــن باتوريل وهنرى حين يرد ذكر «شارلوت» فيهيب بهما جبرييل – زعيم الفرقة – قائلا ان الوقت وقت اتحاد وتكاتف ضد العدو الجديد ! أليست هذه الاستاذة المقبـــلة عليهم جاسوسة من طرف الحكومة التى باتت تشتبه فى أمرهم ؟ لقد توهم رجال الادارة أن ارسال امرأة بينهم هو الوسيلة الوحيـــدة للولوج

الى سرهم وكشف عصابتهم ! وهذا معناه مضاعفة الاحتراس منها مهما اصطنعت من الرقة · وعلى ذلك يعقدون العزم :

— ماذا ترسم يا هنرى ؟

— اننى أتخيل ما خفى منها ··

— انك تبالغ فى حجم تهديها !

ويقارن جبرييل وبارباران ذلك الصدر المرسوم بصدور هذه وتلك من فتيات يسميانهن · على أن «الزعيم» سرعان مايحذرهم من الانجذاب نحو هذه المفاتن الخليقة باغراء آبائهم ، والتى يستطيعون هم أن يمروا بها مرا دون أن يتراجعوا أو يخوروا ! ويتحدثون عن آبائهم فيذكر جبرييل أن أبويه قد «باعا أخته» أى زوجاها رغم ارادتها من رجل غنى دميم لا تحبه ، وأن أباه هذا الصيدلى يخفى ما عنده من الادوية حتى يدفع المحتاج اليها أقصى سعر ممكن · فكيف يجد الابناء خلال ذلك طريق الخير والنزاهة والزهد فى المال ؟

هكذا يتحدثون رغم اضطرابهم لاقتراب المعركة . فهم يراقبون الفناء من نافذتهم، ويرون الناظر يلقى تعليماته الاخيرة الى الاستاذة · أما خطتهم الموضوعة فهى عصيان أى أمر تلقيه عليهم أستاذتهم عصيانا اجماعيا ، فاذا أملت نصا اقتنص كل منهم جزءا منه على حدة دون أن يضطروا الى الكتابة فى وقت واحد ، واذا سألت ينبغى أن يجيبها المسئول بأنه يجهل كل شىء ما دام الناظر يصفهم بالجهل ·· الخ

لوجرو : ومع ذلك فهى لم تسىء الينا !

جبرييل : هناك صفان · وهى فى الصف الآخر · المسألة ليست فردية ··

ويحسون يدأ توشك أن تفتح الباب فيسرعون الى وضع لحاهم المستعارة المضحكة · واذا بالناظر يدخل مع الاستاذة ! فيخلعـون فى لمح البصر تلك اللحى ، ما عدا « لوجرو » الذى

لا يفلح فى نزع لحيته رغم جهاده جهاد المستميت • ويدنو منه الناظر ويعيد عليه فى غيظ قصة الاحسان الذى يتفضل به المجتمع عليه وعلى أسرته التى لا عائل لها :

ـ احزم كتبك فانك مطرود من المدرسة ! اتبعنى الى مكتبى !

ويخرج الناظر بعد أن يتمنى للآنسة برافار التوفيق فى مهمتها الشاقة ، وينصحها بألا تغفل عن ملاحظة التلاميذ حتى أثناء كتابتها على السبورة • وترمق الاستاذة تلاميذها الخمسة الصامتين لحظة ثم تتجه الى السبورة ، فينتهزون الفرصة ويلبسون اللحى • ثم تستدير فتراهم ، لكنها لا تفقد هدوءها ، بل تقول لهم :

ـ لكى نتساوى منذ البداية ينبغى أن تنبت لى لحية • ألا ترون من الابسط أن تخلعوا لحاكم ؟



فينفذون الامر فى قليل من الاقتناع ، وكثير من التباطؤ والتردد :

ـ أشكركم • أتعرفون من قال هذه العبارة : « ان معظم الشباب يظنون أنهم على سجيتهم حين يسيئون الادب ويصطنعون الغلظة » ؟ انه « لاروشفوكو » • اكتبوها فى دفاتركم ••

فيزمجر التلاميذ ! •• لكنها تستطرد دون أن تعبأ بزمجرتهم:

ـ وهذه العبارة أيضا : « حين نحاكى البهائم ، أسهل علينا أن نحاكى أصواتها من أن نقتدى بحكمتها ! » • هل تريدون أن تحملونى على تلقينكم الحكم والامثال ؟

فيقاطعها الزميل جبرييل بعبارة يضحك لهـــا الرفاق •• بينما تواصل هى أمثالها : « ان الصمت للفتى حلية نافعة ، لانه اذا اعتــادها قد يعرف كيف يصغى » •• ثم تضيف : **« وشكرا على هذا الاستقبال ، لو انى كنت فى مثل شبابكم لشاركتكم لعبكم عن طيب خاطر ، ولكننى للاسف قد جاوزت سن الشباب ! »**

فتجيبها عدة أصوات :

ـ أوه أوه ! انك ما زلت شاكية السلاح !

فتشكرهم على تحيتهم • لكن زمجرتهم تعلو من جديد ، فتقترب الآنسة منهم وتأمرهم بالوقوف ورفع أيديهم ، والنظر اليها مباشرة ، « فليس من الشجاعة أن يفعـــــل الفتى فعلة ويتبرأ منها ! »

ويحمل « لوجرو » كتبه وأدواته ، ويغادر قمطره ذليلا ، فتمتد اليه أيدى جميع الرفاق تشد عزمه ، وتعـده باللحاق به ! •• ويهم بالخروج ، فتناديه الاستاذة ، وتسأله عن سنه وحاله الاجتماعية • ويدخل الحاجب قائلا ان النـاظر يطلب « لوجرو » • غير ان الاستاذة تدعوه الى الجلوس فى مكانه ••

ـ اننى أعترف بفضلك ، ولكنى لا أستطيع البقاء ••

ـ أرجوك أن تمكث • ولا تخف ، فاننى هنا ••

ومع ذلك لا يجرؤ الفتى على البقاء ، وانما يكرر شكره ثم ينظر الى أصحابه نظرة أخيرة ويبتعد • فينهض رفاقه وقد حزموا كتبهم يريدون أن يتبعوه !

ـ الى أين تذهبون جميعا ؟

ـ لقد قررنا التضامن معه !

ـ وأنا !

فيتولى « جبرييل » شرح الموقف لها ، مثنيا على موقفها من زميلهم المظلوم ، شاكيا من سوء معاملة النـــاظر لهم منذ أمد طويل . وتتبسط معهم فى الحـــديث ، ثم تلقى عليهم حكمة جديدة : « لن تدوم المشاجرات وقتا طويلا اذا لم يكن الخطأ الا من جانب واحد ! » . فيشعر جبرييل انها حكمة عميقة ، ويريد أن يسجلها فى صدر مفكرته ، ولكنه لا يرى سبيلا الى تطبيقها فى تلك اللحظة لان زميلهم قد تقرر طرده ولانهـــم أقسموا ألا يتخلوا عنه ! ويشكرونها ثم يخرجون جميعا ..

تنادى الاستاذة زعيمهم « جبرييل » لتخاطبه بضع دقائق قبل رحيلها . وانها لتفضى اليه بمشاعر شخصية :

ـ منذ رأيتك هذا الصباح فى مكتب الناظر ، ورغم وقوفك موقف المذنب ، راعنى ما يرتسم فى وجهك من عناد وصراحة ، من حساسية وسخرية معا . هل أخطأت فهمك ؟

ـ انك تستطيعين التقدير خيراً منى يا آنسة ، ويشرفنى كثيرا ما تعيرين شخصى من اهتمام ..

ـ ليس بيننا ما يدعو الى أن نتبادل عبارات التحية الجوفاء، فهى لا تناسب طبعك ولا تناسب طبعى !

ـ ينبغى أن أشكرك على الاقل لمخاطبتى بهذا الاسلوب ..

ـ لمـــاذا يلاحظ من ينظـــر الى الطبيعة أو الى لوحة مرسومة بعض أجزائها أكثر مما يلاحظ سائرها ؟ ولمـــاذا يسترعى انتباهه هذا الجزء دون ذاك ؟ لعلها الغريزة ، لعلها المصادفة ، لعلها البصيرة .. انك تختلف عن الآخرين . ولست أقول انك أفضل منهم ، بل انك لست مثلهم . انك قطعـــا أذكى ، ويبدو أنك أقوى منهم ! ويشـــعر من يراكم مجتمعين انك تسيطر عليهم . أليس كذلك ؟

ـ انهم بوجه عام يسمعون لى

ـ ولكن فى القيام بهذا الدور امتيازا وخطرا . هل فكرت فى ذلك ؟

ـ لا يا آنسة ٠

ـ اذا كانت الكبرياء تجد فى الامرة ما يرضيها ، فالخطر في الميل الى الافراط فى استخدام السلطان أحيانا ٠ وتلك فى مثل سنك مسئولية خطيرة ٠ أليس كذلك ؟

ـ ربمـــا ٠٠

ـ غير انى أخشى أن أظهر أمامك بمظهر أستاذة الاخلاق ، وأن يطغى هذا المظهر على المرأة فى شخصيتى ٠ كيف ترانى ؟

ـ جيدة جدا ٠ ومن قريب ، أفضل بكثير ٠٠٠ ونقيض ما كنا نتوقع !

ـ ألا ترى فى شخصى شيئا عدائيا ، بغيضـــا ، شيئا يضايقك ؟ فهناك أحاسيس غامضة قد نشعـــر بها ازاء بعض الناس دون أن نستطيع تحديدها ٠ وليس كل ما يلمع ـ كما يقولون ـ ذهبـــا !

ـ بكل صراحة واخلاص ، لست أجد ما آخذه عليــك ٠ بالعكس ٠٠

واذ تتأكد من أنها أذابت ما يكون بين الاستاذ والتلميذ من الكلفة وسوء التفاهم ، تخطو خطوة بارعة صائبة لتدخل قلبه المفتوح وتلمس أوتار نفسه المرهفة :

ـ سوف أسألك سؤالا فضوليا ، لانى محتاجة الى ايضاح : هل تعرف الحب ؟

ـ ان لى فى هذا الموضوع أفكارا راسخة ٠٠

ـ وما هى ؟

ـ اننى فى الغالب هادىء ، أو اننى فى الواقع سريـــع الانصراف عن العواطف ، أعود الى نفسى فى اليوم التالىمباشرة، وحين أنظر فيما حدث أتساءل : أو هذا كل شىء ؟ اذن فما بال الشعراء يتغنون بالحب ويتخيلون ٠٠؟

ـ تعنى أنك لم تحب قط ؟

ـ أرجو أن أكون لم أفعـــل .. لانه ان كان الحب مجرد ذلك فحسب .. يكون مخيبا للأمل !

ـ والموسيقى ؟

ـ شوبان يبكينى . ولا أخجل من الاعتراف بذلك ..

ـ انك لتخطىء لو خجلت من تأثرك . والكتب ؟

ـ ألتهم كتب الرحلات والكشوف . كل ما يختلف عن الحياة العادية . ذلك انى أحب أن أسرح بخاطرى بعيدا . وأنت يا آنسة ؟

ـ اننى ابنة بحار

فيصافحها الفتى من شدة اعجابه . ثم يستدرك فيعتذر . الا انها لا تبدى أى استياء من حركته تلك الطبيعية النزيهة . وتحدثه عن البحر والافق العريض ، وكيف يختلف منظره عن منظر خزينة النقود الحديدية ، وكيف تختلف حيـــاة الملاح الطليقة عن حياة الخسة والجبن والنفاق فى السوق السوداء ، وكيف أنه قد انحرف فى هذا الطريق عن طبعه الاصيل !

ـ ولكنى أفعل كالآخرين ..

ـ هناك قدوة أفضل . لماذا ننظر الى من يحيطون بنـــا فقط ؟ فبالمنظار المكبر نستطيع أن نرى ما هو أبعد ، وما هو أكبر وأعلى . أليس كذلك ؟

ـ بالتأكيد

ـ اسمح لى قبل أن أرحل أن أترك لك رسالة . سوف أنسى ما أصابنى من الالم والفشل والحسرة اذا أعرتنى سمعك . انها كلمات امرأة عابرة ولكنك سوف تعيها ، أليس كذلك ؟ سوف تحاول ؟... أنظر ! ان خمسة فتيان رأس مال رائع ، ذخيرة عظيمة من القـــوة والشجاعة والسعادة أيضـــا . لم يدهشنى ولم يثر غيظى لعبكم وعبثكم ، فليس لذلك أهمية عندى . ولكن فى الوقت الذى تستطيعون فيه تحقيق أشياء

كثيرة ، أراكم لا تميلون الا الى ما ينبغى أن تنفروا بطبعكم منه ·· ذلك يبدو لى مستحيلا · أنت تقول : « ولماذا لا أفعل كالآخرين ؟ » · أى آخرين ؟ هؤلاء لا قيمة لهم · وأما العلماء ، والابطال ، والبائسون والفقراء ؟ والموتى ؟ والامهات ؟·· فهؤلاء هم الذين ينبغى أن تقتدى بهم فى الحياة ! ·· ان حياتنا أقصر من أن توفى جزءا من ألف مما يوكل الينا ·
هلا قرأت نظرات الناس ، أنت يا من تريد أن تكون ملاحا ؟ هلا فهمت منها كل ما يعوزهم وكل ما يرجونه منك ؟·· حينما خرج « لوجرو » منذ لحظة صعدت الدموع الى عينيك ، والى عينى ، والى عيون زملائك ·· فهل هذا شعور يثير الخجل ؟ ألست تريد أن تنقذه أنت أيضا ؟

ـ فماذا نعمل يا آنسة ؟

ـ قبل رحيلى ، سأمر على الناظر · وأعدك بأن أتولى الدفاع عن « لوجرو » · ولن أتولى الدفاع عنك ، لانك تستطيع الدفاع عن نفسك ، بأعمالك · شكرا على اصغائك لى ، واعف عن أستاذة الاخلاق ، فقد أعطتك درسها رغم الاضراب !

ـ ما تاريخ اليوم يا آنسة ؟

ـ لماذا ؟

ـ لانه يوم تذكارى بالنسبة لى ، بكل بساطة ··

ـ انك تمزح !

وتمد يدها اليه لتصافحه وتمضى ، فيلثم الفتى يدها بحرارة :

ـ يا آنسة ؟

ـ ماذا ؟

ـ لا ترحلى !

ـ لقد أتممت مهمتى

ـ لا ترحلى !

- ٣ -

◆ **وترتفع** ستارة الفصل الثالث عن نفس القاعة ، بعد انقضاء ثلاثة أشهر ، فى صباح أول أيام الاسبوع • ونـرى « لوجرو » ينسق على مكتب الاستاذة باقة من الازهـار ، ثم يجلس مكانه فيراجع فى عناية نصا قد دبجه ••

ويدخل « جبرييل » متـأنقا فى هندامه ، يتأبط حافظة كتبه ، ويحمل فى يمناه علبة كبيرة ، وتبدو عليه سمات الجد والرصانة • ولا يلبث أن يتحدث الى صاحبه حديث الملهم عن جمال الورد ونقاء الطبيعة ، وغروب الشمس الذى سحره على شاطئ البحر ، سائلا اياه أن ينظم هذه المشاعر فى قصيدة بديعة سوف ينقده عنها أجرا سخيا • لقد تعشى معها – أى مع الآنسة برافار – فى الليلة السابقة • وتنزها طويلا فى ضوء القمر ، بدعوة منها ، مكافأة له على الدور الذى أداه فى تقدم الفرقة أثناء الاشهر الثلاثة • ومع ذلك فهو يعترف بفضلها هى وبفضل زميله « لوجرو » منذ أفلحت فى انتزاعه من مخالب المناظر وأعادته الى الدراسة • أجل ! لقد كسبت أستاذة الفلسفة فى تلك الواقعة قلوب التلاميذ فباتوا لا يدخرون جهدا فى سبيل ارضائها • ويدير جبرييل العلبة التى يحملها فى يمناه ليظهر لصاحبه من خلال الزجاج نموذجا لسفينة شراعية من سفن القرن الرابع عشر • وتلك هديته للآنسة برافار ، فاليوم عيد ميلادها :

– « لوجرو » ، قل لى : هل أحببت ؟

– أحببت أمى وأخواتى ••

– لا ، هل أحببت امرأة ؟ هذا الحب الذى يكفى فيه الفكر رابطة بينك وبينها ، وينسيك ما عدا ذلك ؟ هذا الحب الذى يجعل كل شيء أمامك جديدا ، فريدا ، ويجعل من نبـرة صوت ، أو ابتسامة ، أو لمسة يد ، أو اشارة ، أو كلمـة ،

سعادتك بأكملها !٠٠ هذا الحب الذى يشل الكلام فى حلقك حين تريد أن تقول كل شيء، ويشغلك حتى عن سماع ما تنصت اليه ؟٠٠ ألم تعرف هذا ؟

ـ فى صورة أضعف ٠٠

ـ اذن لا أتمنى لك أن تعرفه ، فهو عذاب ٠٠ بل أتمنى لك أن تعرفه ، فهو عذاب من الجمال بحيث يصبح الموت بسببه بهجة ونعيما !

ـ الى هذا الحد ؟

ـ ان للنساء قيمة أكبر مما نظن ٠ والآن أعتقد شخصيا أن الرجال يعملون كثيراً من الاشياء ، جميلها وغير الجميل منها ، من أجلهن ليس غير ٠ ولسوف ترى !٠٠ لا سيما حين تسيطر هى عليك عقليا بذكائها ، أتفهمنى ؟

ـ أما أنا فتروقنى ابنة وكيل المحافظ ، وعندما تمر فى الشارع تتبعها أفكارى طويلا ، ولكنى أعلم انها لن تكون لى ٠٠

ـ لماذا ؟

ـ أولا بسبب سترتى التى أرتديها ، ثم الباقى ٠٠

ـ ليس لهذا دخل فى الموضوع ٠ انك شخصية فى ميدانك ٠ وبين جيراننا اسكافى له ابن جراح ٠٠ انما المرء بذكائه وقلبه !

ـ ومظهره أيضا ٠٠

ـ المظهر يأتى فيما بعد من تلقاء نفسه ٠ على كل حال لقد فرجت عنى بمشاطرتى ما أنا فيه ، لانك تجيد الشعور بالعواطف ٠٠

ويدخل « بارباران » حاملا صندوقا ضخما من زجاجات الشمبانيا ٠ ويتناول الحوارذكر بعض الصفقات التى آن أوانها، فيبدى جبرييل زهده فيها وفيما تدره عليه من نقود ٠ وبينما يكتب بارباران على السبورة « عيدا سعيدا أيتها الآنسة

المحبوبة » ، يدخل باتوريل وقد جلب حاملا مما توضع عليه دفاتر الموسيقى ، وكذلك هنرى ومعه لوحة زيتية يثبتها فورا على الجدار المواجه لنا ، فنرى صورة للانســة برافار مرسومة فى كثير من الاتقان . ويوشك تعليق بارباران المــاجن على الصورة أن يفسد ما بينه وبين جبــرييل الذى يشمئز من كل وصف مادى يصف به رفاقه هذه المخلوقة السامية ، محط أحلامه ومثله العليا !

وها هى ذى الآنسة برافار تقبل هاشة باشة ، فيقلع الجميع عن التشاحن ويستعدون : يشخص هنرى الى لوحته ، ويجرب باتوريل نغمات صوته ، وينظر جبرييل فى نص الخطبة التى أنشأها « لوجرو » وسلمها اليه لالقائها نيــابة عن الفرقة . والجميع وقوف يحيونها صامتين فى بســاطة طبيعية ، وهى تجيل بصرها من هدية الى هدية ، من مفاجأة الى مفــاجأة . ويملكها الرضا فتسأل فى امتنان :

ـ من الذى ينبغى أن أقبله ؟

فيصيحون : كلنا !

ـ واحد فقط ، وهو يتولى النقل عنى الى الباقين ..

فيعينون بالاجماع زميلهم « لوجرو » . وبالفعل تطبــع الاستاذة على وجنتيه قبلتين كريمتين . ثم ينهض « جبرييل » ويلقى تلك الخطبة القصيرة الساذجة المؤثرة التى يعترف فيها التلاميذ بفضل استاذتهم عليهم وحبهم لها ، وهى التى غمرتهم بعطفها ، وانتشلتهم من حضيضــهم ، وصالحت بينهــم وبين الحياة . وانها لتشكرهم بدورها فى اخلاص بليغ ، وتشرح لهم سعادتها اذ تشعر بأن أمامها الآن خمسة رجال كانوا حتى الامس القريب خمسة صبية . وتجلس ، فيتقدم باتوريل نحو البيانو ـ وقد أحضره التلاميذ من قاعة أخرى ـ ليغنى مقطوعة من تلحين « ماسينيه » ، لانها ذكرت ذات يوم انها تحب فن

ذلك الموسيقى المبدع ! ويهم «لوجرو» بمصاحبته على البيانو ، فلا يسعها الا أن تتناول هى أيضا « كمنجتهـــا » من خزانة الكتب لتشترك فى عزف اللحن حفاوة بالتحية الموجهة اليها . ولا يكادون يتأهبون حتى ينفتح الباب ، ويظهر النـــاظر .. فيقف فى مكانه كالمصعـوق من الدهشة ، ثم يدور بينه وبين الاستاذة حوار سرعان ما يحتدم :

- ماذا تفعلون ؟

- اننا نعمل يا حضرة الناظر . فانى أخصص كل أسبوع احدى ساعات الجدول التسع للتسلية المفيدة ، والثمـــانى ساعات الاخرى للدراسة ..

- اسمحى لى أن أسألك : بناء على أية تعليمات ؟

- لست أعرف من التعليمات سوى مصلحة هؤلاء الشبان والحرص على مستقبلهم .. ولكل أستاذ مناهجه فى التربية

- ان على أنا اختيار المناهج ، وعليك تنفيذها يا آنسة !

- على شرط أن تكون فعالة . فالنتائج وحدها تعنينا ..

- هذا شأنى !

- أو ليس شأنى أنا أيضا يا حضرة الناظر ؟

- وأى سلطة تكون لك على هؤلاء الفتيان اذا شاركتهـم ألعابهم ، ورعيت أهواءهم ، وشجعت بنفسك رذائلهم ؟

- لم يخل واحد منهم ، منذ ثلاثة أشهر ، بالاحترام الذى يدين لى به !

- نتيجة لاى تآمر معا ؟

- لا تآمر قط يا حضرة الناظر ..

- والنظام يا آنسة ؟

- النظام فى نظرى ليس مسألة قوة وتعسف ، وانما هو الطاعة التى يختارها أصحابها اختيارا حرا !

ـ فهل يطيعونك ؟

ـ كل الطاعة ..

ـ والعمل ؟

ـ العمل بالاكراه تعذيب شاق . والعمل فى جـو عدائى لا يعطى الا نتيجة واهية . لقد سلمتنى عصـــاة متمردين ، وأردت أنا أن أجعل منهم رجالا أحرارا مسئولين عن أفعالهم !

ـ فى سنهم هذه ؟

ـ ولم لا يا حضرة الناظر ؟

ـ أظن أنه ليس من مصلحتك ولا من مصلحتى أن نواصل هنا هذه المناظرة التى يؤسف لها .. أرجوك يا آنسة برافار أن تتبعينى الى مكتبى لكى أشرح لك على حدة لماذا يحتم واجبى على أن أضع حدا نهائيا لهذه الاحداث المؤلمة !

يخرج الناظر ساخطا متوعدا، وتأخذ الآنسة حقيبتها لتتبعه، ولكن التلاميذ يسدون دونها الباب ويريدونها أن تمكث معهم. فتشق طريقها بينهم فى رفق ، واذ تسمعهم يقولون فى حزم : « نحن هنا ! » ، تجيبهم بأنها لن تتخلى عنهم مهما يحدث !

ويستولى القلق على التلاميذ . وتشتد ثورة « جبرييل » ، ولولا رفاقه الذين يمسكون به لانطلق الى نجدتها ! ويتصـــل حوار الفتيان دقائق طويلة . وفجأة يتنبهون الى اقتراب خطوات من الباب ، فيسرعون الى أماكنهم . وتدخل الآنسة فتصعد فوق المنصة وتفتح حقيبتها ، وتحمل الى عينيها منظارا غليظا ، وتقفل حول عنقها ياقة ثوبها ، والناظر يراقبها راضيا خارج الباب المفتوح ، ثم يبتعد وهى تقول :

ـ اليكم نتائج الامتحان الاخير : الاول « جبرييل لامى » ، وهو الاول مكرر .. لان هناك أولين !

وتهبط الستارة ..

- ٤ -

◆ **ويجرى** الفصل الرابع فى نفس المكان ، بعد انقضاء أسبوعين : الآنسة برافار تعطى درسا خصوصيا للتلميذ « لوجرو » ، فقد انتهى العام الدراسى ، ولم يبق الا الامتحان الشفوى • وذلك الفتى ذكى نجيب كما نعلم ، ولكن حالته الاجتماعية التى دأب الناظر على تعييره بها قد ضعضعت ثقته بنفسه ، ونحن نرى أستاذته تحاول أن تعيد اليه تلك الثقة اذ تحدثه عن صفاته وامكانياته • ويريد الفتى أن ينقدها قيمة أتعابها عن هذه الدروس الخصوصية ، فتأبى فى رقة سليمة لا تجرح كرامته • على أنه قد أعد لها هدية طيبة من « الشكولاتة » ـ عبارة عن مجموع حرمانه مدة طويلة من كميات هذه المادة الغذائية المقررة له فى بطاقة التموين ! ـ وهو سعيد بهذا الحرمان ، بائس لاقتراب رحيل الآنسة برافار ، لا يعزيه الا وعدها له بأن ترد على ما سوف يرسل اليها من خطابات • وتتركه ليراجع « المنطق » ، وتدلف الى القاعة المجاورة للاشراف على زملائه الذين يراجعون دروسهم أيضا ••

ويقبل « جبرييل » ولا هم له الا السؤال « عنها » ، وشرح حاله وغرامه لصديقه الشاعر : فمنذ شهر كان يحبها « بالجملة » أما الآن فهو يحبها بكيانها جزءا جزءا ، ويرغب فى أن تكون له دون سواه ! لقد بات ليلته ساهرا يفكر فيها •• وهو مستعد لان يضحى فى سبيلها بماله وعائلته وحياته ونجاحه فى البكالوريا •• فمن المحال أن يحتمل فراقها !

ـ وما بالك لا تفاتحها بعزمك ؟ لو كنت فى موقفك لخاطبتها ••

ـ ان الدخول فى الموضوع هو الذى يضايقنى بعض الشىء!

ـ انها من الذكاء والرقة بحيث تفهم عنك ، لا سيما بعد الذى جرى بينكما ••

ـ أجل ، لقد قالت لها عيناى أقصى ما تستطيعان أن تقولا !

ـ وبعد الكلام باللحظ يأتى دور الكلام باللفظ

ـ وعندى من جميل الكلام ما ينبع من القلب ، ولكن كيف أخرجه ؟

ـ آه ! لو كانت لى هيئتك لاجترأت .. وعلى كل حال ماذا تخسر ما دامت ستسافر غداً ؟

ـ لا أريدها أن تسافر غدا !

ـ وأنا كذلك .. هل أبوك على دراية بالامر ؟

ونعلم أن جبرييل لم يحدث أباه بعد عن غرامه ، وان كان الاب يقدر الآنسة برافار لنجاح الفتى على يديها فى الامتحان التحريرى ، ولا أدل على ذلك من أنه انتوى ـ وهو الصيدلى الشحيح ـ أن يهدى اليها زجاجة ضخمة من الكولونيا !

وتلم الآنسة برافار بالقاعة لترى كيف يعمل « لوجرو » . واذ تجد « جبرييل » تسأله :

ـ وأنت ، ماذا تراجع ؟

ـ نظرية العواطف

ـ لا بد أنه موضوع يروقك ..

ـ بالتأكيد ، والا ..

ـ حينما يحب المرء موضوعه ، يسهل عليه درسه ، أليس كذلك ؟

ـ هذا ليس درسا شاقا ، بل متعة . ولئن سئلت فيه عن تفاصيل لا أعرفها لأجبت من وحى خاطرى أحسن الاجابة !

ـ سوف نرى عما قليل ..

وتتركهما يستذكران . ثم يحضر الصيدلى « لامى » ، حاملا هديته فى يده ، حريصا على أن يقابل الآنسة برافار ، فقد أنبأه الناظر بأنها راحلة الى باريس فى قطار المساء . **ويجد**

جبرييل الفرصة سانحة لكى يفاتح أباه ويرجوه أن يطلب له يدها ! ولا تنقضى دهشة الاب رغم الحاح الفتى ومحاولاته ٠ وأخيرا يرضى على شرط أن يبدأ ولده دراسة الصيدلة ويتسلم صيدلية الاسرة ٠ ولا يملك جبرييل الا أن يضحى بحبه للبحر والملاحة فى سبيل تحقيق أمنيته الكبرى ٠ انه يتعهد لابيه كل تعهد ، ويدفعه دفعا نحو القاعة المجاورة لمخاطبة الآنسة ، مصطلحا على أن يقبله أبوه وهو خارج اذا تمت موافقتها ٠
وفجأة ، تدخل الآنسة وتلاميذها الثلاثة الآخرين ، فيحييها الوالد ، ولكنها لا تفرغ له قبل أن تعطى تعليماتها الاخيرة لتلاميذها ، وهؤلاء يستأذنونها فى المجىء لتوديعها بمحطة السكة الحديدية قبل قيام القطار٠ وعلى ذكر السفر والحقائب، يقدم اليها الصيدلى هديته السخية من الكولونيا شاكرا فضلها ٠ ثم يسألها أن يتحدث اليها على حدة ، ويخرجان معا ٠ ويظل جبرييل بادى الاضطراب مع رفاقه الذين ينصرفون الواحد تلو الآخر ٠٠ ثم ينفتح نفس الباب ، ويودع الصيدلى أستاذة الفلسفة متألما ويبتعد، فيلحق به ولده يريد أن يقبله٠٠

وتلاحظ الآنسة ذلك فتبتسم للفتى ، وتعطيه ـ قبل أن تسأله فيما راجع ـ عنوانها فى باريس مكتوبا على ظهر صورة لها

ـ ماذا راجعت ؟

ـ مميزات العاطفة !

فتتخذ معه لهجة « الاستاذة » ، وتصغى لإجاباته وهى تصطنع النظر فى كتابها ٠ وينطلق الفتى كالمحموم يصف العاطفة فى شدتها ، وعنادها ، وسيطرتها على جميع المشاعر ، والهابها للذكاء والشجاعة ٠٠ أما هى فتحاول أن تهدىء من ثورته :

ـ أليس هناك خطر فى اتباع عاطفة تلك أوصافها ؟

ـ لا خطر على الاطلاق !

ـ أليست العاطفة خليقة بدفع من يستسلم لها الى التهور، وبجعله عاجزا عن التفكير السليم والنقد ومراقبة نفسه ؟

ـ فليكن !

ـ وما هى العـوامل التى تشترك فى تكوين العاطفة ؟

ـ أولا : الطبيعة ، لا سيما الطبائع الفائرة ..

ـ وما وظيفة الخيال ؟

ـ لا حاجة الى الخيال اذا كان الواقع كافيا

ـ والارادة ؟

ـ لا تنفع ، فالمرء ينقاد وراء عاطفته كالمجنون ..

ـ وما الدور الذى تؤديه العاطفة ؟

ـ دور رائع !

ـ أليست العاطفة مرضا نفسانيا ؟

ـ بل على النقيض ، انها القوة التى تتغذى بهـا الحياة ، ومنبع كل عمل انسانى جليل ..

ـ اذن فمن رأيك أنه لا ينبغى كبح العاطفة ؟

ـ مطلقا . والمثل الاعلى هو الاستسلام لها دون حائل

ـ ومع ذلك فانك تعلم أن من العواطف ما هو خسيس دنىء ؟

ـ ولكن من العواطف ما هو رفيع ونبيل . واذا كان من الحق أننا ينبغى أن نخضع الجزء الوضيع من كياننا للجزء الاسمى ، فانى أختم رأيى بقول ارسطو : « ليس المهم أن يخمد المرء فى نفسه حرارة الحب ونزوع القلب وحمية الشهوة ، بل أن يوجهها الى الاهداف اللائقة »

واذ يبلغ الفتى هذا الحـد من حديثه الشخصى المتخفى فى صورة الدرس ، تأخذه النشوة فيقبل الأنسة فى عنقهـا .. وهنا يدخل الناظر ، ويقف مشدوها لا يكاد يصدق ما رأت عينـاه !



يطرد الناظر « جبرييل » خارج القاعة ، ويصب على الآنسة شآبيب لومه وتقريعه وسوء ظنه واستنكاره ، وهى لا تقاطعه بكلمة ، بل تصبر على سماعه حتى يفرغ من سرد وقائع اتهامه ، وبعد ذلك تجيبه دون أن تخرج عن سكينتها : تنعى أولا على سوء طالعها الذى يوحى اليه بأنها تنفق أوقاتها مع تلاميذها فى تبادل القبلات ! فقد كان هذا المشهد مفاجأة لها بقدر ما كان مفاجأة له ٠ ولكن من المحال أن يقتنع الناظر :

ــ على الرغم من أنك شابة أيتها الآنسة ، فانك قد جاوزت سن التهرب من الوقائع ٠ دعى مثل هذا الدفاع لتلاميذك !

ــ يؤسفنى أنك لا تثق فى كلامى يا حضرة الناظر !

ــ أمامنا الوقائع !٠٠ فى عنقك يا آنسة !

ــ لانى لم أكن من سوء الظن بحيث أحترس ٠٠

ــ لقد نصحتك باستعمال المنظار دائما ، وارتداء ملابس طويلة ، مقفولة حول العنق !

ــ لم يكن هذا كله ليغير شيئا

ــ من البديهى مع ذلك أن الطبيعة فى سن ال ٠٠ وأمام مثل هذه ال ٠٠ أتفهميننى ؟٠٠ هذا خطير !

ويتلعثم الناظر ٠٠ وازاء خجله من التعبير تعبيرا صريحا عن كل ما يطوف بذهنه من الاوضاع المنكرة ، تغير الآنسة مجرى الحديث وتقدم له برهانا ايجابيا على حسن نيتها : انها على أهبة الزواج من خطيبها الذى تحبه أشد الحب وتنتظر

عودته من سفر بعيد ، وانها ما جاءت للتدريس الا قتلا للوقت ريثما يحين موعد زواجها ..

أما الناظر فيرد عليها بأنه لايفهم من أمرها شيئا ، ويرجوها أن تعلل سلوكها . وانها لتفعــــل ، فى كثير من الصراحة والشجاعة والثقة بالنفس :

ـ منذ وصولى الى هذه المدرسة ، عهدت الى بمهمة كنت تراها يا حضرة الناظر فوق طاقتى . ولقد أفضيت لى بيأسك من الاصلاح . فلم تكن لتستطيع ذلك فى نظرك أية قوة ممكنة ! غير انى نزلت الميدان راضية، وحاربت بالاسلحة التى أمتلكها. **ولم تكن أسلحتى هى العصا والتهديد والعقاب ، بل اننى لكى أنقذ أولئك التلاميذ لم أحجب ابتسامتى ، ولكى أعوض فى أقصر وقت تأخيرهم فى الدراسة أردت أن أحصل على ثقتهم بكل وسيلة .. لقد عملت كل ما أمكن عمله لكى يعبروا ، مهما كان الثمن ، دون خسارة نهائية ، ذلك المنعرج الذى لم يكن بالنسبة لهم ـ وانى لمتأكدة من ذلك الآن ـ الا طارئا مؤقتا . أردت من صميم قلبى أن أجنبهم الغرق ، غير عابئة بالمظاهر ولا بالتقاليد ولا بالاخطار** .. ورغم العــدوى التى تأتيهم من رجال مسنين لا يشفع لهم طيش الشباب ، ورغم هذا المجتمع الفاسد الذى يحيط بهم ، أردتهم ألا يستقيلوا من الحياة كما فعل كثيرون غيرهم ممن يزعمون أنهم يرسمون لهم الطريق.. ولو لم أفلح الا فى شفائهم من التهافت على الربح الحرام ،وفى تعليمهم حب الاشياء التى لا تدر عليهم المـال والنفع المادى ، وفى أن أنسيهم القبح وأضع نصب أعينهم الجمال والكرم ، لو أن عملى قد وقف عنــــد هذا الحد فحسب لأسعدنى أنى أتممته !

ـ نعم ، ومع ذلك ..

ـ اننى ألمس اليوم ان تلك الطريقة لا تخلو من الخطر .

ولكن لم يكن بد من شغل عواطفهم ، وغسل نفوسهم الشابة من الاقذار التىعلقت بها، وايجاد شيء جديد يستأثر برغائبهم. وقد تكبدت فى ذلك من الالم ما لايعادل ألمهم ، لاسيما «جبرييل لامى » الذى ينبغى أن أقص عليك قصته الجميلة التعسة : هذا المتمرد العاصى الذى كان يتزعم رفاقه ليعيثوا فسادا ، والذى كنتم ترفضون جميعا أن تعيروه أى عطف أو اخلاص ، قد تحـــول - لا لشيء الا لانه أحبنى - الى تلميـــذ جاد رقيق كريم النفس . أفهذا عمل قبيح نستحيى منـه ونتلعثم فى التعبير عنه ؟.. لقد أفضى لى أبوه - بناء على الحاحه - انه يطلب يدى ! ولم يستأ الوالد ، ولم أستأ أنا من ذلك - وأرجو ألا تستاء منه أيضا يا حضرة الناظر - فلندعه على الاقل لحلمه .. واذا كان مما يعذبنى أننى لا أستطيع أن أمنحه أكثر من ذلك ، فان الامر بالنسبة اليه مأساة فاجعة ينبغى أن نجنبه اياها .. وأقسم لك أنه لم يحدث بينى وبينه هنا شيء آخر . أرجوك أن تتكرم بتصديقى ، وبالصفح .. ان نجاح هـــؤلاء الفتيان فى الحياة ليسعدنى أكثر من نجاحهم فى البكالوريا .. ألا ترى ذلك مثلى يا حضرة الناظر ؟

لقد امتلأ الناظر اعجابا بها . وها هوذا يصافحها كالمعتذر أو كالعارف بالجميل . ثم يفتح الباب ويدعو « جبـــرييل » الى الدخول ، كما ينادى « لوجرو » الواقف فى الفناء ، ويسأل الآنسة أن تزوره فى مكتبه عند انصرافها ، ويمضى ..

ويطمئن « جبرييل » لان « المسألة سويت » ولان الناظر قد « فهم الموضوع » . ويسـاعد الآنسة على جمع أدواتهـــا فى حقيبتها :

- ولكنك لا ترحلين نهائيا ؟
- بالتأكيد لا ..
- أى ان كل شيء على ما يرام ؟

– على خير ما يرام ..

– أى أننى أستطيع .. أن أكون .. سعيدا ؟

– أجل !.. يا له من سؤال !

– ومع ذلك فانك تسافرين الى باريس ؟

فتصافحه قائلة :

– ولكننا سوف نلتقى !

– قريبا ؟

– أرجو ذلك . الى اللقاء . وأعدك بأنى سأكتب اليك غدا

وتقبله مودعة كما تقبل « لوجرو » . وبعد أن تنظر اليهما نظرة طويلة ، تجيل بصرها مرة أخيرة فى قاعة الدراسة .. ثم تبتعد فجأة لكى لا تخور من التأثر . ويعود جبرييل وئيدا الى قمطره ، ويقول لصاحبه والدموع ملء عينيه :

– ألا تجد القاعة خالية لانها ليست هنا ؟

– ولكنها سوف تكتب لك ..

– أعلم ذلك

– وسوف تعود ..

– ان لحظات الانتظار طويلة

– فهل تعرف هذه العبارة التى قالها جوستاف فلوبير : « ان العمل هو أحسن وسيلة لتهريب الحياة » ؟

– أما أنا فأقول لك عبارة أخرى : « ان العمل لعب كلعب الاطفال اذا كان يوحى به الحب ! » .. أتدرى من قالها ؟

– لا .

– قالها جبرييل لامى !

لقد وضع أمامه صورتها ، وأخذ يرنو الى مكانها الشاغر فوق المنصة ، ثم أسند رأسه الى كفيه ، وفتح كتابا يتناسى فى قراءته شجاه ..

وتسقط الستارة

في سبيل الادب !

◆ **في** سنة ١٧٧٣ دعت الامبراطورة « كاترين العظمى » ـ امبراطورة روسيا وقتئذ ـ الاديب الفرنسى « ديدرو » صاحب الموسوعة المشهورة المعروفة باسمه ، كي ينزل فى ضيافتها ٠٠ فقبل ديدرو الدعوة مرحبا وأقام فى قصر الامبراطورة بالفعل خمسة أشهر ٠ وكان برنامجه أثناء تلك الاقامة أن يتناقش مع الامبراطورة فى الشئون الادبية بعد ظهر أكثر الايام بين الساعة الثالثة والساعة الخامسة ٠٠ فكان يلذ للامبراطورة أن تصغى اليه أكثر مما تتكلم ٠ وكان الحماس للموضوع الذى يتكلم فيه ، يبلغ بالاديب حداً يجعله يقرب مقعده من ركبتى كاترين تدريجيا ، حتى ينسى نفسه فيعمد فى بعض الاحيان ـ توكيدا لعباراته ـ الى الاتكاء بمرفقيه على ركبتى الامبراطورة حتى يزرق لونهما من شدة الضغط !

ولم تجد كاترين بدا آخر الامر من وضع منضدة صغيرة بينها وبين محدثها ، كى يتكىء عليها كلما اشتد به الحماس لموضوعه !

تستجير من الرمضاء بالنار !

◆ **قالت** آنسة «غير متزوجة» تحدث نبيلا انجليزيا : « ما أفظع ميل الناس الى تناول سيرة بعضهم البعض بالقيل والقال !٠٠ هل تصدق يا سيدى أن بعض معارفى الخبثاء أشاعوا عنى اننى رزقت طفلين توأمين ؟ »

فأجابها اللورد : « اننى قد آليت على نفسى يا سيدتى أن أصدق نصف ما أسمعه فقط ! »

الحياة قصة



روائع القصص العالمى

عزيزى القارىء ...

قرأت معى فى الاعداد الماضية قصص :

- اموك : لستيفان زفايج
- مرتفعات وذرنج : اميلى برونتى
- قلب عذراء : جون جالزورثى
- التلميذ : بول بورجيه
- احدب نوتردام : فيكتور هوجو
- جريمة حب : بول بورجيه
- جين اير : شارلوت برونتى
- أيام بومباى الاخيرة : ليتون
- مانون ليسكو : الاب بريفو
- حديقة الله : روبرت هتشنز
- عندما تحقد المرأة : اونيه
- آسيا : ايفان تورجنيف
- كاس تمبرلين : سنكلير لويس
- الشيطان على الارض : رسل
- رسالة من مجهولة : زفايج
- تاييس : اناتول فرانس
- بلاد العميان : هـ.ج. ويلز
- نادى الانتحار : ستيفنسون
- كوخ العم توم : ستو
- البوهيمية : هنرى موجيه
- فتاة لها ماض : بورجيه
- شيرى : كوليت
- الجريمة والعقاب : دستويفسكى
- لحن كرويتزر : تولستوى
- أميرة مصر : جورج ايبرز

واليوم أقدم لك هذه القصة الرائعة من قصص الروائى المعاصر « سومرست موم »



RAIN
BY
W. SOMERSET MAUGHAM
سومرست موم
الأمطار
(سادى طومسون)

القصة التى مسختها السينما !

◆ رويت لك ضمن سيرة حياة ((سومرست موم)) فى الكتاب الثالث من مطبوعات كتابى ـ ((الخالدون)) ـ كيف أخرجت قصته ((سادى طومسون)) على المسرح باسم ((الامطار)) ، فلاقت نجاحا هائلا لم تسبقها اليه غير مسرحية شكسبير المشهورة ((هملت)) !

وفيما يلى أقدم لك القصة المذكورة ، وقد سماها موم فيما بعد باسم المسرحية التى اقتبست عنها : ((الامطار)) ..وقد اخترت أن أنشرها هذا الشهر ردا لاعتبار مؤلفها ـ واعتبارها ـ على أثر ماأصابها من مسخ وتشويه حين أخرجتها احدى شركات السينما الامريكية فى ((فيلم)) عرض بالقاهرة فى الشهر المنصرم باسم ((سادى طومسون))

- ١ -

◆ **كان** موعد النوم قد اقترب ، وكان من المتوقع أن يبدو الشاطىء اذا ما استيقظوا فى الصباح التالى • وأشعل الدكتور « مكفيل » غليونه •• كان مسرورا لانه سيستقر فى « آبيا » اثنى عشر شهراً على الاقل ، بعد أن قضى عامين فى جبهة القتال ، وبعد أن أصيب بجرح استغرق وقتا أكثر مما كان ينبغى كى يلتئم •• ولما كان بعض الوكاب ينتوون مغادرة السفينة فى « باجو ـ باجو » فى اليوم التالى ، فقد أقيمت حفلة رقص صغيرة فى المساء •

غير أن سطح السفينة كان مع ذلك هادئا •• ورأى « مكفيل » على مسافة منه زوجته جالسة فى مقعد طويل تتحدث الى أسرة ديفيدسن ، فاتجه نحوها •• وكنت ترى ـ اذ جلس وخلع قبعته ـ أن له شعرا شديد الاحمرار ، انحسر عن بقعة عند مفرقه فتبدت بشرة رأسه حمراء يتخللها « النمش » •• وكان فى الاربعين ، نحيفا ، ناحل الوجه ، دقيقا ، ميالا الى الحذلقة •• يتحدث بصوت هادىء ، شديد الخفوت ، وبلكنة اسكتلندية ••

وكانت قد نشأت بين مكفيل وزوجته ، وبين ديفيدسن وزوجته ـ اللذين كانا من المبشرين ـ تلك الالفة المعهودة على سطح السفن ، والتى تنبعث عن الملازمة الاجبارية أكثر منها عن أى توافق فى الذوق !٠٠ وكانت الرابطة الرئيسية بينهم هى الاستهجان الذى استشعروه نحو الرجال الذين كانوا يقضون نهارهم وليلهم فى قاعة التدخين يلعبون « البوكر » أو « البريدج » ويشربون الخمر ٠٠ ولم يكن زهو مسز مكفيل بالقليل ، اذ رأت أنها وزوجها كانا الوحيدين بين أهل السفينة اللذين أبدى الزوجان « ديفيدسن » رغبة فى الاختلاط بهما ٠٠ وحتى زوجها الطبيب ـ الذى كان خجولا وان لم يكن غبيا ـ تقبل هذه المجاملة فى شيء من التقدير ، فلم يسمح لنفسه بأن يذمهما ـ حين خلا الى زوجته فى غرفتهما ـ الا لانه أوتى عقلا ميالا للجدل ٠٠ وكانت مسز مكفيل هى التى بدأت المناقشة اذ قالت :

ـ لقد سمعت مسز ديفيدسن تقول انها لا تعرف كيف كانا يحتملان الرحلة لولانا ٠٠ وقالت اننا فى الواقع الوحيدان اللذان عنيا بالتعرف اليهما على السفينة ٠٠

ـ ما كنت أظن أن أى مبشر شخصية كبيرة تمن على الناس بالتعرف اليهم !

ـ ليس هذا من قبيل المن ٠٠ أننى أدرك ما كانت تعنى ، فما كان ليروق للزوجين ديفيدسن أن يختلطا بتلك الجماعة الصاخبة فى قاعة التدخين ٠٠ انك قط لا تبحث عن الجانب الطيب من نفوس الناس ٠٠

ورمقها من طرف عينيه الزرقاوين الباهتتين دون أن يرد عليها ٠٠ فقد تعلم فى سنى حياتهما الزوجية الطويلة أن من الادعى للوئام أن يدع الكلمة الاخيرة لزوجته !

*

♦ **وعند ما** صعد الى سطح السفينة فى الصباح التالى ، كانت قد اقتربت من البر ، فنظر اليه بعينين نهمتين ٠٠ كان ثمة شريط رفيع من الرمال الفضية ، تعلوه تلال كستها الخضرة الوافرة حتى القمة ٠٠ وكانت أشجار جوز الهند كثيفة ، خضراء ، تمتد حتى حافة البحر ، وترى بينها بيوت أهالى جزيرة « ساموا » المصنوعة من الاعشاب ٠٠ وهنا وهناك ، كنت ترى كنيسة صغيرة متألقة البياض ٠٠

وأقبلت مسز ديفيدسن ـ زوجة المبشر ـ تقف الى جواره ، فى ثوب أسود ، وقد طوقت عنقها سلسلة ذهبية تدلى منها صليب صغير ٠٠ كانت ضئيلة الجسم ، ذات شعر بنى اللون كئيب المنظر ـ رغم اسرافها فى تنسيقه ـ وعينين شديدتى الزرقة تقبعان وراء منظار مما يثبت على الانف بدون اطار ٠٠ وكان وجهها مستطيلا ، كوجوه الغنم ، ولكنها لا توحى بالغباء بل باليقظة المفرطة ٠٠ كما كانت خفيفة الحركة كالطير ٠٠ وكان أبرز ما فيها صوتها الحاد ذو الجرس العالى والنبرة الواحدة الرتيبة التى تثير الاعصاب ٠٠

وقال الدكتور مكفيل فى ابتسامة مقتضبة ، مغتصبة : « لا بد أن هذه الجزر تبدو لكما كوطنكما ٠٠ »

ـ بل أن وطننا جزر منخفضة كما تعلم ٠٠ جزر مرجانية ، أما هذه فبركانية ٠٠ وأمامنا رحلة تستغرق عشرة أيام أخرى حتى نصل الى مقرنا ٠ اننى مسرورة لاننا لم نعين هنا ، اذ يقولون أن هذه الجزيرة من أفظع الاماكن فيما يتعلق بالعمل ، فان اتصال ركاب البواخر بالاهالى يجعلهم يفترون فى التقوى ، ثم هناك مشكلات المحطة البحرية ، بينما لا توجد صعاب كهذه نعانيها فى منطقتنا ٠٠ هناك تاجر أو اثنان جشعان ـ بالطبع ـ ولكننا نعنى بأن نحملهما على أن يحسنا السلوك ، فاذا

لم يفعلا ، ضيقنا عليهما السبل حتى ليسرهما أن يتمكنا من النزوح عن البلدة !

وثبتت منظارها على أنفها ، وألقت على الجزيرة الخضراء نظرة عدم اكتراث ثم قالت : « ان مهمة المبشرين هنا تكاد تكون مستحيلة ٠٠ »

وكانت منطقة عمل زوجها « ديفيدسن » تتألف من مجموعة من الجزر الى الشمال من « ساموا » ، تفصل بينها مسافات طويلة ٠٠ فكان المبشر اذا ما انطلق يطوف بها ، بقيت زوجته فى مقرهما تدير أعمال البعثة ٠٠ وحدس الدكتور مكفيل مبلغ الكفاءة التى لا بد انها تدير بها الاعمال ٠ كانت تتحدث عن انحطاط الاهالى بصوت لا يحبسه أى خجل ٠٠ وهو يذكر أنها قالت له مرة فى أوائل عهدهما بالتعارف :

ـ هل تعلم أن عاداتهم فى الزواج كانت ـ حين هبطنا الجزر للمرة الاولى ـ تبعث على الجزع ؟ قد لا أستطيع أن أشرحها لك ، ولكننى سأرويها لمسز مكفيل لتحكيها لك ٠٠

وعلى أثر ذلك كان يسمع ـ كلما مر بهما وهو يتمشى على ظهر السفينة ـ همسات مسز ديفيدسن تتدفق مهتاجة كسيل ينحدر من جبل ٠٠ وأدرك من شحوب وجه امرأته ، وانفراج فمها ، انها كانت تستمتع بحديث صاحبتها المثير !

وفى الصباح التالى صاحت به مسز ديفيدسن : « ما رأيك فيما قلت ؟٠٠ هل سمعت ما هو أبشع من هذا؟ ما أظنك تعجب لاننى لم أستطع أن أسرد عليك الامر بنفسى ، رغم انك طبيب ٠٠ أتتصور أن قلبينا أثقلا بالهم حين ذهبنا الى هناك للمرة الاولى ؟ لعلك لن تصدق انه كان من المستحيل أن تجد فتاة مستقيمة فى أية قرية من القرى!٠٠ ولقد تناقشت ومستر ديفيدسن فى الامر ، فعزمنا على أن يكون أول ما نفعل أن نبطل الرقص ، الذى كان الاهالى مشغوفين به الى درجة الجنون٠٠

ان الامر يختلف عن الرقص عنـــدنا نحن البيض ، وان كنت أوافق مستر ديفيدسن فيما يقول من انه لا يدرى كيف يستطيع زوج أن يقف جانبا وهو يرى زوجته بين ذراعى رجل آخر !٠٠ بيد أن الرقص الوطنى هنا نوع آخر مختلف ، انه ليس منافيا للاخلاق فى حد ذاته ، لكنه يقود فى النهاية الى الاباحية ٠٠ على اننى أحمد الله اذ قضينا عليه ! »

*

◆ **بلغت** السفينة مدخل الميناء ٠٠ ثم ، تحولت منحـرفة عن طريقها ، وسارت ببطء ٠٠ كان المرفأ كبيرا يتسع لاسطول من البوارج ، وقد حفت به التلال العالية الخضراء الشـديدة الانحدار ٠٠ وعلى مقربة من المدخـــل كانت تقوم دار الحاكم فى حديقة يهب عليها النسيم من البحر طلقا ، وقد رفرف عليها علم وطنه الامريكى ٠٠

وكان ثمة حشد من الاهالى ينتظرون رسو السفينة فى لهفة وضجيج وابتهاج ، وقد جاءوا من كافة أرجاء الجزيرة ، بعضهم بدافع الفضول ، والآخرون بغية مقايضة المسافرين الذين فى طريقهم الى سيدنى ، على سلعهم ٠٠ وقد أحضر هؤلاء ثمار الاناناس وسباطات الموز الضخمة ، وأقمشة محلية ، وقلائد من الاصداف والمحـار ، وأسنان أسماك القرش ، وأوعيـة ، ونماذج لزوارق الحرب ٠٠ وكان يسير وسط الحشد ملاحون أمريكيون حليقون ، أنيقون ، بوجوه وضاحة ٠٠ كمـا كانت ثمة جماعة صغيرة من الموظفين ٠٠ وأخـــذ الدكتور مكفيل وزوجته ومسز ديفيدسن يرقبون الحشد ، بينما كان متاعهم يحمل الى البر ٠٠ **وتأمل الطبيب العاهات التى بدا أن معظم الاطفال والصبية يعانون منها ، والبثور المشـــوهة والدمامل الدفينة المتورمة، وأومضت عيناه الخبيرتان اذ رأى لاول مرة فى حياته العملية كطبيب ، حالات من مرض الفيل ، اذ كان ثمة**

رجال يسيرون بأذرع متضخمة ، ثقيلة ، أو يجرون خلفهم سيقان منتفخة مشوهة ٠٠ وقد ارتدى الرجال والنساء الزى القومى لاهل الجزيرة ، الذى يطلقون عليه « اللافا ـ لافا »

وقالت مسز ديفيدسن معلقة : « انه زى مستهجن جدا ، بحيث يرى مستر ديفيدسن انه يجب أن يحرم بحكم القانون ! ٠٠ اذ كيف تتوقع من قوم أن يراعوا الاخلاق وهم لا يرتدون شيئا اللهم الا نطاقا من القطن الاحمر حول أردافهم ؟ »

وهبطوا الى البر ، فاذا الجو قائظ رغم ان الوقت كان مبكرا ٠٠ واستأنفت مسز ديفيدسن حديثها بصوتها الحاد : « لقد قضينا على « اللافا ـ لافا » فى جزرنا ، فلم يعد يرتديها سوى بضعة رجال من الطاعنين فى السن٠٠ وقد قال مستر ديفيدسن فى أحد التقارير التى بعث بها فى بداية وصولنا ، ان هؤلاء الناس لن يثوبوا الى حظيرة الدين حقا الا عندما يرتدى كل صبى تجاوز العاشرة من عمره سروالا ٠٠ »

وألقت المرأة الثرثارة نظرتين أو ثلاثا من نظراتها الثاقبة على السحب الغائمة المتكاثفة التى كانت تتهادى فوق مدخل الميناء ٠٠ وبدأت بضع قطرات من المطر تتساقط ، فقالت المبشرة : « يحسن بنا أن نبحث عن مكان نلوذ به ٠٠ »

وساروا مع الحشد كله الى مظلة من الصاج ، وقد أخذ المطر ينهمر دافقا ٠٠ وبعد فترة من وقوفهم ، لحق بهم مستر ديفيدسن ٠ كان قد حرص على أن يبدى للزوجين مكفيل احتراما طيلة الرحلة ، ولكنه لم يكن فى لطف زوجته وحبها للكلام ، بل كان يقضى الشطر الاكبر من وقته فى القراءة ٠٠ وكان محبا للصمت ، واجما ٠٠ أو بالاحرى متحفظا ٠٠ بل وكئيبا !

وكان شكله فذا : **فهو مسرف فى الطول والنحول ، ذو أطراف طويلة نحيفة، وخدين غائرين، وصدغين عاليين لدرجة**

غريبة ٠٠ وكان شديد الشحوب الى درجة تدهش معها اذ ترى شفتيه حمراوين ممتلئتين ، تنمان عن حساسية ٠٠ وقد ألف أن يترك شعره طويلا جدا ، أما عيناه الغائرتان فى محجريهما، فكانتا واسعتين ، آسيتين ٠٠ ويداه ، بأصابعهما الكبيرة ، الطويلة ، المتناسقة ، تخلعان عليه مظهر القوة ٠٠ ولكن أبرز ما فيه كان يتمثل فى الشعور الذى يوحى به اليك : الشعور بأن ثمة نارا يكبتها فى أعماقه ٠٠ كان من ذلك النوع الذى لا يسهل على المرء أن يصادقه ويوده !

وكان يحمل عند مجيئه الآن نبأ سيئا : ان الحصبة متفشية بشكل وبائى خطير ، بل ان أعراضها ظهرت على أحد بحارة المركب الصغيرة التى كانت ستقلهم فى المرحلة التالية من رحلتهم، ومن ثم وردت برقية من «آبيا» بعدم السماح لأى مركب بدخول مينائها حتى يتم التأكد من أن العدوى لم تصب عضوا آخر من رجالها !

فقال الدكتور مكفيل : « ولكن هناك حاجة ماسة الى خدماتى فى (آبيا) ٠٠ »

ولم تكن ثمة حيلة ٠٠ كما لم يكن هناك فندق ينزلون فيه ٠٠ وقال المبشر : « هناك تاجر يؤجر حجرات من داره ، وأنا أرى أن نقصده بمجرد انقطاع المطر ٠٠ وخليق بكم أن تحمدوا الله اذا وجدتم لديه فراشا للنوم ، وسقفا يظلكم ! »

بيد أن الامطار لم تبد ما ينم عن انقطاع ، فاضطروا فى النهاية الى أن ينطلقوا فى حمى المظلات والمعاطف الواقية من البلل ٠٠ ولم تكن هناك مدينة بالمعنى الصحيح ، وانما كانت البلدة عبارة عن مجموعة من البنايات الحكومية ، ومتجر أو اثنين ٠٠ وفى المؤخرة ، بين أشجار الموز ونخيل جوز الهند ، قامت بضعة مساكن يقطنها الاهالى ٠٠ وكان البيت الذى قصدوا اليه يقع على مسيرة خمس دقائق من المرفأ ٠٠ بيتا من

طابقين ، ذا شرفات واسعة فى كل منهما ، وسقف من الصاج المضلع ٠٠ وكان صاحبه من أب أبيض وأم من بنات الجزيرة ، يدعى « هورن » ، وله زوجة من الاهالى يحيط بها أطفال سمر ٠٠ وقد اتخذ الطابق الارضى متجراً يبيع فيه الاطعمة المحفوظة والاقمشة والخيوط القطنية ٠٠

وكانت الحجرات التى أراهم اياهـــا تكاد تكون عارية من الاثاث ، اذ لم يكن فى حجرة مكفيل وزوجته سوى سرير حقير الفراش، قديمه، تعلوه كلة (ناموسية) بالية ٠٠ ومقعد أعرج، وحوض للغسيل ٠٠ فتطلع الزوجان حولهما فى استياء ، بينما كان المطر ينهمر دافقا دون انقطاع ٠٠

ولم تشأ مسز مكفيل أن تخرج من حقائبهما سوى ما تمس الحاجة اليه ٠٠ ولكن مسز ديفيدسن أقبلت فى يقظة ونشاط، وكأنما الوسط الكئيب لم يؤثر فيها ، وقالت لها :

ـ لو انك تقبلت نصحى لاخـذت ابرة وخيطا وشرعت فى رتق « الناموسية » ، والا فلن يغمض لك جفن الليلة ٠٠ فهذا موسم البعوض ٠٠ وعندما تدعين الى حفلة فى دار الحكومة فى « آبيا » ، ستلاحظين أن جميع السيدات يتلقين « أكياسا » ليضعن سيقانهن فيها !

ـ لكم أود أن ينقطع المطر لحظة ، فان بوسعى أن أنظم هذا المكان ليغدو مريحا ، اذا كانت الشمس مشرقة ٠٠

ـ لو انتظرت الشمس فسوف يطول انتظـارك ، اذ أن « باجو ـ باجو » من أكثر بقاع المحيط الهادى مطرا ٠٠

ونقلت المبشرة بصرها بين مكفيل وزوجته ، وقد وقفـا حائرين كضالين تائهين ٠٠ ثم زمت شفتيها ، وقد رأت من واجبها أن تساعدهما ، فتولت رتق « الناموسية » بنفسها ، وقالت للدكتور مكفيل : « يحسن أن تذهب الى الميناء ، وتتأكد من أن متاعكما قد وضع فى مكان جاف ٠٠ »

- ٢ -

◆ **ووجد** الطبيب مستر « هورن » - صاحب الحانة - لدى الباب الخارجى يتحدث الى احد ضباط السفينة ، والى راكب من ركاب الدرجة الثانية كان قد رآه مرارا على سطح الباخرة .. وحياه الضابط اذ مر به وقال : « هذا نبأ سيىء يادكتور ، نبأ تفشى الحصبة .. على أننى أراكم قد اهتديتم الى مقر تمكثون فيه .. لقد كانت « مس طومسن » مبحرة معكم الى آبيا ، ومن ثم احضرتها الى هذا النزل ايضا »

واشار الى امرأة كانت تقف الى جانبه ، فى حوالى السابعة والعشرين ، ممتلئة الجسم ، ذات جمال فج بعض الشىء ، ترتدى ثوبا ابيض وقبعة بيضاء عريضة .. وقد غيبت ساقيها فى جوربين ابيضين يعلوان حذاءين ابيضين ايضا من الجلد اللامع ..

ورمقت المرأة مكفيل بنظرة متوددة ، وقالت فى صوت خشن ولهجة سوقية : « ان الرجل يحاول ان يبتز منى دولارا ونصف دولار يوميا لقاء أضأل حجرة رأيتها ! » .. فقال الضابط لصاحب النزل : « قلت لك انها صديقتى يا جو ، وهى لا تستطيع ان تدفع اكثر من دولار »

- حسنا .. ما دام الامر كذلك يامستر سوان ، فسأتحدث الى مسز هورن ، واذا استطعنا ان نخفض الأجر فسنفعل ..

فقالت مس طومسن : « لا تحاول هذه الطريقة معى ، بل يجب ان نتفق من الآن ! »

وابتسم الدكتور مكفيل وقد اعجب بجرأتها فى المساومة ، فقد كان من عادته ان يدفع ما يطلب منه ، وكان يفضل ان يدفع اكثر مما ينبغى ، كى لا يساوم .. وتنهد الفندقى أخيرا وقبل الصفقة .. فقالت الفتاة : « تعال يا مستر سوان وتناول كأسا ، فان معى « ويسكى » جيد .. وانت يادكتور ، تعال ايضا .. »

لكن الطبيب ابدى اعتذاره ، وانطلق تحت المطر الذى كان يندفع من ناحية البر فى سيل كثيف ..

وحين عاد كان موعد الغداء قد أوشك ، وقد اعدت المائدة فى قاعة الجلوس فى دار التاجر .. ولم يحضر ديفيدسن ، فقالت زوجته ان الحاكم لا بد قد استبقاه للغداء .. واحضرت صبية من بنات الجزيرة طبقا من « الكفتة » .. واقبل مستر هورن يتفقد نزلاءه ، **فسأله الدكتور مكفيل عن النزيلة الأخرى ، فقال انها تكفلت بتدبير وجباتها فى غرفتها .. ثم التفت الى السيدتين فى تملق وقال :**

– لقد أفردت لها حجرة فى الطابق الارضى كى لا تضايقكما .. انها ذاهبة الى « آبيا » حيث يرتقبها منصب « صرافة »

وقال الطبيب بعد انصرافه : « ما اظن تناول الطعام فى حجرتها يلذ لها ». .. فتساءلت مسز ديفيدسن : « أليست هى المرأة التى كانت ترقص مع الضابط المساعد ليلة أمس ؟ .. لا يبدو عليها انها من طراز طيب ! »

وانفضوا بعد الغداء ليقيلوا .. وعندما استيقظوا كانت السماء ملبدة بالسحب الثقيلة ، ولكنها لم تكن تمطر ، فخرجوا يتمشـون فى الطريق الذى انشأه الامريكيون على طول الخليج .. وعند عودتهم وجدوا ديفيدسن فى ارتقابهم ، ليبادرهم بأنهم مضطرون الى البقاء اسبوعين ! .. ثم قال وهو يذرع الشرفة : « لقد غبت عن البعثة عاما ، تركتها خلاله فى ايدى المبشرين المحليين ، وأخاف ان يكونوا قد توانوا .. انهم يخـافون الله ، اتقياء ، وان تدينهم ليزرى بكثير من المسيحيين فى بلادنا ، ولكن نشاطهم قاصر وقدرتهم واهنة .. على أننى سأعمل فور وصولى جاهدا .. واذا دب الفساد فى الشجرة فلا بد من اجتثاثها والقائها فى النار ! »

❊

◆ **وبعد** الوجبة الأخيرة فى ذلك المساء ، اشعل الدكتور مكفيـل غليونه ، بينما راح المبشر يروى لهم ما كان يلقاه من عناء وصـعاب مع الاهالى الجهلة فى بداية بعثته .. وكيف اخذ يوقظ فى نفوسهم الشعور بالخطيئة .. وكان قد عمل خمس سنوات فى جزر «سليمان» ، بينما كانت زوجته – قبل زواجها – عضوا فى بعثة بالصين ، وقد التقيا فى بوسطن فى احدى العطلات ، حين ذهبا لحضور مؤتمر تبشيرى .. وعندما تزوجا عينا فى هذه الجزر وظلا بها من ذلك الحين ..

وتجلى لمكفيل وزوجته خلال احاديثهما مع الزوجين المبشرين ان الرجل كان ذا جرأة طاغيـة .. كان من المبشرين ذوى الدراية الطبية ، وكان مستعدا لان يلبى الدعوة فى اى وقت لاسعاف مصاب أو مريض فى احدى الجزر الاخرى . ومع ان سفن الصيد لم تكن مأمونة فى المحيط الهادى الكثير العواصف فى فصل الشتاء ، فانه مع ذلك كان كثيرا ما يستقل دون تردد زورقا صغيرا ، يتعرض فيه للاخطار ، كى يخف لاغاثة من استنجد به .. وكم من ليال قضاها ينزح الماء من زورق كى لا يغرق به .. بل كم من ليال فقدت فيها زوجته الأمل فى عودته !

وقالت الزوجة انها كثيرا ما كانت ترجوه ان لا يذهب قبل ان تهـدأ العواصف ، فكان يأبى .. واذذاك صاح يقاطعها :

ـ كيف اطلب الى الأهالى ان يثقوا فى الله ، اذا ابديت ترددا فى ان اثق فيه ؟ .. انهم يعرفون أنهم اذا أرسلوا لى فى أويقات ضيقهم ، فلا بد من ان اوافيهم اذا كان هذا فى طوق بشر .. وهل تظنون ان الله يتخلى عنى اذا كنت فى مهمة لخدمته ؟

وكان الدكتور مكفيل هيابا بطبعه ، فارتجف وهو يتطلع الى المبشر وقال : « وددت لو استطيع ان اقول اننى لم اشعر بالخوف قط ! »

فرد الآخر قائلا : « وددت لو استطعت ان تقول انك تثق فى الله »

ولسبب من الأسباب ، عاد المبشر بفكره فى ذلك المساء مرة اخرى الى الأيام الاولى له ولزوجته فى تلك الجزر .. واخذ يروى كيف كان القنوط يتملكه فى بعض الأحوال ، لولا ان زوجته كانت تبث فى نفسه الشجاعة والأمل .. ومضى يقول : « لم يكن معنا من يساعدنا .. كنا وحيدين ، على بعد آلاف الاميال من أهلنا ، محوطين بالظلام.. فكانت ، حين أستسلم احيانا للارهاق والأسى ، تتناول الانجيل وتقرأ لى منه حتى تعاودنى الطمأنينة .. كان الاهالى فى جهالة بفطرتهم ، فلم يكن من الميسور تنبيههم الى خطاياهم التى كانوا يقارفونها على انها اعمال وتصرفات طبيعية لا اثم فيها .. وما زلت بهم حتى اقنعتهم بأن الفتاة التى تكشف صدرها تأثم ، والرجل الذى لا يرتدى سروالا يأثم .. ومن الواضح ان السبيل الوحيدة لاظهار الناس على ان تصرفهم آثم ، هى معاقبتهم اذا ما ارتكبوا هذا التصرف .. ومن ثم فرضت عليهم غرامات يدفعونها ، مالا أو عملا .. حتى ادركوا مبادىء الدين ، واوامره ونواهيه .. »

فتساءل الطبيب : « ولكن .. ألم يحدث قط ان رفضوا دفع تلك الغرامات ؟ »

ـ لا تنس اننى كنت املك حق فصلهم من الكنيسة اذا اعيانى اصلاحهم !

ـ وهل كانوا يحفلون بذلك ؟

ـ انهم اذ ذاك لا يستطيعون بيع الحيات التى يتصيدونها ، ولا اخذ نصيب من الاسماك التى يصيدونها .. فيتعرضون للجوع . وقد كان هناك تاجر دانيمركى يدعى « فريد اولسن » قضى سنين طويلة فى الجزر ، وكان غنيا ، ولم يرتح كثيرا لمقدمنا ، اذ كان من قبل يفعل ما يشاء : يدفع للأهالى ما يروق له من ثمن بخس حين يشترى حاجياتهم ! .. وكان سكيرا .. وقد منحته فرصة ليصلح ما اعوج من تصرفاته ، فضحك ساخرا .. ولم ينقض عامان حتى كان قد افلس ، واضطر الى ان يأتينى متوسلا ان اتيح له السفر دون أجر الى (سيدنى) !

وشردت نظرات ديفيدسن نحو النافذة .. وكان المطر قد عاد ينهمر .. وفجأة ، انبعث من الطابق الاسفل صوت حاك « جراموفون » عال ، خشن .. فنظر المبشر الى زوجته وقال : « ما هذا ؟ » ..

فثبتت منظارها على انفها ، وقالت : « احدى المسافرات بالدرجة الثانية ، وهى ايضا من نزيلات الدار .. »

وانصتوا فى صمت ، فما لبثوا ان سمعوا صوت رقص .. ثم توقفت الموسيقى ، وسمعوا فرقعة سدادات زجاجات الخمر ، فقال الدكتور مكفيل : « اظنها تقيم حفلة وداع لأصدقائها الذين كانوا على السفينة .. »

ونظر ديفيدسن الى ساعته ، ثم سأل زوجته : « أمستعدة انت ؟ »

فنهضت ، واجابت : « اجل »

وقال الدكتور : « لم يحن موعد النوم بعد »

فأجابت مسز ديفيدسن : « لقد اعتدنا ان نقرأ فصلا من التوراة وان ندرسه ونفسره قبل ان ننام فى كل ليلة ، اينما كنا .. »

واذ انصرف المبشران ، قال الطبيب انه راغب فى لعب الورق ، واسرع لاحضاره .. ورمقته زوجته فى تشكك .. كان حديثهما مع الزوجين ديفيدسن قد خلف فى نفسها شيئا من القلق وعدم الارتياح ، ولكنها لم تشأ مصارحة زوجها بأنها تفضل عدم اللعب ما دام من المحتمل ان يعود الزوجان ديفيدسن فى اية لحظة ! .. وظلت ترقب زوجها وهو يعد الورق للعب ، وفى نفسها شعور مبهم بالذنب .. وكانت الضجة الراقصة لا تزال تنبعث من الطابق الاسفل !

✥

وكان اليوم التالى اكثر اعتدالا فى الطقس من سابقه ، فقصد الزوجان مكفيل الى الميناء حيث أحضرا من متاعهما عددا من الكتب .. وفيما هما ذاهبان مرا فى طريقهما بمس طومسن ، فرفع الطبيب قبعته تحية لها ، فقالت فى صوت مرتفع طروب : « سعدت صباحا يادكتور » . وكانت ترتدى ثيابا بيضاء ، وقد بدت ساقاها السمينتان فى منظر غريب ، مغر !.. فقالت مسز مكفيل معلقة : « ما اراها محتشمة فى ثيابها »

وحين عادا ، كانت فى الشرفة تلاعب أحد أبناء التاجر ، فهمس الدكتور مكفيل : « قولى لها كلمة .. انها وحيدة هنا ، ومن القسوة ان نتجاهلها .. »

وكانت مسز مكفيل خجولا ، ولكنها اعتادت ان تنصاع لما يريده زوجها ، فقالت لها فى شىء من الغباء : « اظننا زملاء فى هذا النزل .. ؟ »

فأجابت مس طومسن : « أليس من الفظيع ان نحشر معا فى حظيرة كهذه ؟ .. ومع ذلك يقولون اننى محظوظة اذ وجدت غرفة انزل بها .. »

وتبادلنا بضع كلمات اخرى .. وكان صوت مس طومسن العالى الخشن ينم عن رغبة فى الثرثرة ، ولكن مسز مكفيل لم تكن بالمحدثة الخصبة الموارد ..

وحين اجتمعوا للشاى فى المساء ، اقبل دافيدسن يقول : « ارى ان المرأة التى فى الطابق الارضى تستضيف اثنين من الملاحين فى غرفتها .. لست ادرى كيف تعرفت اليهما ؟ » .. ثم تحولت دفة الحديث الى مواضيع اخرى ، وكان السأم يتملك القوم ، فقال الدكتور مكفيل : « اذا كنا سنعانى أربعة عشر يوما من هذا النوع ، فلست أدرى ما ستكون عليه حالنا فى نهايتها ! »

واجاب المبشر : « خير ما نفعل هو ان نقسم اليوم الى نواح متباينة للنشاط .. وسأخصص عددا من ساعات النهار للدراسة ، وعددا للتريض، سواء كان الجو مطيرا أو معتدلا .. ففى فصل الشتاء لا ينبغى ان نحفل بالمطر .. »

وتطلع الدكتور مكفيل الى صاحبه وكأنه يرتاب فى انه جاد فى قوله .. ومن الطابق الاسفل شرع الحاكى يرسل انغامه ، فأجفل دافيدسن فى انفعال اذ سمعه ، ولكنه لم ينبس ببنت شفة .. وارتفع صوتا ضيفى مس طومسن بأغنية شائعة ، وما لبث القوم ان سمعوا صوتها هى الأخرى ، خشنا ، عاليا .. وأحدث الصياح والضحك جلبة ، فوجد الاربعة الجالسون فى الطابق العلوى انهم ينصتون على الرغم منهم الى رنين الكؤوس وضجيج تحريك المقاعد .. وادركوا ان رجالا آخرين قد وفدوا على غرفة مس طومسن ، وكأنما كانت تقيم حفلة حقا !

وقالت مسز مكفيل فجأة ، قاطعة على زوجها والمبشر حديثا طبيا : « اننى لأعجب .. كيف تتسع لهم الحجرة ؟ »

ونمت العبارة عن اتجاه افكارها ، كما دل اختلاج وجه ديفيدسن على انه ، وان كان يتحدث عن امور علمية ، الا ان ذهنه كان يتخذ عين الاتجاه ! **.. وفجأة قفز على قدميه - وسط حديث الطبيب - وصرخ ، فسألته زوجته عما به ، واذا به يقول : « آه .. ما خطر لى انها من « ايويلى » .. لقد صعدت الى السفينة فى « هونولولو » .. وهى تمارس مهنتها هنا ! »**

ولفظ الكلمة الأخيرة فى حنق ، فتساءلت مسز مكفيل عن « ايويلى » ، واذا به يرمقها فى اكتئاب ثم يجيبها بصوت يرتجف فرقا : « انها بؤرة هونولولو . منطقة الضوء الاحمر .. وهى لطخة فى مدينتنا ! »

كانت « ايويلى » فى طرف هونولولو ، يجتاز قاصدها من الميناء طرقات مظلمة ، وجسرا متأرجحا ، حتى يبلغ طريقا مقفرا ، مليئا بالحفر والاقذار ، ولا يلبث ان يخرج منه فجأة الى النور ، فاذا ثمة فراغ على الجانبين لايواء السيارات ، تحف به مشارب متألقة الانوار ، عالية الصخب .. وحوانيت للحلاقين ولبائعى التبغ.. وفى الجو تفوح رائحة اللهو المرتقب .. ويعرج المار - يمينا او شمالا - الى درب ضيق ، فاذا به فى « ايويلى » .. وفيها صفوف من البيوت الصغيرة ، طليت فى عناية باللون الأخضر ، تتوسطها طريق فسيحة ، مستقيمة .. وكانت الانوار المنعكسة من داخل الدور تمتد الى الممرات التى تفصل بعضها عن بعض .. وكان الرجال يتسكعون ، يتأملون النسوة الجالسات فى النوافذ ، وقد انهمكن فى القراءة والحياكة ، غير حافلات فى الغالب بالمارة .. وكان الرجال والنساء من جميع الجنسيات : كان هناك امريكيون ، بحارة من السفن التى فى الميناء ، وجنود بحريون سكارى ، وجنود بريون من بيض وسود .. ويابانيون - يسيرون كل اثنين أو ثلاثة معا - وصينيون فى اثواب مزركشة .. وفلبينيون بقبعات واسعة .. والكل ساكتون ، واجمون .. فالشهوة يمازجها الحزن فى العادة !

وصاح دافيدسن فى حماس : **« كانت هذه اقذع فضـيحة فى المحيط الهادى .. وقد ظل المبشرون يحملون عليها سنين طويلة ، حتى انبرت لهـا الصحف ، ولكن البوليس لم يحرك ساكنا .. فهم يقولون ان الرذيلة امر لا مفر منه ، ومن ثم فمن الخير تركيزها ومراقبتها .. والواقع ان المسؤولين كانوا يتقاضون ثمن سكوتهم ، من اصحاب المشارب ، والقـوادين ، ومن النسوة انفسهن .. واخيرا اضطروا لأن يتحركوا .. وانمحت « ايويلى » من الوجود بعارها وخطيئتها ، فى نفس اليوم الذى وصلنا فيه ، فقد سيق اهلها جميعا الى المحاكم .. لست ادرى كيف لم ادرك حقيقة هذه المرأة من البداية ! » .. ثم صاح فى شمم واستهجان : « كيف جرؤت على النزول هنا .. لن أسمح بذلك ! »**

وخطا نحو الباب ، فسأله الطبيب عن وجهته ، فقال : « ماذا تتوقع ان افعل ؟ .. سأذهب كى اوقف هذا .. لن ادع هـذا البيت يستحيل الى .. الى .. »

ولم يجد كلمة لا تجرح آذان السيدتين .. وكانت عيناه ترسلان شررا ، ووجهه شاحبا فوق شحوبه.. فأجابه الطبيب : « يبدو من الاصوات ان هناك ثلاثة او اربعة رجال .. الا ترى ان من التهور الهبوط اليها الآن ؟ »

فرمقه المبشر شذرا ، واندفع خارج الحجرة ، بينما قالت زوجته : « انك

لا تعرفه يادكتور اذا خلت ان الخوف من اى خطر شخصى يصده عن اداء واجبه ! »

وجلست وقد عقدت يديها فى انفعال ، تنصت الى ما يحدث فى الطابق الاسفل.. ثم بدأوا جميعا ينصتون ، **فقد توقف الغناء فجأة ، وان ظل الحاكى يرسل انغامه الرخيصة .. وسمعوا صوت ديفيدسن ، ثم ضجة شىء يهوى الى الارض .. وانقطعت الموسيقى .. كان قد دفع الحاكى ارضا.. ثم سمعوا صوت ديفيدسن ثانية - وان لم يتبينوا كلماته - ثم صوت مس طومسن عاليا، صارخا .. فضجة وجلبة مختلطة كما لو كان عدة رجال يصرخون معا .. وندت من مسز ديفيدسن شهقة وهى تضم يديها فى لوعة .. ونقل الدكتور مكفيل بصره بينها وبين زوجته فى تردد . لم يكن يبغى ان يهبط الى الطابق الاسفل ، وكان يخشى ان تتوقعا منه الهبوط .. وسمع صوت ارتطام ، وكان من المحتمل انهم القوا بديفيدسن خارج الغرفة .. وصفقوا الباب وراءه .. ثم ساد الصمت لحظة ، سمعت الجماعة بعدها وقع قدميه على السلم .. وقصد الى غرفته مباشرة .. فسارت زوجته اليه ..**

وقالت لها مسز مكفيل : « اذا اردتنى فلتنادينى » .. حتى اذا انصرفت الأخرى قالت هذه : « ارجو ان لا يكون قد أصيب بضر » .. فقال لها زوجها مكفيل : « لم لا يعنى بشؤونه ؟ »

وساد الصمت دقيقة او اثنتين .. ثم اجفل الزوجان ، اذ عاد صوت الحاكى من جديد ، تصحبه صيحات ساخرة ، متحدية .. !

- ٣ -

◆ وفى اليوم التالى كانت مسز ديفيدسن شاحبة مكدودة ، تشكو من صداع اصابها ، وروت لمسز مكفيل ان المبشر لم ينم ليلته ، بل قضاها فى انفعال فظيع .. ثم غادر الدار فى الساعة الخامسة ، فاذا زجاجة بيرة تلقى عليه فتلطخ ثيابه !

واومضت عينا مسز ديفيدسن بلهب كئيب وهى تتحدث عن مس طومسن قائلة : « انها ستندم اشد الندم على اليوم الذى اساءت فيه الى مستر ديفيدسن .. انه لا يعرف الرحمة ازاء الخطيئة .. انه فظيع اذا ثار من اجل الفضيلة ! »

وارتجفت مسز مكفيل .. كان فى صوت محدثتها شىء يبعث الذعر .. وذكرت ما حدث ذلك الصباح حين كانت ومسز دافيدسن فى طريقهما الى الخروج ، فلما مرتا امام باب حجرة مس طومسون - وكان مفتوحا - لمحتاها فى ثوب طويل ، تطهى شيئا .. فلم تكد تراهما حتى صاحت :

«صباح الخير .. هل المستر ديفيدسن احسن حالا فى هذا الصباح ؟ »
واطلقت سيلا من الضحكات الخليعة .. فتحولت اليها مسز ديفيدسن فجأة وصرخت : «حذار ان تكلمينى ..»
ـ لماذا ؟ .. أوسألتك ان ترسلى مستر ديفيدسن لزيارتى ؟
وهمست اليها مسز مكفيل بان لا تنبس ببنت شفة ، وجرتها الى الخارج .. واذ ذاك انفجرت مسز ديفيدسن قائلة : « عاهرة .. عاهرة ! » .. وكان الغضب يكاد يخنقها !

وأثناء عودتهما قابلتاها تخطر الى الميناء ، فى أبهى زينة .. ونادتهما فى سخرية خليعة .. وكان ثمة ملاحان امريكيان ابتسما اذ لمحا كيف كانت السيدتان تسيطران على اعصابهما ! .. وما ان بلغتا البيت حتى انهمر المطر .. ولم ينضم ديفيدسن الى الجماعة الا وهم يتناولون الفداء .. وجلس صامتا ، واجما ، وقد ابى ان يصيب شيئا من الطعام ، بل راح يحملق فى قطرات المطر التى كانت تصفع زجاج النافذة .. وعندما حدثته مسز ديفيدسن بما كان من مس طومسن لم يتكلم ، وان دل عبوسه على أنه سمع قولها .. حتى اذا اقترحت ان يطلبوا الى مستر هورن اقصاءها عن الدار ، قال مكفيل : « لست ارى مكانا آخر تأوى اليه »
واقبلت الخادم الصغيرة تحمل بعض الموز ، فتحول اليها ديفيدسن وقال : « سلى مس طومسون متى يروق لها أن تستقبلنى ؟ »
وسألته زوجته بعد خروج الخادم عن السبب ، فقال : «واجبى يقتضينى أن أراها .. لن أنصرف حتى أتيح لها كل فرصة .. »
ـ انك لا تعرفها .. لسوف تهينك !
ـ فلتفعل .. فلتبصق على .. يجب ان ابذل كل ما فى وسعى لانقذ روحها .. ان المذنب قد يكون موغلا فى الاثم الى اعمق من اغوار الجحيم ، ولكن حب الرب يستطيع ان يصل اليه ..
وعادت الخادم تقول ان مس طومسن مستعدة لان تستقبل مستر ديفيدسن فى اى وقت غير ساعات « الشغل » !

وظل ديفيدسن فى مقعده يرسل نظرات زائغة ، ثم نهض اخيرا دون ان ينبس ببنت شفة ، وغادر الحجرة .. وسمعوه يهبط السلم ، ثم سمعوا صوت مس طومسن تدعوه فى تحد ليلج الحجرة .. واخذ الدكتور مكفيل يرقب المطر وقد بدأ يؤثر على أعصابه ، فان قطراته لم تكن تهبط على الارض فى لطف ، وانما فى قسوة مزعجة تحس فيها بجبروت الطبيعة البدائية .. لم يكن المطر ينساب ، بل كان ينصب انصبابا ، كأنه سيل من السماء ، يطرق السقف المصنوع من الصاج فى اصرار يبعث على

الجنـــون .. حتى لتحس أحيانا أنك توشك أن تصرخ فيه كى يكف ! .. ثم تشعر فجأة بأنك عاجز ، تعس ، لا حول لك ولا قوة ..

واذ عاد المبشر بعد حين ، التفت اليه مكفيل ، كما التفتت المرأتان ، فقال مجيبا على نظراتهم المتسائلة : « لقد منحتها كل فرصة .. ودعوتها للتوبة .. ولكنها شريرة ! »

ورأى الدكتور مكفيل عينيه تبرقان ، ووجهه يزداد شحوبا وصلابة ثم سمعه يتمتم : «الآن أحمل السياط التى طرد بها الرب المرابين والصيارفة من هيكله» .. وراح يذرع الحجرة ، وقد أطبق فكيه ، وقطب جبينـه ، ثم أردف : « سأتبعها ولو فرت الى اقصى اطراف الارض ! »

واستدار فجأة ، ثم غادر الحجرة .. وسمعوه يهبط السلم من جديد ، فتساءلت مسز مكفيل : «ماذا هو فاعل ؟» .. فاجابت مسز ديفيدسن : « لست أدرى ، فما اعتدت ان أسأله حين يكون فى مهمة للرب » .. وزفرت فى قلق

وفيما كان الدكتور مكفيل خارجا بعد حين ، استوقفه التاجر صاحب النزل ، وقال له فى قلق : « ان الاب ديفيدسن غاضب على اذ انزلت مس طومسن فى دارى ، ولكنى لم اكن اعرف حقيقتها »

ولم يشأ الدكتور مكفيل أن يبدى رأيا ، فقال التـــاجر فى تردد وقلق : «أن ای‌بشرين اذا ائتلفوا على تاجر لم يدعوه حتى يغلق متجره ويهجـــز المنطقة .. لقد قال انه لن يطلب الى ان اطردها طالما احسنت مسلكها ، وأكد أنه يريد أن ينصفنى .. وقد وعدته بأنها لن تستقبل زائرين بعـــد الان .. وفعلا طلبت اليها ذلك ، فثارت فى وجهى ، على أننى أحـدس انها ستغادر الدار ، فما أحسبها راغبة فى البقـــاء اذا تعذر عليها أن تدعو احـــدا ! »

ـ وأين تذهب اذا غادرت الدار ؟ ليس أمامهـــا غيـــــر بيوت الاهالى الوطنيين وما أظن بينهم من يقبلها الان ، وقد اغمد المبشرون خنجرهم فيها !

وتطلع الدكتور مكفيل الى المطر .. ثم أضاف : « لست أدرى جدوى من وراء ترقب صفاء الجو »

✥

◆ **وفى** ذلك المساء « حين اجتمعوا فى قاعة الجلوس ، أخذ ديفيدسن يحدثهم عن ايام دراسته ، وكيف ان فقره اضطره الى ان يعمل فى العطلات

وكان الصمت يسود الطابق الاسفل ، ومس طومسن تجلس فى غرفتها .. **بيد ان انغام الحاكى لم تلبث ان تصاعدت فجأة .. فقد ادارته فى**

تحد ، لتغالب وحدتها ! .. غير أنه لم يكن ثمة من يغنى مع الانغام ، فبدت وكأنها نداء استغاثة .. ولم يبد ديفيدسن اهتماما ، بل مضى فى كلامه .. واستمر الحاكى ، ومس طومسن تضع «اسطوانة» اثر اخرى ، وكأن سكون الليل كان يهفو باعصابها .. وكان الجو رطبا ، راكدا ، فلما أوى الزوجان مكفيل الى فراشهما لم يستطيعا ان يناما ، بل ظلا يقظين جنبا الى جنب ، يصغيان الى الموسيقى المزعجة التى كان يعزفها البعوض خارج «الناموسية» . وفجأة همست مسز مكفيل : « ما هذا ؟ » .. فقد سمعا صوتا خلال الجدار الخشبى.. صوت ديفيدسن ينبعث رتيبا، فى استرسال دائب .. كان يصلى بصوت عال ، من اجل مس طومسن !

وانقضى يومان أو ثلاثة .. وكانوا اذا مروا بمس طومسن فى الطريق لم تحيهم بابتسامة ساخرة ولا بهيئة ودية ، بل كانت تمضى وانفها فى الهواء ، وعلى وجهها المخضب اشمئزاز وعبوس وتجاهل ! .. وأنبأ التاجر مكفيل بأنها حاولت أن تحصل على غرفة فى دار اخرى ، ولكنها فشلت .. وكانت تدير الحاكى فى الامسيات ، ولكن تكرر الانغام أصبح امرا رتيبا ، كأنه خطى يائسة .. وعندما شرعت فى ادارته يوم الاحد ، ارسل ديفيدسن اليها هورن يرجوها أن تكف لأن اليوم يوم الرب .. وساد البيت صمت لم يكن يعكره سوى ارتطام الامطار بالسقف الحديدى

وفى اليوم التالى قال التاجر لمكفيل : « أظنها بدأت تتخاذل .. فهى لا تدرى سر غضب مستر ديفيدسن عليها ، وهى فى خوف من ذلك ! » .. وقد لمحها مكفيل فى ذلك الصباح ، فلاحظ ان مخايل العناد قد زايلت وجهها ، وحل محلها مظهر الخوف .. ورمقه التاجر بنظرة ذات معنى وسأله : « أظنك لا تدرى ما ينتويه مستر ديفيدسن ؟ »

ولم يكن يدرى .. وان خيل اليه ان المبشر يعمل فى تكتم وكأنه ينسج فى دقة وحذر ، شبكة حول المرأة .. حتى اذا استكملها ، شد الخيوط فجأة حولها !

وقال التاجر مستطردا : « لقد سألنى ان اخبرها انها اذا ارادته فى اى وقت فما عليها الا ان ترسل له فيأتيها .. وحين ابلغتها رسالته لم تجب بشىء .. لا ولا انتظرت انا جوابها ، فقد خيل الى انها لن تلبث ان تنفجر باكية ! »

– ما اشك فى ان الوحدة تهدم اعصابها .. والامطار .. انها كافية لاثارة اعصاب اى انسان !

وحك جلده اثر عضات البعوض ، وقد بدأ يشعر بضيق مثير .. كانت الجزيرة تبدو ، عندما توقفت الامطار واشرقت الشمس ، كسجن قائظ ،

رطب ، راكد الهواء ، يبعث جوه فى نفسك شعورا غريبا بأن كل شىء قد أخذ ينمو فى عنف وحشى .. وكان منظر الأهالى بجلـــودهم الموشومة وشعورهم المصبوغة ، يوحى بالخوف ، حتى انك لا تتمالك ان تلتفت فى حذر غريزى اذا ما سمعت حفيف أقدامهم خلفك .. فلست تدرى أى افكار سوء تدور خلف عيونهم الواسعة !

وكان المبشر يغدو ويروح ، منهمكا فى اعمال لم يدر مكفيل وزوجته كنهها .. وقال التاجر للطبيب ان المبشر كان يقابل الحاكم يوميا ، ولكنه تبين انه لم يكن قوى التأثير على الحاكم . وقد ادرك الطبيب ذلك حين ابدى ديفيدسن عدم رضاه لأن الحاكم لم يفعل ما طلبه منه .. واردف : « انما اردت ان يفعل الصواب .. »

فقال الطبيب : « قد تختلف الآراء بصدد الصواب ! »

ـ هب ان مريضا أتاك بساق دب فيها العفن ـ « الفرغرينة » ـ فهل تتردد فى بترها ؟

ـ ولكن العفن حقيقة مادية

ـ والشر ؟

❇

◆ **على ان** ما كان يسعى اليه ديفيدسن لم يلبث ان تبدى .. فبعد ان فرغوا من تناول الغداء ، فتح الباب فجأة ، وولجت مس طومسن ، فأجالت بصرها فى الحجرة ، ثم تقدمت من ديفيدسن قائلة : « ماذا قلت للحاكم عنى ايها النمس الوضيع ؟ »

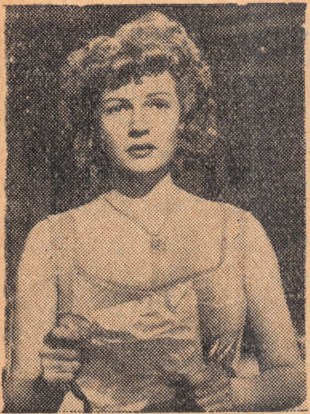
وكانت ترتجف غضبا .. وساد الصمت لحظة ، ثم دفع المبشر اليها مقعدا وقال : « هلا جلست يامس طومسن ؟ .. كنت آمل ان تتاح لى فرصة اخرى كى اتحدث اليك »

وانفجرت فى سيل من الشتائم المقذعة ، القذرة ، وديفيدسن يرمقهـــا بنظراته الآسية .. ثم قال : « لست اعبأ بالسباب يامس طومسن ، لكنى ارجو ان تتذكرى وجود سيدتين معنا ! »

وكانت دموعها تصارع الغضب كى تنطلق ، ووجهها محتقنا ، وكأنهـــا تختنق .. وتساءل الدكتور مكفيل عما جرى ، فقالت انهـــا تلقت انذارا بمغادرة الجزيرة على اول مركب !

وخيل للطبيب ان عينى المبشر اومضتا ، وان ظل وجهه جامدا . وقال : « ما كان لك ان تتوقعى ان يدعك الحاكم تبقين هنا فى هذه الظروف .. ! »

فصرخت : « انت السبب .. انك لا تستطيع ان تموه على ! »



ـ ما أحب ان اخدعك ، فلقد أهبت بالحاكم ان يتخذ الخطـــوة التى تقتضيها واجباته ..

ـ لم لا تدعنى وشأنى .. ما كنت لأضرك فى شىء

ـ لو انك اوقعت ضررا بى ، لكنت آخر من يحاربك !

وارسلت صرخة مختنقـــة لفرط الانفعال ، ثم اندفعت خارج الحجرة.. وساد الصمت فترة، ثم قال ديفيدسن : « جميـــل ان يتصرف الحـــاكم اخيرا »

ثم نهض واخذ يذرع الغرفة قائلا :

« ما ابشع تهرب أصحاب السلطان من المسئولية .. كأنما الشر البعيد عن انظارهم لا يكون شرا .. ان مجرد وجود هذه المرأة فضيحة وعار .. وقد اضطررت فى النهاية الى ان اكلمه فى صراحة ، فان بعثتنا ليست معدومة النفـــوذ فى واشنطن ، ومن ثم صارحت الحاكم بأن ليس من مصلحته ان تكون ثمة شكوى من اسلوبه فى معالجة الامور هنا .. ان السفينة المقلعة الى سان فرانسيسكو ستصل الى هنا قادمة من سيدنى يوم الثلاثاء القـــادم ، وسيحتم عليهـــا ان تستقلها ! » .. تلقت انذارا بمغادرة الجزيرة !

ومن ثم كانت امامها خمسة ايام ..

✠

◆ وفى اليوم التالى ، استوقف التاجر الطبيب وهو يهم بالصعود الى الطابق الثانى عـــائدا من المستشفى ، ليفضى اليـــه بأن مس طومسون مريضة ..

وقاده الى غرفتها ، فاذا بها مسترخية فى مقعد ، تحدق فى فضاء الحجرة ، وقد ارتدت ثوبها الابيض ، والقبعة العريضة الموشاة بالزهور .. ولاحظ مكفيل ان بشرتها بدت ـ تحت المساحيق ـ مزيجا من الصفرة والسمرة .. وقالت له : « لست مريضة فى الواقع ، وانما زعمت ذلك لأننى اردت ان اراك .. اذ لا بد لى من الرحيل على الباخرة المبحرة الى سان فرانسيسكو »

وتطلعت اليه ، فرأى فى عينيها ارتياعا فجائيا .. وكانت تفتح قبضتيها وتضمهما فى انفعال .. وعادت تقول فى غصة : « لست ارى من الملائم لى ان اذهب الى « فريسكو » فى الوقت الحاضر .. ولقد ذهبت لمقابلة الحاكم عصر أمس فلم يسمح لى . وانتظرت فى الصباح خارج مسكنه ، حتى غادره فتحدثت اليه .. وأعترف انه لم يكن راغبا فى ان يكلمنى ، ولكننى لم ادعه يتخلص منى ، الى ان قال أخيرا انه لا يعارض فى ان امكث حتى تفد الباخرة الراحلة الى سيدنى ، اذا وافق الأب ديفيدسن على ذلك ! »

وتطلعت الى الدكتور مكفيل فطالعت الحيرة على ملامحه ، فقالت : « لقد خيل الى انك قد لا ترى بأسا فى سؤاله.. واقسم بالله اننى لن آتى أى عمل هنا لو تركنى امكث .. بل لن ابرح البيت اذا راق له ذلك .. ولن يطول هذا الوضع على اى حال اكثر من اسبوعين .. قل له اننى سأبحث عن عمل فى سيدنى ، واعنى عملا شريفا .. ولست ارانى اطلب شيئا كثيرا منه ! »

ولم تكن المهمة ــ وربما هذه المهمة بالذات ــ بالتى يسر لها الطبيب ، فسعى لأدائها بطريق غير مباشر : اذ أفضى لزوجته بما قالت مس طومسن ، وسألها ان تنقله الى مسامع مسز ديفيدسن ، كى تبلغه بدورها الى زوجها !

وجاءه المبشر على الاثر ، فارتبك ، وتولاه التردد الذى يسيطر على الخجول اذا ما اجبر على كشف ما لديه ، لكنه لم يلبث ان شعر بالانفعال والتحمس، فقال متوسطا فى الامر :

ــ لست ارى اى فارق اذا هى ذهبت الى سيدنى بدلا من سان فرانسيسكو .. وما دامت تعتقد بأن تحسن التصرف طالما كانت هنا ، فمن الغبن اضطهادها !

ورمقه المبشر بنظرة صارمة وسأله : « ترى لم لا ترغب فى الذهاب الى سان فرانسيسكو ؟ »

ــ لست اسأل فيما لا يعنينى ..

وافحم المبشر .. فتحول يقول : « لقد ادى الحاكم واجبه وليس لى ان اتدخل .. ان وجودها هنا خطر ! »

ــ اعتقد انك قاس جائر ..

وتطلعت المرأتان الى الطبيب فى شىء من الجزع ، ولكن لم يكن لهما ان تخافا شجارا ، اذ ابتسم المبشر فى لطف وقال : « شد ما يؤسفنى أن ترى فى هذا الرأى يادكتور مكفيل . صدقنى اذا قلت انقلبى ينزف دما من أجل هذه المنكودة ، ولكننى لا أحاول الا اداء واجبى ! »

ولم يجب الطبيب ، بل راح يحدق خلال النـــافذة فى وجوم .. كانت الامطار قد انقطعت برهة ، وعلى الجانب الآخر للخليج بدت قرية من قرى الأهالى قابعة بين الاشجار ، فأعرب عن رغبته فى انتهاز فرصة صحو الجو للخروج . وقال له ديفيدسن فى ابتسامة حزينة : « ارجو ان لا تظن بى سوءا لاننى لم انزل عند رغبتك .. اننى اكن لك احتراما كبيرا ياسيدى ، حتى ليحزننى ان تسىء الظن فى ! »

فقال مكفيل باقتضاب : « لست اشك فى انك تحسن الظن بنفسك الى درجة لا داعى معها لأن تحفل برأيى فيك ! »

على أنه لم يلبث أن ندم على لهجتـــه الجافة ، فآثر الخـــروج . وكانت مس طومسون ترتقبه وقد تركت بابها مفتوحا ، فأعرب لها عن أسفه لاخفاقه فى مهمته ، دون أن ينظر - فى حيرته - اليها .. ولكنه اضطر الى النظر ، حين ندت عنها شهقة منتحبة ، فرأى وجههـــا شاحبا لفرط الخوف ، فأحس بوخزة ألم واشفاق .. وفجأة ، خطرت بباله فكرة .. فقال لها : « لا تفقدى الامل .. انى لارى من العـــار أن يعاملوك على هذا النحو .. سأذهب للحاكم بنفسى ! »

وأشرق وجهها .. ولم يدر الدكتور مكفيل ما الذى حمله على أن يقـــرر التوسط لدى الحاكم ، فانه لم يكن مهتما بمسألة مس طومسون فى البداية، لولا أن المبشر أثاره ، وكان اذا ما أثير اندفع فى غير احجام ..

ووجد الحاكم فى داره ، وكان رجلا وسيما ، فارع الطـــول ، عريض المنكبين ، ذا شارب كفرجون الاسنان دب فيه الشيب .. وطرق الطبيب الموضوع ، فسأل الحاكم أن يسمح لمس طومسون بالبقاء الى أن تصـــل السفينة القادمة من سان فرانسيسكو لتستقلها الى سيدنى ، وتعهـــد بأن يضمن سلوكها .. فضاقت حدقتا الحاكم وقد بدا عليـــه الاهتمام ، وقال :

- كان يسرنى أن أرضيك يا دكتور مكفيل ، لولا اننى أصدرت الامر .. فلا يجب أن أرجع فيه !

وحاول اقناعه بالمنطق .. وانصت الحاكم وقد غاب الابتسام عن وجهه ، وشردت نظراته ، مما أوحى الى مكفيل بأن حديثه غير ذى أثر .. فقـــال أخيرا : « أى فارق بين أن تسمح لها بالذهاب الى سان فرانسيسكو أو الى سيدنى ؟ »

- معذرة يا دكتور . لكنى لا أحسبنى مســؤولا عن أن أبرر تصرفاتى الرسمية الا للسلطات المختصة !

وتطلع اليه مكفيل فى تفرس ، وقد ذكر ما أشار اليه ديفيـــدسن من أنه

لجأ الى التهديدات ليحمل الحاكم على العمل ، فهتف فى غيظ : «يا لديفيدسن من لعين ! »

ونهض الحاكم ، فاضطر الدكتور مكفيل الى النهوض ، وغادره فى حيرة وهم ، فقد كان يعرف أن مس طومسون كانت فى ارتقابه .. ولم يشأ أن يطلعها على فشله ، فولج الدار من الباب الخلفى ، وتسلل صاعدا السلم وكأنه يخفى شيئا !

وبدا على العشاء صامتا ، متضايقا ، بينما كان المبشر مبتهجا ، كثير الكلام .. وخيل الى الدكتور مكفيل أنه كان يرمقه فى انتصار وسخرية .. وخطر له فجأة أن ديفيدسن علم بزيارته للحاكم وباخفاقه ، ولكن .. كيف تسنى له ذلك ؟.. كان يبدو أن لهذا الرجل قوة خبيثة !

وألفى هورن فى الشرفة بعد العشاء ، وقد جاء ينبئه بأن مس طومسون تتوق الى أن تعرف ما جرى بينه وبين الحاكم ، فلما ذكر له أن الرجل لم يبد استعدادا لشىء ، قال له :

ـ كنت أعرف ذلك ، فهم لا يجرؤون على اغضاب المبشرين !

وعاد الى قاعة الجلوس .. **وفجأة ، انبعثت على الباب طرقة مترددة .. وبدت مس طومسون واقفة لدى الباب ، وكانت فى حال غير عادية . لم تكن الغانية الوقحة التى سخرت منهم فى عرض الطريق يوما ، وانما كانت امرأة مهدمة ، خائفة ، وقد تهدل شعرها على عنقها فى غير تنسيق ، وبدت ثيابها فى غير انتظام .. والدموع تجرى على وجهها .. ولم تجرؤ على الدخول !**

وقالت مسز ديفيدسن تخاطبها فى جفاء : « ماذا تبغين ؟ »

فأجابتها فى صوت متحشرج : « هل لى أن أتحدث الى مستر ديفيدسن ؟ »

فنهض المبشر وسار اليها ، وقال فى لهجة ودية : « تفضلى يا مس طومسون .. ما الذى أملك أن أفعله لك ؟ »

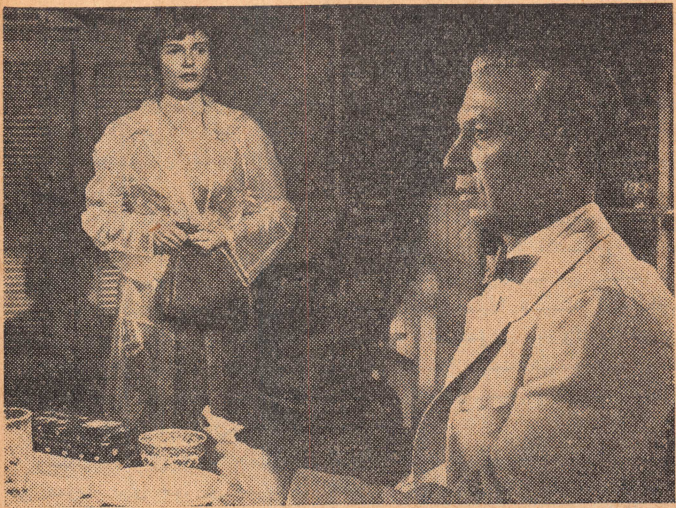
ـ اننى آسفة لما قلته لكم فى ذاك اليوم .. و .. ولأى شىء بدر منى .. اننى ألتمس الصفح

ـ آه ، لا بأس .. أعتقد أن صدرى يتسع لبضع كلمات جافية

وخطت نحوه فى حركة تذيب القلب وقالت : « لقد ملكتنى فى قبضة يدك .. فهل تصر على أن تردنى الى سان فرنسيسكو ؟ »

وتلاشى لطفه ، فاذا صوته يستحيل فجأة خشنا ، صارما وهو يقول : « ولم لا تريدين الذهاب اليها ؟ »

وبدت ذليلة أمامه وهى تقول : « أن أهلى يقيمون هناك ، ولا أود أن يرونى



هكذا .. اننى مستعدة لان أذهب الى أى مكان آخر تشير به ! »

وانحنى نحوها وهو يحدجها بنظرة ثاقبة من عينيه ، وكأنه يريد ان يصل الى اعماقها ، ثم قال : « أم تخافين ملجأ الاصلاحية ؟ »

فصرخت ، ثم ارتمت على قدميه تحتضنهما هاتفة : « كلا .. لا تردنى الى هناك ثانية .. أقسم لك امام الله بأننى سأغدو مستقيمة ، وسأرتد عن كل مسلكى »

وانفجرت ، فى سيل من التوسلات والدموع ، تمحو طلاء وجنتيها .. فمال نحوها ورفع وجهها ، واضطرها لأن تتطلع اليه ، ثم قال : « أهذا هو السبب .. الاصلاحية ؟ »

ـ لقد فررت قبل ان يمسكوا بى ، والا لقضوا على بثلاث سنوات ؟

وتركها المبشر ، فهوت على الارض تنتحب .. ووقف الدكتور مكفيل قائلا : « هذا يغير كل شىء ، فما اراك تضطرها الى العودة اذا علمت هذا ، بل أتح لها فرصة اخرى ، فانها ترجو ان تبدأ صفحة جديدة »

ـ سأتيح لها خير فرصة حظيت بها فى حياتها .. اذا كانت تبغى التوبة فلتتحمل العقوبة !

واساءت فهم كلماته فتطلعت اليه وفى عينيها وميض الامل وتساءلت : « هل تدعنى اذهب الى سيدنى ؟ »

ـ لا ، بل ستبحرين الى سان فرانسيسكو يوم الثلاثاء !

وارسلت أنينا مروعا ، ثم انطلقت فى صراخ كصراخ الوحوش وهى تضرب رأسها فى الارض . فقفز الدكتور مكفيل ورفعها قائلا : « لا .. لا تفعلى هذا .. يحسن ان تذهبى الى غرفتك وان تستلقى على الفراش ريثما اوافيك ببعض الدواء »

ورفعها الى قدميها وراح يعينها على هبوط السلم وهو ناقم على مستر ديفيدسن وزوجته لأنهما لم يبذلا لها اى عون . وساعده التاجر على ان يطرحها على سريرها ، وهى تئن وتبكى وقد أوشكت أن تغيب عن رشدها .. ثم حقنها الطبيب بعقار مهدىء .. وحين اطمأن عليها عاد الى الطابق العلوى ، وهو مشبوب الغضب ، منهوك القوى .. وكانت المرأتان وديفيدسن فى اماكنهم ، لم يتحركوا او ينبسوا ببنت شفة .. وقال ديفيدسن فى صوت غريب ، كأنه منبعث من واد سحيق : « كنت أنتظرك كى نصلى جميعا من اجل اختنا الخاطئة .. »

وتناول الانجيل ، ثم جلس الى المائدة فأزاح الأوانى جانبا وراح يقرأ ، فى صوت قوى جهورى عميق ، الفصل الذى تناول لقاء المسيح بالمرأة الزانية ، ثم قال : « والآن اركعوا معى لنصلى من اجل نفس اختنا العزيزة سادى طومسن »

وانطلق فى صلاة طويلة حارة توسل فيها الى الله ان يرحم المرأة الخاطئة .. وركع الطبيب منصاعا ، مأخوذا .. وكان المبشر يصلى فى طلاقة وتحمس ، والدموع تجرى على وجنتيه .. والامطار تنهمر فى الخارج فى عنف ودون هوادة !

وكف المبشر عن الصلاة أخيرا ، ثم قال : « والآن ، هلا كررتم معى الصلاة الربانية ؟ »

ونهضوا مثله ، وقد زال شحوب وجه مسز ديفيدسن ، واستردت طمأنينتها ، بينما أحس الزوجان مكفيل بشىء من الحرج.. وما لبث الطبيب ان هبط الى الطابق الاسفل ، وفتح له التاجر باب غرفة مس طومسن ، فاذا بها جالسة فى المقعد تبكى فى صمت ، فصاح بها : « ألم آمرك ان تنامى ؟ »

ـ لا استطيع .. اريد أن ارى مستر ديفيدسن ..

ـ اى خير ترين فى ذلك ياصغيرتى المسكينة ؟ انك لن تحركى قلبه ..

ولكنها أصرت ، فأوفد هورن لاستدعائه .. وسرعان ما اقبل .. فبادرته معتذرة عن ازعاجها اياه باستدعائه ، فاجابها : « كنت اتوقع ان تفعلى ، فقد ادركت ان الرب سيستجيب لصلاتى »

وحدق كل منهما فى الآخر لحظة ، ثم أشاحت بوجهها وقالت : « اننى امرأة خاطئة ، واريد ان اتوب ! »

فهتف : « الحمد لله .. الحمد لله أن استجاب لصلاتنا »

ثم طلب ان يترك معها وحيدين ..

*

ولم يقدر للدكتور مكفيل ان ينام فى ذلك المساء الا فى ساعة متأخرة من الليل .. ونظر الى ساعته حين سمع المبشر يصعد السلم عائدا ، فاذا بها الثانية صباحا .. وسمعه خلال الجدار الخشبى يصلى بصوت عال ، حتى كلت قواه فنام ..

وحين رآه فى الصباح التالى أدهشه مظهره .. كان أشد شحوبا مما هو فى العادة ، بادى التعب ، ينبعث من عينيه شرر غير مألوف ، وكأنما كان مفعم القلب بالفرح ! .. وقال للطبيب : « احب ان تهبط فورا لتزور سادى ، فلست اظن جسمها بخير ، ولكن روحها .. روحها قد تحولت ! »

وكان الطبيب متوتر الاعصاب .. وأردف ديفيدسن وعيناه تومضان : « لقد حلت بى نعمة جزيلة ، اذ حظيت فى الليلة البارحة بأن ارد الى احضان المسيح روحا ضالة »

وألفى الطبيب مس طومسون جالسة ، والحجرة غير مرتبة ، وهى بثوب النوم المتسخ .. وقد مسحت وجهها بفوطة مبتلة ، ولكنها لم تقو على أن تمحو عنه امتقاعه وتجعده وآثار الدموع .. ثم رفعت عينيها الى زائرها باكتئاب ، محطمة النفس ذليلة ، وبادرته متسائلة عن مستر ديفيدسن ، فطمأنها الى أنه موشك ان يأتى .. ولكنها تطلعت الى الباب فى قلق وتساءلت :

– اتظن انه سيأتى عما قريب ؟ .. اشعر اننى كنت مرتاحة اذ كان معى ..

– او ما زلت مسوقة الى الرحيل يوم الثلاثاء ؟

– اجل .. ارجو ان تسأله ان يحضر توا .. انك لا تستطيع ان تؤدى خيرا لى ، بل انه هو الوحيد الذى يستطيع ان يساعدنى ..

- ٤ -

◆ **وأخذ** المبشر يقضى الشطر الاكبر من أوقاته خلال الايام الثلاثة التالية مع سادى طومسون ، فلا يكاد يجلس مع الآخرين الا فى أوقات الطعام ، ومع ذلك فلم يكن يصيب من الطعام شيئا يذكر ٠٠ وقال الطبيب : « لسوف تنهار أعصابه اذا لم يعن بنفسه ! »

وكانت مسز ديفيدسن هى الاخرى شاحبة ، وقد أنبأت مسز مكفيل بأنها لم تحظ بنوم ٠٠ وكان المبشر اذا عاد الى غرفته ، عكف على الصلاة حتى يغلبه النعاس ٠٠ ولكنه لا يلبث أن ينهض بعد ساعة أو اثنتين ، فيغادر الدار ويسير متمشيا الى الخليج ، اذ كانت تراوده أحلام غريبة ٠٠ وذكرت زوجته مرة أنه رأى فى المنام جبال « نبراسكا » ، فتذكر الطبيب أن تلك الجبال شبه ملساء ، تكاد تنهض رأسية ، وتذكر أنه دهش اذ رآها لاول مرة ٠٠ فقد بدت له شبيهة بنهدى المرأة !

وكان ديفيدسن فى قلقه يبعث الضيق والازعاج لكل فرد ، حتى لنفسه ٠٠ كأنما كان ينتزع بيديه آخر جذور الخطيئة من أعمق الاركان الخفية فى قلب المرأة ٠٠ وكان لا ينفك يقرأ ويصلى معها ٠٠ وقال لهم يوما : « هذا بعث حقيقى ٠٠ كانت نفسها فى سواد الليل فأصبحت نقية ناصعة كالثلج ٠٠ ما أجمل ندمها على خطاياها!٠٠اننى لم أعد أهلا لأنألمس أطراف ثوبها!»

فسأله الطبيب : « أو ما زلت مصرا على ارسالها الى سان فرانسيسكو ، حيث يتلقفها السجن لثلاث سنوات ؟

- هذا ضرورى٠٠أو تظن أنقلبى لايدمى لذلك؟٠٠اننى أحبها كما أحب زوجتى وأختى ، وسأعانى طيلة وجودها فى السجن كل ما تعانيه من ألم !٠٠ انك لا تفهم لانك أعمى ٠٠ انها قد أثمت فيجب أن تألم ، وانى لادرك أنها ستتحمل الالم صابرة : ستجوع وتتعذب وتهان ٠٠ وأنا أريدها أن تتقبل عقاب البشر

كتضحية فى سبيل الله ٠٠ ان لديها فرصة لم تسنح الا لقلة نادرة منا !

وكان صوته يتهدج تحمسا ، والكلمات تتعثر على شفتيه لتدفقها ٠٠

*

◆ **ومرت** الايام وئيدة ، وأهل البيت كلهم فى انفعال غير طبيعى لفرط اهتمامهم بالتعسة المعذبة التى كانت فى الطابق الاسفل ٠٠ كانت كضحية تعد لبعض طقوس وثنية ٠٠ ولم تكن تطيق أن يبتعد ديفيدسن عنها ، فما كانت تشعر بالجرأة الا فى وجوده ٠٠ وكانت تكثر من البكاء ، ومن قرأءة التوراة والصلاة ، وتتطلع الى سجنها كخلاص من الالم الذى كانت تعانيه ٠٠ وطرحت عنها مع خطاياها كل غرور ، وكل رغبة فى الزينة ، حتى أنها لم تخلع عنها قميص النوم أربعة أيام متوالية !٠٠ وسادت الفوضى حجرتها ٠٠ وكانت الامطار تنهمر طيلة الوقت فى اصرار قاس ، حتى لكأن السماء كانت تستنزف آخر ما فيها من ماء!٠٠وكان صوت ارتطام قطرات الامطار بالسقف الحديدى يثير الاعصاب ويذهب بالعقل ٠٠ ونضحت الجدران بالماء ٠٠ وأخذ البعوض فى الليالى المؤرقة يطن فى غضب ٠٠

وأخذوا جميعا يتطلعون الى يوم الثلاثاء ، حين تصل السفينة الذاهبة الى سان فرانسيسكو ٠٠ وكان التوتر فظيعا ، وقد طغت على الدكتور مكفيل الرغبة فى التخلص من المرأة المنكودة، ليتخلص معها من الاشفاق والضيق ٠٠ لم يكن ثمة بد من الرضى بما لا مناص منه ، فأحس أنه لن يهدأ نفسا الا اذا أقلعت الباخرة ٠٠ وكان من المقرر أن يرافق سادى طومسن الى سطح السفينة مندوب من مكتب الحاكم ، فزارها هذا المندوب فى مساء الاثنين وسألها أن تكون على استعداد فى الساعة الحادية عشرة من الصباح التالى ٠٠

وكان ديفيدسن معها ، فوعد بأن يرافقها ٠٠

وعندما تسلل الدكتور مكفيل تحت « الناموسية » فى ذلك المساء ، تنهد فى ارتياح قائلا : « الحمد لله ٠٠ لقد انتهى الامر ، ولن يأتى مثل هذا الوقت من الغد حتى تكون قد رحلت» ٠٠ ونام فى الحال ، كما لم ينم فى أية ليلة أخرى !

*

• واستيقظ فى الصباح على يد غريبة ، واذا هورن يضع اصبعه على شفتيه يحذره من أن يحدث أى صوت ، ويدعوه الى أن يتبعه ٠٠ وقاده الى الشرفة ثم قال له هامسا :

ـ هناك حاجة اليك فأسرع ، ولا تحدث جلبة !

وتبادر الى ذهن مكفيل أن سوءا أصاب مس طومسن ، فسرعان ما ارتدى ثيابا خفيفة ولحق بالتاجر ، ثم هبطا السلم على أطراف أصابع أقدامهما ٠٠ وكان باب الدار مفتوحا ، وقد وقف أمامه نفر من الاهالى ٠٠ وتساءل الطبيب عما هنالك ؟ ولكن هورن لم يجب ، فتبعه والقوم فى أثرهما ، واجتازوا الطريق حتى بلغوا رمال الشاطىء ، واذا بقوم آخرين من الاهالى قد تجمعوا حول جسم لدى حافة الماء ٠٠ وشق التاجر طريقا بينهم ثم دفع فيه بالطبيب ، واذ ذاك رأى مكفيل المنظر الرهيب : جسم دافيدسن ، ونصفه فى الماء والنصف الآخر على الرمال !

وفحص الطبيب الجثة ، فاذا العنق قد ذبح من احدى الاذنين حتى الاذن الاخرى ، بينما وجدت « الموسى » التى استعملت ، فى اليد اليمنى للجثة ٠٠

وقال الطبيب : « لا بد أنه مات من زمن ٠٠ »

ـ لقد رآه أحد الصبية على هذا الوضع وهو فى طريقه الى عمله ٠٠ أتظنه ذبح نفسه ؟

ـ أجل ٠٠ أرسلوا فى استدعاء البوليس ٠٠ يجب أن نتركه هنا حتى يحضر المحققون ٠٠

ومكثوا فى الانتظار ٠٠ وراح الطبيب يحملق فى الجثة وهو لا يدرك سببا يبرر الانتحار ٠٠ وما لبث أن أقبل رجال البوليس ، وفى أثرهم ضابطان بحريان وطبيب بحرى ٠٠

وعندما عاد الدكتور مكفيل وجد أن زوجته قد ارتدت ثيابها ٠٠ وما أن رأته حتى قالت : « ان مسز ديفيدسن فى أشد حالات القلق بشأن زوجها ، فهو لم يأو الى فراشه طيلة الليل ، ولو أنه كان يهيم على وجهه لمات من فرط التعب ٠٠ »

وأفضى اليها بما حدث ، وسألها أن تحمل النبأ الى مسز ديفيدسن ، فتساءلت مفزوعة : « ولم فعل ذلك ؟ »

وألقت عليه نظرة مرتاعة ، ثم خرجت ٠ ٠وظل لحظة ريثما تمالك نفسه ، ثم تحول فحلق لحيته واغتسل وارتدى ثيابه ٠٠ وجلس ينتظر زوجته ، حتى اذا جاءت أخيرا ، قالت له : «أنها تريد أن تراه »

ـ لقد نقلوه الى المشرحة ، فيحسن أن نرافقها الى هناك ، اذ كيف تتحمل الموقف وحدها ؟

وخرجت اليهما مسز ديفيدسن شديدة الشحوب ، ولكن الدموع كانت جامدة فى عينيها ، حتى لقد بدا جلدها غير طبيعى لعينى الطبيب ٠٠ ولم ينبسوا ببنت شفة ، حتى اذا بلغوا المشرحة ، قالت مسز ديفيدسن : « أتركانى أدخل لاراه وحدى »

وجلسا فى الخارج ينتظرانها ٠٠ واقبل رجل أو اثنان من البيض تحدثا اليهما بأصوات خافتة ، فأنبأهما الدكتور مكفيل بما كان يعرف عن المأساة ٠٠ وفتح الباب أخيرا بهدوء ، وخرجت مسز ديفيدسن ، فساد الصمت ٠

وقالت : « اننى متأهبة للانصراف ٠٠ »

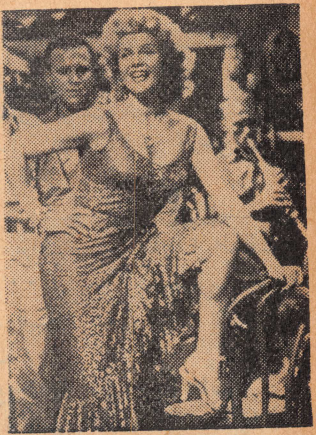
وكان صوتها جامدا ، رزينا ، ووجهها الشاحب عابسا ٠٠ ولم يستطع الطبيب أن يدرك النظرة التى كانت فى عينيها !٠

وعادوا الى الدار فى خطى بطيئة ، دون أن تصدر من أحدهم كلمة ٠٠ حتى اذا بلغوا الانحناءة التى يعرجون منها الى البيت ، شهقت مسز ديفيدسن ، وتوقفوا لحظة جامدين ، اذ صافحت آذانهم أصوات لم يستطيعوا فى البداية أن يصدقوا سماعهم لها ! ٠٠ كانت الانغام تتصاعد عالية ، صاخبة ، من الحاكى الذى طال صمته !

وصاحت مسز مكفيل مرتاعة : « ما هذا ؟ »

فقالت مسز ديفيدسن : « لنمض قدما ٠٠ »

وولجوا الدار ، فاذا مس طومسون تقف لدى الباب تجاذب أحد الملاحين الحديث ، وقد اعتورها تغير مفاجىء ، فلم تعد تلك الذليلة المهدمة التى كانت فى الايام الاخيرة ، بل كانت فى أوج بهرجتها ، وقد ارتدت أبهى ثيابها ، وخضبت وجهها ، وصبغت شفتيها بحمرة قانية ، ووقفت منتصبة ٠٠ كانت عين الغانية التى عرفوها من قبل !٠٠ وانطلقت فى قهقهة عالية اذ أقبلوا ، فلما توقفت مسز ديفيدسن ـ عن غير قصد ـ عن السير ، جمعت الغانية لعابها ثم بصقت ٠٠ وتراجعت مسز ديفيدسن وقد تضرجت وجنتاها بلون اللهب ٠٠ ثم غطت وجهها براحتيها وانطلقت مهرولة تصعد السلم ٠٠



وتولى الغضب الدكتور مكفيل ، فاندفع الى غرفة المرأة قائلا :

« أى اثم تفعلين ؟ اخمدى هذا الحاكى اللعين ! »

وسار الى الجهاز ، فانتزع منه «الاسطوانة» .. وتحولت اليه صائحة : « ليس لك أن تفعل معى هذا يا دكتور ؟.. ماذا جئت تفعل فى حجرتى ؟ »

فصاح : « ماذا تعنين ؟.. ماذا تعنين ؟ »

فاستجمعت جرأتها .. وليس بوسع انسان أن يصف الاحتقار والمقت الغاضب اللذين تجليا فى لهجتها وهى تجيبه : « انكم معشر الرجال أقذار ، خنازير .. كلكم سواء .. كلكم خنازير .. خنازير ! »

وشهق الدكتور مكفيل ، وقد فهم !

فهم سر انتحار المبشر التعس !

السماء تمطر نساء !

◆ **لعل** من أعجب قصص التعارف بين الجنسين فى التاريخ هذه القصة الواقعية التى حدثت للمغنى العالمى « لورينتز ملكيور » الذى اختص فى تمثيل أدوار البطولة فى أوبرات الموسيقى فاجنر : فعندما كان لا يزال طالبا يدرس الموسيقى ، جلس ذات يوم فى حديقة البنسيون الذى كان يقيم فيه فى مدينة (ميونيخ) ، يتمرن على غناء مقطوعة تبدأ بهذه العبارة : «تعالى الى ، يا غرامى ، على أجنحة الضياء ! »

وفيما هو يغنى هذه الكلمات كاد يصعق من الدهشة حين وجد فتاة تسقط بالفعل من السماء عند قدميه !.. فلما أفاق من ذهوله علم أنها الممثلة البافارية « ماريا هاكر » التى كانت تمثل دورا فى فيلم مثير ، وكانت قد هبطت لتوها بالمظلة الواقية «الباراشوت» من احدى الطائرات ، بينما كان مصور الفيلم يلتقط لها المنظر ..

لكن الاعجب من ذلك أن الشاب والفتاة لم يلبثا أن تبادلا الحب .. ثم تزوجا !

حدث ذات يوم



من قصص التاريخ ومآسيه

عزيزى القارئ ..

فى هذا الباب قرات معى فى الاعداد السابقة ، القصص الآتية على التوالى :

لوكريشيا بورجيا
« تيبريوس » قيصر روما
عشيقة نابليون (مارى فالفسكا)
فضيحة «كارولين» ملكة انجلترا
الحب أقوى من الموت !
امراة وملك (مدام دى مانتنون)
نيرون : الطاغية السفاح
ليدى هاملتون
مارى انطوانيت
مصرع القيصرية فى روسيا
ملكة الغواية: بولين بونابرت
مأساة ملك بافاريا
الحب والجريمة تحت سماء فلورنسا
غرام الاميرة اليزابيث تيودور
ديزيريه : خطيبة نابليون

واليوم أقدم اليك فيما يلى هذه القصة الواقعية المستمدة من تاريخ الملك ((فيليب المقدونى)) وزوجته ((أوليمبيا)) والدى ((الاسكندر الاكبر)) .

وفى الاعداد القادمة تقرا معى باذن الله المزيد من قصص التاريخ الشائقة ومآسيه الكبرى ..



OLYMPIAS
BY
F. MATANIA
"ف - ماتانيا"
يروى قصة
اوليمپيا
.. الغرام الذى صنع تاريخ الاسكندر المقدونى !

قصة واقعية .. أغرب من الخيال !

◆ اعتاد أهل العصور الوثنية الغابرة أن يضفوا على ابطالهم صفات القداسة ، وان يربطوا - فى مبالغة خيالية - بينهم وبين آلهتهم وأربابهم العديدين .. ومن ثم لا تلبث أن تلفهم غلالات من الاساطير بعد موتهم ، بل احيانا ابان حياتهم وسعيهم للمجد ..

ولكن « الاسكندر المقدونى » كان من الشواذ القلائل لهذه القاعدة ، فان الحقائق والاحداث الرهيبة التى سبقت مولده ، ثم عاصرت حياته، كانت اغرب واعجب من الشائعات والمبالغات الخيالية التى سبقتها !

وهذه القصة قد تبدو من المآسى الخيالية التى تضمنتها أساطير الاغريق الاقدمين ، ولكنها فى الواقع سجل لحقائق تبين مدى مغالاة القوم اذذاك فى تقديس الابطال ..

راقصة المعبد !

◆ فى بحر ايجه ، تقبع جزيرة « ساموثريس » الصغيرة التى خلعت عليها الطبيعة أبهى رواء وجمال ، وصاغتها من صخور سمراء كستها بأشجار الزيتون والصنوبر، وشجيرات الورود والزهور البرية الذكية الشذى .. وفوق قمة الجبال التى تعلو عن سطح البحر بخمسة آلاف قدم ، يتربع معبد كان فى القرن الثالث قبل البلاد ، المركز الرئيسى لاتباع عقيدة « كابيرى » ، يمارسون فيه ألوانا من الطقوس الغريبة ، تقربا الى الآلهة « أبولو » و « ديونيس » و « أورفيس » و « زيوس » و « امون » ..

وكانت تقام لهذه الآلهة حفلات ، من لونين :

فهناك حفلات عامة .. وهناك حفلات سرية لم يكن يتاح حضورها الا لمن يقسم على أن يلتزم أقصى حدود التكتم لما يجرى فيها ! - (وان عرف أن الطقوس السرية التى كانت تمارس فى تلك الحفلات كانت تتألف من حركات ورقصات

همجية ، وكان يقصر حضور بعضها على الذكور الذين كانوا يدربون وهم فى العشرين من أعمارهم ، بينما كان بعضها يجمع بين الشباب من الجنسين ٠٠ وكان بعض ثالث يقتصر على الاناث وحدهن !)

وفى احدى هذه الحفلات السرية ، وقعت عينا الملك فيليب المقدونى ـ فى سنة ٣٥٨ قبل الميلاد ـ على « أوليمبيا » !

رآها على الضوء الخافت ، المحتقن ٠٠ على وهج النيران المقدسة فى المعبد ٠٠ وكانت ترقص للآلهة رقصة جمعت حركاتها بين النشوة والعواطف المشبوبة ، واحتواها جو الرقصة فاستغرقت فيها ، وغابت عما حولها ، حتى أمسك الحضور أنفاسهم وراحوا يحملقون فيها مأخوذين ، مفتونين ٠٠ ومضت تتثنى وتتمايل ـ وكأنما خلا جسدها الملتف المتناسق ، من أى أثر للعظام ـ وقد رفعت فوق رأسها غصنا التفت حوله الازاهير والثعابين !

وبهر المنظر « فيليب » وملك عليه نفسه ٠٠

كان فى الرابعة والعشرين ، يطفر محياه بنضارة الشباب ، وقد صقلت الرياضة جسمه ، كما صقلت الثقافة وعلوم الاغريق عقله وروحه ٠٠ وبقدر ما أوتى من جرأة واقدام ومهارة فى فنون القتال ، أوتى لباقة ، وذكاء ، ومعرفة ٠٠ وعلى الرغم من تفقهه فى التعاليم الدينية ، الا أنه لم يكن يحجم عن سلوك الطريق المعوجة الملتوية ، اذا تبين انها أقصر من سواها الى بلوغ أهدافه ٠٠ فقد كان مفعم النفس بالطموح !

وما كان هذا كله ليحرمه مما يحظى به أقرانه فى مثل هذه السن ، من متع الحياة ، ومن افتتان بسحر الانوثة ٠٠ فكان يتنقل بين الحسان تنقل النحلة بين الورود ، سعيا وراء رحيقها ، وبحثا عن الحب الحقيقى الذى يصبو اليه القلب الشاب ٠٠

وكانت قوة الشخصية هي الطابع الاول للملك الشاب ٠٠ وما كانت الفتاة ، راقصة المعبد ، بأقل منه فى هذا الصدد

٠٠ ولا كانت أقل منه توفيقا بين النقيضين : قوة الشخصية وفورة الطموح ، وارضاء النفس ونزوات الشباب !٠٠ وكانت تصغره سنا ، وقد أضفت عليها الطبيعة أبهى رواء من الفتنة ٠٠ وسواء كان ابداعها فى أداء الرقصات الدينية ناشئا عن تعلق دينى ، أو راجعا الى انها كانت تجد فى هذه الرقصات متنفسا للاحاسيس الفوارة فى أعماقها ٠٠ سواء كان هذا أو ذاك ، فان الولاء للآلهة الوثنية لم يكن يحميها من شـــهوات النفس ونزوات العاطفة ، حتى لقد وصفها المؤرخ « بلوتارك » بأنها كانت ذات طبيعة عنيفة ، تسف فى الحقد ، كما تسرف فى الحب ٠٠ لا تعرف الاعتدال !

الغرام الذى غير وجه التاريخ !

◆ **وهكذا** التقى الملك الشاب « فيليب المقدونى » بالاميرة اليتيمة « أوليمبيا » ابنة « نيوبتوليمس » ملك ابيـــرس ٠٠ **فاذا لقاؤهما فاتحة غرام لم يكن من أروع غراميات التـــاريخ فحسب ، بل انه ساهم فى صنع هذا التاريخ ! فلقد أخـــذ « فيليب » بهذه الروح المتمردة ، الفائرة ، حتى لقـــد بادر بطلبها من أبيها ، الذى لم يتردد بدوره فى الموافقة على الزواج ٠٠ وسرعان ما بدىء فى الاستعداد له ٠٠**

وأخذت « أوليمبيا » الملهوفة تزداد استغراقا وتحمسا فى رقصاتها القدسية ، كلما ازداد موعد الزفاف اقترابا ، وقـــد ولت وجهها فى هذه الفترة صوب آلهة النسل والاخصاب ٠٠ وراحت تقيم الطقوس وتقـــدم القرابين الى « زيوس » اله « دودونا » والى « مين ــ آمون »٠٠ ومضت تعيش ليلها ونهارها فى عالم تصوفى محموم ، تصطلى بنيران العواطف المشبوبة وقد حفت بها رؤى الآلهة وأطيافها ٠٠

وفى الليلة الســـابقة للزفاف ، رأت « أوليمبيـــا » فى المنام كأنما أصابت جسدها صاعقة قوية اخترمته ، فاذا النار تندلع فى جوفها ، ثم تتطاول ألسنتها الى الخارج ، وتنطلق

نحو السماء في استعار ، حتى اذا بلغت علوا معلوما ، اتسعت وانتشرت فى كل مكان ، الى أن بلغت الافق ۰۰ واذ ذاك هدأت وفترت ثم ۰۰ انطفأت !

واستدعى مفسرو الاحلام من سحرة وفلكيين ۰۰ وفيما هم عاكفون على فنونهم يستقرئونها تأويلا للحلم ، عقد الزواج ، وزفت العروس الى الملك الشاب فى غمرة من البذخ والاسراف ۰۰ فما عرف عن فيليب يوما انه كان يعرف للمال قيمة !

وفى الليلة التالية ، اعتكر صفو العروسين حلم آخـــر ، تراءى فى هذه المرة لفيليب نفسه ۰۰ ويروى « بلوتارك » هذا الحلم ، بأن يد « الفنان الخفى » الذى يلهم النائمين أحلامهم ، صورت للملك أنه يختم جسم عروسه بخاتم ترك عليه طابعا على صورة رأس الاسد !

وبدا للمفسرين ان الحلم الثانى يجلو غمـــوض الاول ۰۰ واستطاع كبيرهم « اريستاندر » أن يستخلص من الحلمين نبوءة للعروسين : فقد كانت الصاعقة ترمز الى « زيوس » ، فكأنما الاله شاء أن يبارك الزواج الملكى ، بأن يودع جســم الملكة شيئا يقدر له أن ينمو وينتشر ويسيطر على الارض !۰۰ أما الخاتم ، فوراءه معنى أوسع نطاقا ، اذ أن المرء لا يغلق شيئا ويختمه الا اذا كان قد أودعه وديعة غالية ثمينة ۰۰ ومن ثم فقد كان حلم فيليب اشارة الى أنه أودع أحشاء عروسه خليفة له ، ستضفى الآلهة عليه صفات الاسود !

حية ۰۰ تخرج الملك من جنته !

◆ **وضاعفت** النبوءة من سعادة الزوجين ۰۰ ومضت بهما الحياة فى هدوء وترفق ، الى أن وقع حادث حمل فى أطوائه نذر الشقاق ۰۰ اذ دلف فيليب ذات ليلة الى مخدع «أوليمبيا» دون استئذان ، فاذا بها تحتفظ فيه بحية ضخمة مستأنسة ، تعاملها فى تبجيل ـ لما كان معروفا عن الحية من أنها رمز للاله « أمون » !

ووقف فيليب مشدوها ينظر الى الحية وهى تنساب فى أرجاء الغرفة ، بينما بدا على « أوليمبيا » الاستياء من أنـه قطع عليها خلوتها معها ٠٠ وكان الوثنيون يؤمنون بأن الآلهة قد تختار فى أحيان ـ نادرة ـ من بنات البشر زوجات تودعهن قبسا من قداستها ، فاذا بهن ينجبن أبناء ، أنصاف آلهة ! ٠٠ وكان من عادة الازواج الآدميين أن يفرحوا بهذه الظاهرة ، وبدلا من أن تثور غيرتهم كانوا يزدهون بالشرف الرفيع الذى آثرت به الآلهة نساءهم !٠٠ ولكن فيليب كان على العكس ، فبادر بايفاد صديقه الحميم « شايرون » الى سادن معبـد « دلفى » يستشيره ٠٠ وكان جواب الكاهن ان على فيليب أن يمجد « أمون » فوق كل الآلهة الاخرى ، وأن يتوقع أن يحيق به العقاب اذا ولج مخدع زوجته دون استئذان وهى فى خلوة مع الحية التى تقمصها الاله !

الصدمة تلقى به فى أحضان الخمر والنساء !

◆ **ومع** ان الاعتقاد الذى كان سائدا هو أن السادن لا ينطق عن هوى ، وانما هو ينطق بصوت الاله ، الا أن فيليب أبى أن يقتنع ، وعز عليه أن يصدق أن الجنين الذى كان فى أحشاء زوجته لم يكن ابنه !٠٠ وأثارت تمرده فكرة مشاطرة الاله له زوجته !٠٠ وبعثت التفاعلات النفسية فى أعماقه شـعورا بأن زوجته لم تكن امرأة من بنات البشر ، وانما هى مخلوقة غامضة يحف بها شر خفى ، فأصبح يتجنبها ، وان حرص كلاهما على أن يبدوا أمام الملأ على وئام وانسجام !

وكان تبدد سعادة الملك وهنائه بمثل هذه السرعة ، كافيا لان يدفع به الى أن يلقى بنفسه الى أحضان الخمر ٠٠ كما كانت نيران الشهوة المستعرة فى أعماقه كافية لان تجعلـه ينشد لها متنفسا لدى أية امرأة تصادفه ٠٠ وأثار هذا سخط « أوليمبيا » عليه ، وهى موزعة بين اغتباطها بايثار الاله لها ، وبين حنقها لهجران زوجها ٠٠

وهكذا استحالت حياتهما الخاصة الى جحيم ، حاول فيليب أخيرا أن يفر منه ، فهجر عرشه ليعيش مع جيشه ، ينشد فى خشونة المعسكر ، وتقشف الجندى ، تطهيرا لروحه من أوشاب فترة اليأس والتمرد التى جعلته يغرق فى الدنان وأحضان النساء ..

الطفل الذى نذره القدر للمجد !

◆ **وفى** اكتوبر من سنة ٣٥٦ قبل الميلاد ، تلقى الملك نبأ بأن زوجته وضعت ابنا ، سمى « الاسكندر » .. وهبط الطفل الى العالم وسط عاصفة هوجاء ، فرأت عيناه الدنيا لاول مرة على وميض البرق ، وتفتحت عيناه على قصف الرعود .. وقيل ان هذه الظروف تشير الى المجد الذى اختارته الآلهة للوليد !

وظل فيليب عامين لا يزور عاصمته وقصره الا لماما ، وأوليمبيا منصرفة عن الحياة كلها الى طفلها ، تغذوه بكل حنانها ، وتحبوه بجماع عواطفها ..

ولكن الزمن كان خليقا بأن يمسح السخائم عن القلبين الشابين .. وبعث طول البعاد فى أوليمبيا حنينا الى زوجها.. وبهره هو الآخر ما أضفاه نضوج الشباب عليها من بهاء وفتنة .. ومن ثم عادا الى سابق صفوهما ، وراحا يرتشفان معا كأس الهناء ..

وفى تلك الاثناء ، أنجبا طفلهما الثانى .. بنتا ، أطلقا عليها اسم « كليوباترا » ، فكان مولدها كفيلا بأن يمحو ما تبقى من أوشاب الشقاق السالف ، اذ لم يكن ثمة قبس قدسى فى هذه المرة ، ولا دخل بين فيليب وزوجته غريم من الآلهة !.. بيد أن الايام أثبتت أن هذا لم يكن سوى وهم لم يقدر له أن يسود طويلا ، فان الغيرة اذا سممت النفس يوما ، تغلغلت فى غور أعماقها وكمنت ، لتخرج بعد ذلك من أوكارها كلما جد نزاع أو شك .. ولو كان هذا الشك أو ذاك النزاع بعيدا عن كل شأن عاطفى ..

وأخذت السنون توسع الهـــوة بين أفراد الاسرة الملكية التعسة .. وقد وقف الاب فى جـــانب ، والام وولداها فى الجانب الآخر ..

الخلاف التقليدى على تربية الابناء !

◆ **وكانت** تربيـــة الاسكندر مصدرا جديدا من مصـــادر النزاع ، فلقد ودت الام أن ينشأ ابنها فى طاعة الآلهة ، فى حين أراده الاب أن ينشأ على غراره ، ايمانا منه بأن خير حيـــاة للرجل هى التى تجمع بين الصراع واللهو .. بين العسكرية والملذات ..

وكسبت أوليمبيا المعركة ، فنشأ الاسكندر طـــاهر القلب والروح ، نقى الجسد والعقل .. حتى اذا بلغ السابعـــة عشرة ، تبينت أمه بأن فوزها لم يكن مدعاة لاى زهو ، اذ أن التربية التى أرادتها لابنها لم تؤد الا الى ارهاف مشاعره ، والا الى أن يغدو ناعما ، مرفها ، لا يليق للمصير الذى تنبأ له به السحرة والفلكيون قبل مولده .. وحاولت الام أن توقـــظ رجولته ، فأحاطته بحسان فاتنات ، ولكن خطتهـــا لم تأت بنتيجة تذكر ، فقد ظل الاسكندر فى زهده الجنسى ، وان أعجبته الرياضة فأقبل على ممارستها ، فاذا بها تذكى فى أعماقه جذوة من الشجاعة والجرأة كانت كامنة تحت رماد النشـــأة التى أرادتها له أمه ..

وكان الملك فيليب قد بلغ اذ ذاك السادســـة والاربعين ، وظل محتفظا بقوة عضلاته وبأس نفسه ، رغم انه فقد فى الحرب عينا ، وأصيب بالعرج ..

وفى تلك السن وقع فى هوى « كليوباترا » ، ابنـــة أخت « أتالس » ، أحد قادة جيشه .. كانت على أعتاب الشباب ، ولكنها كانت تدرك مدى جمالها الخلاب .. وكانت شديدة الطموح ، فأبت أن تكون عشيقة للملك أو محظية ، وضنت

عليه بنفسها ما لم يتخذها زوجة ٠٠ فلم يحجم عن أن يطلق أوليمبيا !

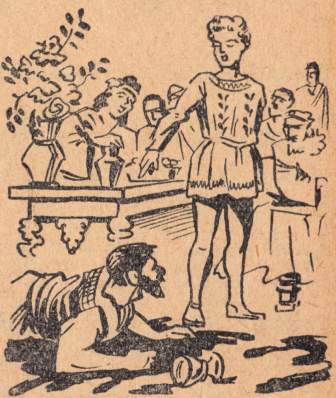
وازدادت الفتاة طمعا اذ نزل الملك عند أولى رغباتها، فأقدمت على خطوة أخرى : اذا كان الاسكندر ابن الاله « أمون » ، وليس ابن فيليب ، فلا حق له فى عرش الملك ٠٠ فما قصة « أمون » سوى ستار منتحل أرادت به أوليمبيا أن تتستر على خيانتها لزوجهـــا !

وصدق الملك المفتون وحى فاتنته ٠٠ وكانت الصدمة قاسية للاسكندر وأمه ، فراحا يكافحان ما وسعهما الكفاح ، ولكن الملك خذلهما ٠٠ وأبت أوليمبيا فى صراعها أن تبرح القصـــر حتى حانت ليلة زفاف فيليب الى عروسه الجديدة ٠٠

يلقى القفاز فى وجه الاسكندر !

◆ **وأجبر** الاسكندر على أن يحضر وليمة الزفاف ، فبذل مجهودا جبارا كى يسيطر على عواطفه ، ويكبح تمردها ٠٠ وعندما بدأت الخمر تلعب برؤوس معظم الحضـــور ، أوحى الخبث الى « أتالس » أن يدعو القوم الى أن يشربوا نخب الملك وملكته الجديدة ٠٠ وازدهاه الغرور ، فأضاف : « الآن يحق للملكة أن تأمل فى أن تحظى بولى عهد شرعى ! »

وتحطمت كل الحواجز التى أقامتها النشأة الدينيـــة فى نفس الاسكندر لتحول دون الغضب ٠٠ وتهاوت قبضته على أعصابه ، **فاذا به ينهض وقد غاضت الدماء من وجهـــه لفرط الانفعال ، وصاح : « أتريد أيها الوغد التعس أن تقول اننى ابن غير شرعى ؟ » ٠٠ ثم طوح فى وجـــه « اتالس » بكأس ذهبية مترعة بالخمر ٠٠ ودب الهـــرج ، وثار الصراع ٠٠** ووسط الموائد المقلوبة ، نهض فيليب مشهرا سيفه ، واندفع نحو ابنه ، ولكنه تعثر ووقع على الارض ،فأشار اليه الاسكندر فى اشمئزاز وهو قعيد وسط بركة من الخمر وقال: « ها هو ذا الرجل الذى يريد أن يضع احدى قدميه فى أول أوربا ، والقدم



الاخرى فى آخر آسيا ٠٠ انه لا يقوى على أن ينتقل من مائدة الى أخرى ! »

وعلى الرغم مما قرأه فى عينى أبيه من حقد أسود ، الا أنه لم يشأ أن يمضى فى العراك ، اذ انتبه الى أن الواجب يحدوه الى المبادرة أولا الى أن يكفل لأمه السلامة ، فبادر الى مغادرة القاعة ٠٠

وتحت أطواء الظلام - فى تلك الليلة - صحبها بمعونة بضعة أصدقاء مخلصين ، الى « ابيروس » ٠٠

الجريمة التى أنقذت المملكة !

◆ **وعندما** أنجبت الملكة « كليوباترا » ابنا ، ساد المملكة الخوف والقلق ، توجسا مما كان ينتظر أن يثار من نزاع بشأن وراثة العرش ٠٠ اذ كان مثل هذا النزاع كفيلا بأن يفضى الى حرب أهلية ٠٠

ولكن القدر كان قد رسم خطته ، فشاء أن يجنب البلاد ويلات الحرب الاهلية ، بأن أوعز الى فدائى يدعى «بارسانياس» بأن يغتال الملك أثناء احدى الحفلات العامة التى أقامها احتفالا بالوليد الجديد ٠٠

وهوى فيليب مضرجا بدمائه، وقد غاص خنجر «بارسانياس» فى قلبه حتى مقبضه !

وأسرعت « أوليمبيا » عائدة الى العاصمة ، فألفت ابنها غائبا عنها ، ولكن هذا لم يفت فى عضدها ، بل عمدت الى ازالة ما كان قد تبقى فى طريقها من عقبات ، واستولت على نواصى

الامور ، فغدت سيدة الموقف ٠٠ واذ ذاك ، أمرت «كليوباترا» بأن تقضى على نفسها بنفسها ، بدلا من أن تأمر باعدامها !

ورأت الحسناء الطامعة نفسها وحيدة ، عاجزة ، لا حول لها ولا نصير ، وقد تحطمت آمالها ، وذهبت أطماعهـا بددا ، وخارت قواها وهى بعد لم تفق من آثار الوضـع ، فشنقت نفسها ٠٠ وكانت هذه ذروة الوحشية التى بعثتها الغيرة فى نفس أوليمبيا ٠٠

أما الطفل الوليد ، فلم يقو أحد على أن يتقدم ليحميه أو يكفله ، بل حمل الى المعبد ، حيث أقيمت طقوس وحشـية رهيبة ، وأوقدت النار فى موقد ضخم أمام تمثال الاله امون ، ذى رأس الكبش ٠٠ **وأحاط بالنار المتوهجة حشد من الكهنة والكاهنات ، ينشدون مع أنغام الموسيقى الاناشيد التى كانت تسبق تقديم القرابين ٠٠ ثم أمسك كبير الكهنة بالطفل فرفعه على راحتيـه عاليا فوق رأسه لحظة ، ثم ٠٠ أفلته فهوى الى الاتون المتأجج !**



واكتمل ثأر الغيرة الهوجاء !

وأزاح « امون » عن طريـق « ابنه ! » ـ الاسكندر ـ كافة العقبات والعراقيل ، كى يحقق النبوءة التى سبقت مولده ٠٠ فينـدفع كاللهب ، ويتشعب ، ويتسع ، حتى يطبـق الآفاق ويسود العالم ٠٠ ثم يخبو ٠٠ وينطفىء !

كتب الأولون



كنوز الكتب القديمة

عزيزى القارىء ...

قرات معى فى الاعداد الماضية من كتابى ، من روائع الكتب القديمة ،هذه الكتب على التوالى :

« ديكاميرون » : بوكاشيو
« دون كيشوت » : سرفانتس
« الالياذة » : هوميروس
« اميل » : جان جاك روسو
« حى بن يقظان » : ابن طفيل
«روبنسن كروزو» : دانييل ديفو
« غرام الاخوين » : (كاتب فرعونى مجهول)
« يوتوبيا » : توماس مور
« الجمهورية » : افلاطون
« الكوميديا الالهية » : دانتى
« الاوديسة » : هوميروس
« العالم كما يسير » : فولتير
« غرام مشبوب » : لين يوتانج
« رباعيات عمر الخيام »
عفاف (كوزى سانكتا) : فولتير
رسالة الغفران : المعرى
« نظرية التطور » : داروين
« رأس المال » : كارل ماركس

وفيما يلى أقدم لك القسم الثانى والأخير من « العقد الاجتماعى » ، وهو الكتاب الذى أحدث اكبر هزة فى القرن الثامن عشر، وكان من اقوى الكتب التى مهدت لقيام الثورة الفرنسية


LE CONTRAT
SOCIAL
Par
JEAN JACQUES
ROUSSEAU
انجيل الحرية الخالد
العقد
الاجتماعى
لـ "جان جاك روسو"
" ولد الناس أحرارا .. ومع ذلك فإنهم
فى كل مكان يرسفون فى الأغلال!"
العبودية

الكتاب الذى ينبغى أن يهضمه كل مثقف

◆ قدمت لك فى العدد الماضى القسم الأول من آراء « روسو » فى أصل التفاوت وعدم المساواة بين البشر ، وهى الآراء التى مهد بها لنظريته الخالدة فى « العقد الاجتماعى » ، ثم عرضت لك فى ايجاز « الخطوط الرئيسية » لهذا الكتاب الذى هز الفكر العالمى فى أواخر القرن الثامن عشر وهيأ الأذهان لنشوب الثورة الفرنسية الكبرى ..

واليوم أقدم لك فيما يلى بالتفصيل صلب نظرية روسو فى العقد الاجتماعى

الكتاب الاول

هل يمكن أن يتخلى الانسان عن حريته ؟

◆ **ولد** الانسان حرا ، ومع ذلك فانه فى كل مكان يرسف فى الاغلال .. وان المرء ليظن نفسه سيد الآخرين ، لكنه برغم هذا قد يكون أكثر منهم عبودية .. فكيف يتأتى ذلك ؟

اذا نحن أدركنا أن ليس لامرىء سلطان طبيعى على أخيه الانسان ، كما ان القوة لا يمكن أن تخلق حقا ، لانتهينا الى أن السلطة الشرعية بين الناس انما تقوم على « اتفاقات » عقدت بينهم .. ذلك لان صاحب القوة العليا ــ أى الاقوى بين الناس ــ لا يمكن أن يؤتى من القوة ما يكفل له السيادة دائما ، اللهم الا اذا حول « القوة » الى « حق » ، وحول « الطاعة » الى « واجب » .. ولكن الخنوع للقوة حكم ضرورة وليس بالعمل الارادى ، فكيف يكون واجبا ؟.. اننا اذا سلمنا بوجود هذا الحق المزعوم ، وبأن القوة تخلق الحق ، لنتج عن ذلك أن تنتقل السيطرة على هذا الحق الى أية قوة تتفوق على القوة الاولى التى اغتصبته .. فأى « حق » هذا الذى يتلاشى بانهيار

قوة مدعيه ؟٠٠ ان مجرد القسر على الخضوع للقوة لا يحتاج الى أن نبرر هذا الخضـــوع بأنه « واجب » ٠٠ وما لم نكن مجبرين على الخضوع ، فليس ثمة « التزام » يضطرنا اليه ٠٠ ومن ثم فلا معنى لكلمة « الحق » مع « القوة » ، وبالتالى ، فالقوة لا تخلق حقا ٠٠

كذلك لا نستطيع أن نقر أى تنازل اختيارى عن الحرية ٠٠ والقول بأن من الناس من يهب نفسه للغير دون مقـــابل ، سخف غير معقول ٠٠ وحتى لو وجد الانســـان الذى يهب نفسه للغير ، فانه لا يملك أن يهب أبناءه ، لانهـــم يولدون أحرارا ، وحريتهم ملك لهم ، فليس لاحد حق التفريط فيها٠٠ بل اننا لو تصورنا ان الانسان قد ينزل عن حريته لسواه فى سبيل العيش ، فلأى شىء ينزل شعب عن حريتـــه لملك أو سلطان ؟٠٠ ان الملك أبعد من أن يمد رعاياه بالقوت والعيش ، لانه هو نفسه يستمد عيشه منهم !

ثم ان التخلى عن الحرية معناه تخلى الانسان عن أن يكون انسانا ، وتفريطه فى حقوق الانسانية ، بل وفى واجباتها ٠٠ ان كلمة « عبد » وكلمة « حق » متناقضتـــان بكل ما فى التناقض من معان ٠٠

لا بد من تعاون البشر فى سبيل البقاء

◆ **وعلى** هذا الضوء ، نرى ان الشعب قد يهب نفسه لملك (أى حاكم) ، ولكن هذا يتطلب أن يصبح « شعبا » أولا ، لان الهبة هنا عمل مدنى ، عمل سياسى اجتماعى ، ومن ثم ينبغى علينا أن نتأمل ـ قبل أن نبحث فى هذا ـ كيف يصبح الشعب شعبا ، لان هذه هى الخطوة التى لا بد منها قبل كل الخطوات ٠٠ اذ أنها أساس المجتمع ٠٠

اننى أتصور أن البشر فى تطورهم وصلوا الى نقطة كانت عندها العقبات التى تعترض طريق بقائهم أحياء آمنين ، أقوى من الموارد التى فى متناول كل فرد منهم للمحافظة على كيانه

وبقائه فى هذا الوضع ٠٠ ومن ثم كان الجنس البشرى مسوقا الى الهلاك ، ما لم يغير من طريقة وجوده ٠٠ وعلى هذا ، لم يكن أمام البشر سوى أن يوحدوا قواهم الموجودة ، حتى تقوى على مقاومة تلك العقبات ٠٠ ولكن ، اذا كانت قوة كل انسان وحريته هما عدته الوحيدة فى صون حياته ، فكيف يقيدهما دون أن يضر بمصلحته ؟

من هنا - أى من ضرورة التعاون بين الناس لمقاومة قوى الطبيعة - انبعثت الحاجة الى التعاهد أو التعاقد ٠٠ أو بعبارة أخرى ، الحاجة الى « البحث عن نوع من التشارك يحمى بكل قوى المشتركين فيه - مجتمعة - شخص وثروة كل عضو فيه ، ويذود عنهما ، بحيث يستطيع كل فرد - رغم اتحاده مع الجميع - أن يظل فيه حرا كما كان ، لا يطيع الا نفسه »

وهذه هى المشكلة الاساسية التى يهيىء « العقد الاجتماعى » حلها ٠٠

كيف تتألف الدولة ٠٠ والامة

◆ **ولو اننا** استبعدنا عن التعاقد الامور التى لا تمس جوهره ، لوجدناه يتلخص فى أن « يضع كل منا - عامة - شخصه وكل ما له من قوة ونفوذ ، تحت الاشراف الاعلى للارادة العامة ٠ كما اننا فى نطاق شركتنا ، نعتبر كل عضو جزءا لا يتجزأ من المجموع »

وهذا التشارك يخلق مباشرة هيئة معنوية جماعية - بدلا من الشخصية الفردية لكل عضو من المتعاقدين - تتألف من أعضاء بقدر ما فى الجماعة من أصوات ، وتستمد من التعاقد وحدتها وشخصيتها المشتركة وحياتها وارادتها ٠٠ وهذه الشخصية العامة التى تتكون باتحاد كافة الاشخاص الآخرين ، هى التى كانت تعرف من قبل باسم « الوطن » CITY ، وهى الكلمة الانجليزية التى حرفت فى العصور الحديثة فأصبحت تطلق على « المدينة » ، ونسى الناس أن المدينة تتألف من بيوت

ومبان ، فى حين أن الوطن يؤلفه « مواطنون » ٠٠ وكان هذا الالتباس سببا فى كثير من الاخطاء ٠٠

وهكذا ، كانت الشخصية العامة تعرف باسم « الوطن » ، وأصبحت تتخذ اسم « الجمهورية »، ويدعوها أعضاؤها «دولة» فى الاعتبارات السلبية ، و « أمة » صاحبة سيادة ـ أو بالاحرى « مصدر السلطات » ـ فى الاعتبارات الايجابية ٠٠ ويسمى المشتركون فيها ب « الشعب » ، وكثيرا ما يدعون « مواطنين » اذا ما ساهموا فى أعمال السيادة ، و « رعايا » بحكم خضوعهم لقوانين الدولة ٠٠

مما سبق نرى ان التشارك ـ أو تكوين الجماعة ـ يتضمن تعهدا متبادلا بين الشخصية العامة والافراد ٠٠ ولا ينطبق هنا ما هو معروف من أن الانسان لا يلتزم بما يصدر من تعهدات لنفسه ، اذ أن هناك فارقا كبيرا بين أن تتعهد لنفسك بالتزام ، وبين أن تتعهد بالتزام الى مجموع أنت جزء منه ٠٠

وما أن يتم توحيد الجمع أو القوم فى هيئة واحدة ، حتى يغدو من المستحيل الاعتداء على أحد أعضائها ، دون أن يكون فى ذلك اعتداء على الهيئة كلها ٠٠ بل ان من المستحيل أن يوجه اعتداء الى الهيئة دون أن يقاوم أعضاؤها هذا العدوان ٠٠

ما يفقده الانسان بالعقد الاجتماعى ، وما يربحه منه

◆ **ولكى** لا يكون التعاهد أو العقد الاجتماعى مجرد صيغة جوفاء ، فانه ينطوى ضمنا على التعهد الوحيد الذى يدعم بقية التعهدات ، ألا وهو ان كل من يرفض أن يطيع الارادة العامة ، فان الهيئة كلها تضطره الى الطاعة ٠٠ ولا معنى لهذا سوى انه يجبر قسرا على أن يكون حرا ، لان هذه هى الحالة التى تصون المواطن ـ اذا ما وهب نفسه لبلاده ـ من كل تواكل شخصى ، أو اعتماد على شخصه

ان الانسان يفقد بالعقد الاجتماعى حريته الطبيعية ، والحق المطلق غير المحدود فى أن يستولى على كل شىء يسعى للحصول

عليه ويظفر به بالفعل ·· لكنه يكسب فىمقابل ذلك حريةمدنية ـ أو بالاحرى سياسية واجتماعية ـ وحق ملكية كل ما يمتلك

وخليق بنا أن نضيف الى ما يحصل عليه الانسان من العقد الاجتماعى : الحرية الخلقية ، فهى الوحيدة التى تجعله حقا سيد نفسه ، لان فى مجرد تحرك النزوة عبودية ، فى حين أن اطاعة القانون الذى نضعه لانفسنا حرية !

وأختتم هذا الفصل بالاشارة الى حقيقة يجب أن يقوم عليها النظام الاجتماعى بأسره ·· تلك هى أنه بدلا من القضاء على عدم المساواة الطبيعي ، فان التوافق بين الناس يوفر لهم مساواة أدبية وشرعية تعوضهم عن الفوارق المادية أو الجسدية التى قد تفرضها الطبيعة عليهم ·· ومن ثم فان أولئك الذين قد لا يكونون سواء فى القوة أو الذكاء ، يصبحون متساوين بحق الاتفاق المتعارف عليه ، وبالحق القانونى ··

وهذه المساواة ـ تحت حكم الحكومات السيئة ـ تكون مجرد مظهر وهمى ، لا تؤدى الا الى بقاء المعوز فى فقره ، والغنى فى المركز الرفيع الذى ناله بالاستغلال ·· والواقع ان القوانين ـ فى هذه الحال ـ تستغل عادة لصالح من أوتوا النعم ، للاضرار بالمعدمين !

الكتاب الثانى

الشعب قد يخدع ·· لكنه لا يفسد !

◆ **وأول** وأهم نتيجة نستخلصها من المبادىء التىعرضناها فيما تقدم ، هى أن الارادة العامة وحدها تستطيع أن توجه الدولة الى الهدف الذى أنشئت من أجله ·· ألا وهو الصالح العام ·

والواقع انه اذا لم يكن من المستحيل أن تتفق ارادة الحاكم الخاصة مع الارادة العامة فى بعض النواحى ـ بمحض

المصادفة ـ فان من المستحيل فعلا أن يدوم هذا الاتفاق ويستمر ، لان الارادة الخاصة لا تلبث بفطرتها وطبيعتها أن تنحو نحو التحيز ، فى حين أن الارادة العامة تتجه الى المساواة ٠٠ ومن ثم فان الشعب أذا وعد بالطاعة ـ دون قيد ـ فانه بهذا العمل يفقد العامل الذى يجعله شعبا ٠٠ وفى اللحظة التى يوجد فيها « سيد » تتلاشى الامة ، صاحبة السيادة والسلطان !

وليست السيادة سوى ممارسة الارادة العامة ، ومن ثم فهى غير قابلة للتحويل ٠٠ فصاحب السيادة ـ أى الامة ـ لا يمكن أن يمثله أحد سوى نفسه ٠٠ وكما أن السيادة لا يمكن تحويلها ، كذلك هى ـ لنفس السبب ـ غير قابلة للتجزئة ٠٠ لان الارادة اما أن تكون عامة ، أو لا تكون عامة ٠٠ أى أنها اما أن تكون ارادة الشعب ، أو ارادة جزء منه ٠٠ ففى الحالة الاولى فقط تكون الارادة ـ اذا ما أعلنت ـ عملا من أعمال السيادة ، فتكون قانونا ٠٠ أما فى الحالة الثانية ، فلا تكون سوى ارادة خاصة ، أو عمل من أعمال الحكم ٠٠ أى لا تعدو أن تكون مرسوما ٠٠

ويترتب على هذا أن الارادة العامة تكون دائما صوابا ، وتتجه الى المصلحة العامة ٠٠ ولكن لا يستتبع ذلك ان «قرارات» الشعب تكون دائما على نفس القدر من الصواب ٠٠ فان ارادتنا تتجه دائما لصالحنا ، ولكنا قد لا نعرف أين يكمن هذا الصالح ٠٠ والشعب لا يمكن قط أن يفسد ، وانما هو قد يخدع أحيانا ، وفى هذه الاحيان فقط يتجه بقراراته الى ما هو سيء أو خطأ ٠٠

واجب الفرد نحو الدولة

◆ **وكثيرا** ما يكون ثمة فارق كبير بين ارادة المجموع والارادة العامة ٠٠ فهذه لا ترعى غير الصالح العام ، فى حين أن الاولى (وهى نتاج ارادة ممثلى المجموع أو البرلمان) تدخل

فى حسابها الصالح الخاص ، ولا تعدو أن تكون مجموعة من الارادات الخاصة المعينة !

وكما ان الطبيعة تمنح الانسان سلطة مطلقة على جميع أعضاء جسمه ، فان العقد الاجتماعى يمنح الامة سلطة مطلقة على أعضائها هى الاخرى ، وهذه السلطة هى التى تحمل اسم السيادة .. فكل انسان ينزل بمقتضى العقد الاجتماعى عن الجزء الذى يهم المجتمع أن يسيطر عليه ، من قواه وممتلكاته وحريته .. غير انه لا بد أيضا من الاقرار بأن الامة أو السلطان هو الحكم الاوحد الذى يعين هذا الجزء الضرورى .. ومن ثم فكل خدمة يستطيع المواطن أن يؤديها للدولة ، ينبغى أن يبادر بأدائها بمجرد أن يطلب اليه السلطان ذلك .. بيد أن الامة (أو السلطان) لا يمكن أن تفرض على رعاياها أية قيود لا نفع منها للمجتمع ، بل وليس لها مجرد التطلع الى ذلك ، اذ أن حكم العقل – وديدن الطبيعة – يقضى بأن الشىء لا يمكن أن يحدث دون سبب ..

من هذا نرى أن السلطان لا يستطيع أن يتخطى حدود الاتفاقات المتعارف عليها ، رغم ما له من سلطة مطلقة وقداسة ومناعة .. وانه لا يملك قط أى حق فى أن يفرض على أحد الرعايا من الالتزامات أكثر مما يفرض على سواه ، اذ أن الوضع يصبح فى هذه الحالة خاصا ، ومن ثم لا يعود فى نطاق الاتفاقات المتعاهد عليها ..

عندما تطالب الدولة الفرد .. بالموت !

◆ **والهدف** الاخير للمعاهدة الاجتماعية – أو العقد الاجتماعى – هو صيانة بقاء المتعاهدين .. والراغب فى الغاية لا بد له من أن ينتهج الوسيلة ، وقد تنطوى الوسيلة على بعض المخاطر ، بل وبعض الخسائر .. **فالراغب فى صون حياته على حساب الآخرين يجب – اذا دعت الضرورة – أن يكون مستعدا لان يجود بها فى سبيلهم .. وفوق ذلك ، فان المواطن لا يعود**



هو الحكم الذى يعين المخاطر التى يريده القانون على أن يتعرض لها ، فاذا قال الحاكم : « من الضرورى لمصلحة الدولة أن تموت » ، وجب أن يموت، لانه لم يعش فى أمان حتى هذه اللحظة الا على هذا الشرط وحده ، ولان حياته لم تعد مجرد نعمة من الطبيعة ، وانما هى منحة كفلتها له الدولة على هذا الشرط !

وعلى هذا الضوء يمكن أن ننظر الى عقوبة الاعدام التى تفرض على المجرمين ، فنحن لا نقر أن يفرض علينا الموت اذا صرنا قتلة، الا لكى لا نقع فرائس لاى قاتل ..

أضف الى هذا ، أن كل شرير يغدو باعتدائه على الحقوق الاجتماعية متمردا وخائنا لبلاده ، وهو بانتهاكه قوانينها يفقد عضويته لها ، بل انه يغدو محاربا لها ، وفى هذه الحالة لا يعود بقاء الدولة متمشيا مع بقائه ، فلا بد لاحدهما من الهلاك .. ومن ثم فنحن حين نعدم المذنب انما نعدم « عدوا » لا « مواطنا » !

والى جانب هذا يحسن أن نذكر أن كثرة العقاب تكون دائما نذيرا بضعف أو تراخى الحكومة ، فليس ثمة مسىء يعز تحويله الى محسن . ومن ثم فليس من حق الدولة أن تعدم أى شخص ـ ولو على سبيل العبرة ـ اذا كان فى وسعها أن تبقى على حياته دون ما خطر ..

وحق العفو عن المذنب واعفائه من عقوبة فرضها القانون وطبقها عليه القاضى ، فى يد السلطة التى تعلو القاضى والقانون

ـ أى السلطان ـ فهو وحده الذى يملك ذلك ٠٠ بل ان حقه فى هذا لا يزال غير واضح ، فالعقوبات تقل فى الدولة التى تحكم حكما صالحا ، لا نتيجة لكثرة العفو ، وانما نتيجة لندرة المجرمين !

القانون ينظر الى المبدأ ٠٠ لا الافراد !

◆ **ولقد** وهبنا الدولة ـ بالعقد الاجتماعى ـ وجودها وحياتها ، وآن لنا الآن أن نتيح لها بالتشريع الحركة والارادة .. اذ أن العمل الأصلى الذى نشأت بمقتضاه وتوحدت ، لا يزال أبعد من أن يعين ما ينبغى عليها أن تفعله فى سبيل بقائها ..

ان كل خير ، وكل طيب يتمشى مع النظام ، انما يكتسب صفته هذه من طبيعة الامور لا من الاتفاقات البشرية .. فكل عدل يستمد من الله ، فهو المورد الاوحد .. **ولكنا لو عرفنا كيف نتلقى مثل هذا الوحى أو الالهام السامى لما كانت بنا حاجة الى حكومة أو قوانين .. ولا مراء فى أن ثمة عدالة عامة شاملة ، تنبعث من العقل وحده ، ولكن لابد للاعتراف بها من أن تكون متبادلة .. والواقع أن غياب الضمانات الطبيعية يجعل قوانين العدالة غير مجدية بين البشر ، لانها تستغل لصالح الخبيث ولايقاع الظلم اذا ما التزمها المرء نحو الناس ولم يلتزمها أحد نحوه !** .. واذن فالاتفاقات والعرف والقانون لازمة لربط الحقوق بالواجبات ولرد العدالة الى غرضها وهدفها .. ففى حالة الفطرة الطبيعية ، حيث يكون كل شىء مشاعا للجميع ، لا ألتزم بشىء ازاء من لم أعده بشىء .. ولا أعترف بحق الآخرين فى تملك شىء الا اذ كنت لا أرى فيه نفعا لى .. أما فى المجتمع ، فكل الحقوق يحددها القانون ، وبهذا يختلف الوضع ..

ولكن ماهو القانون ؟

عندما يقرر جميع الشعب أمرا للشعب كله ، فانه فى هذه الحال لا يراعى الا نفسه ، أى أن العلاقة هنا تكون بين طرفى شىء واحد .. فان الشعب فى هذه الحالة يقرر لنفسه حقا ويلزم نفسه بواجب ، دون ما تفرقة .. وهنا يكون ما قرره : قانونا !

فهدف القانون وموضوعه عام ، أى أن القانون ينظر الى المجموع كتلة واحدة ، فلا ينصب على شخص معين أو تصرف معين بالذات .. وبالتالى، القانون قد يقرر امتيازات ، ولكنه لا يقصرها على أى فرد معين . وهو قد يقيم عدة طبقات بين المواطنين ، بل انه قد يعين المؤهلات اللازمة لعضوية هذه

الطبقات ، ولكنه لا يستطيع أن يحدد أو أن يعين فلانا وعلانا لكل طبقة .. وهو قد يقيم حكما ملكيا ونظاما للوراثة ، ولكنه لا يستطيع أن يؤثر بالاختيار ملكا معينا أو أسرة ملكية معينة ..

وبالايجاز ليس من السلطة التشريعية فى شىء أى عمل يهدف الى غاية معينة الذات ..

ومن هذا كله أخلص الى اطلاق اسم « الجمهورية » على كل دولة تحكم بالقوانين .. لأن الحكم هنا – فقط – يكون للرأى العام وللصالح العام ..

والقوانين الجيدة فى شعب ما ليست هى الطيبة فى حد ذاتها ، وانما هى التى أحسن وضعها بحيث تلائم هذا الشعب بالذات .. وكم من أمة عظيمة عجزت عن احتمال القوانين الجيدة ، لانها لا تلائمها .. وحتى تلك التى احتملتها لم تستطع أن تمضى فى احتمالها الا لفترات قصيرة جدا من تاريخها الطويل .. ومعظم الشعوب – كمعظم الناس – لا تكون لينة لطيفة الا فى شبابها ، فهى اذا كبرت عز اصلاحها وتقويمها ، ولم تعد تحتمل أن يرشدها أحد الى أخطائها لتعالجها .. وهنا قد لا يبقى مفر من أن تتعرض الدولة لأحد خطرين : الثورة ، من الداخل .. أو الحرب ، من الخارج ! والثورات النافعة نادرة ، فى حكم الاستثناء ، وسببها دائما ما يوجد من عيوب فى الدستور الخاص بالدولة التى تقع فيها .. بل انها لا تحدث مرتين لشعب واحد ، لأن الحافز المدنى حين يفقد قوته ، تعجز الثورات عن اصلاحه ، وفى هذه الحالة لابد للشعب من سيد ، لا محرر .. ومن ثم فخليق بالشعوب الحرة أن تضع نصب عينيها دائما أن « الحرية قد يمكن كسبها ، ولكنها اذا فقدت عز استردادها ! »

كلما اتسعت الدولة .. ضعفت !

◆ **وكما** أن الطبيعة فرضت حدودا متعارفا عليها لكيان وبنيان الانسان الحسن التكوين ، فاذا تجاوزها لم يعد سوى عملاق أو قزم ، **فكذلك تركيب الدولة وتكوينها يكون خير ما ينبغى ان يكون ، اذا تيسر أن لا تكون حدودها أكبر من أن يتسنى حكمها حكما طيبا ، أو أصغر من أن تكفى لشعبها أو تصون نفسها بنفسها . فلكل دولة قوة قصوى لا تستطيع أن تتجاوزها ، بل انها تفقدها اذا اتسعت رقعتها ، اذ أن كل امتداد للرابطة الاجتماعية يؤدى الى ارتخائها .. ومن ثم يمكن القول – على وجه العموم – ان الدولة الصغيرة أقوى نسبيا من الكبيرة !**

ولو بحثنا أعظم الخير كله – وهو ما يجب أن يكون هدف كل نظام تشريعى – لوجدناه يتلخص فى غايتين رئيسيتن : الحرية والمساواة .. وخليق

بنا أن نفهم من المساواة انها لا تعنى التعادل المطلق فى درجات النفوذ والقوة والثراء بين كافة الناس ، ولكنها تعنى أن القوة لن تبلغ الدرجة التى تمكنها من أن تستحيل الى عنف ، وانها ستمارس فى حدود المكانة الاجتماعية والقانون .. وان أى انسان لن يؤتى من الثروة ما يمكنه من أن يشترى سواه ، ولن يبلغ من الفقر الى الدرجة التى تضطره الى أن يبيع نفسه !

ذلك لانه اذا كان استقرار الدولة ودوامها هما الهدف ، فلابد من التقريب بين الطرفين ، فلا يكون هناك غنى ولا يكون هناك معوز .. لان التطرف فى أى الجانبين يعرض الصالح العام للخطر المهلك .. فالافراط فى الثراء يخلق أنصار الطغيان والجور ، والافراط فى الفقر يولد طغاة باطشين .. وطالما وجد الطرفان فان الحرية العامة تغدو سلعة تدور حولها المساومة : أحدهما يملك أن يشتريها ، والآخر مستعد لأن يبيعها !

الكتاب الثالث

أشكال الحكومات

◆ **تحتاج** القوة العامة ـ أو قوة الشعب ـ الى وسيط من الشعب ذاته ، يؤلف بينها ويحركها تحت توجيه الارادة العامة لتكون وسيلة اتصال بين الدولة والسلطان أو الحاكم .. ومن هنا نشأت الحكومة ، لتكون مساعدة للسلطان ، ومستشارة ، أو وزيرة ! .. فالحكومة هى الهيئة الوسيط بين الرعايا والسلطان ، تضمن تبادل الاتصال بينهما ، وتنفذ القانون ، وتصون الحرية المدنية والحرية السياسية ..

والشعب حين يضع نفسه تحت امرة الحاكم ، لا يكون ذلك منه بمثابة تعاقد ، وانما يكون انتدابا ، أو استخداما ، يمارس الحكام بمقتضاه السلطة التى يعهد بها الشعب اليهم ، كموظفين لديه وعاملين باسمه .. ويبقى فى استطاعته أن يحد من هذه السلطة أو يعدلها ، أو يستردها ، وفق هواه ..

وأنواع الحكم ثلاثة :

فقد يعهد به الشعب الى هيئة كبيرة متشعبة ، ومن ثم يزداد عدد المواطنين الذين يصبحون موظفين أكثر منهم مجرد أفراد يعملون لمصلحتهم الخاصة .. وهذا النوع من الحكم يسمى : الديمقراطية ..

أو قد يقصر الحكم على عدد صغير ، فيكون ثمة مواطنين أكثر من الموظفين المتولين الحكم ، وهذا ما يسمى « الارستقراطية »

وأخيرا ، قد تركز الحكومة كلها فى يدى موظف واحد ، يستمد الباقون منه السلطة . وهذا النوع الثالث هو الأكثر شيوعا ، ويسمى « الملكية » أو « الحكم الملكى »

ولو التزمنا حرفية هذا التقسيم ، لوجدنا انه لم تقم يوما - ولن تقوم - ديموقراطية حقيقية .. فمما يناقض طبيعة الأمور أن تكون الكثرة حاكمة والقلة محكومة ، اذ ليس من المعقول أن يظل الناس مجتمعين باستمرار ، مخصصين أوقاتهم للشئون العامة .. ومن الجلى انهم لا يمكن أن ينيبوا عنهم مندوبين دون أن يتغير شكل الحكم !

ثم ، كم من شروط تتطلبها حكومة كهذه ، ويعز جمعها معا ؟ .. انها أولا تتطلب دولة صغيرة جدا ، يمكن جمع أهلها بسهولة وسرعة ، ويتسنى لكل مواطن فيها أن يعرف الآخرين جميعا . وهى ثانيا تتطلب تسهيلا عظيما فى طرق الحكم ، لمنع تراكم الاعمال وتضاعفها ونشوء المشكلات الشائكة .. كما تتطلب قدرا كبيرا من المساواة فى المكانة الاجتماعية والثروة حتى يتسنى قيام المساواة فى الحقوق والنفوذ .. **كذلك تتطلب - أخيرا - الحد من الترف الى أقصى درجة ، أو محوه ، لأن الترف اما أن ينشأ عن وجود أثرياء ، أو يؤدى الى وجودهم ، ومن ثم يفسد الترف الغنى والفقير على السواء .. يفسد الغنى بحكم التملك ، فالترف لا يلبث أن يتملك صاحبه .. ويفسد الفقير اذ يثير فى نفسه الحسد والبغضاء .. وهو يسلم الدولة للنعومة والغرور ، ويسلبها مواطنيها ليجعل بعضهم عبيدا لبعض ..**

الحكم الديمقراطى يصلح للآلهة .. لا للبشر !

◆ **ويمكن** أن نضيف الى هذا أن ليس بين الحكومات نوع عرضة للحروب الأهلية والاضطرابات ، مثل الحكومة الديموقراطية أو الشعبية ، اذ انه ليس بين الأنواع نوع يتجه بشدة واستمرار الى التغير والتحول مثله ، وليس بينها أيضا نوع يتطلب أكثر مما تتطلبه الديموقراطية من يقظة وشجاعة ..

ومن ثم فالحكم الديموقراطى الحقيقى الصحيح لا يتسنى الا اذا كان الشعب من الآلهة .. فهو ليس للبشر !

أما الارستقراطية ، فعلى ثلاثة أنواع : طبيعية ، وانتخابية ، ووراثية .. ويصلح النوع الأول للشعوب الساذجة فقط ، فى حين أن الثالث هو أسوأ أنواع الحكم جميعا .. أما النوع الثانى فهو خيرها ، وهو أحقها باسم الارستقراطية . وينحصر الحكم فيه فى نفر قليل يتبوءونه بالانتخاب . وبهذه الوسيلة تغدو الاستقامة ، وحسن الادراك ، والخبرة ، وكل الصفات التى تبرز صاحبها وتكسبه تقدير الجمهور ضمانات تكفل صلاحية الحكومة ..

وبالاختصار فان خير الأمور وأقربها الى الطبيعة ، هو أن يتولى أعقل

أفراد الشعب حكم الكثرة ، اذا توفرت الأسباب التى تؤكد انهم سيسيرون بالحكم لصالح الشعب ، وليس لصالحهم الخاص . ولا داعى لتضخيم جهاز الحكم ، وحشد عشرين ألف فرد كى يؤدوا ما يستطيع مائة مختارون من الصفوة أن يكونوا أفضل اداء له وأتقن ..

الملوك لا يقنعون بحب الشعب !

◆ **وليس** بين ألوان الحكم ما هو أقوى من اللون الذى تتجمع فيه السلطة فى يدى الحاكم .. ولا ما يتاح فيه لارادة واحدة معينة أن تسيطر على قدر أكبر مما تسيطر عليه فى هذا النوع .. اذ تجرى كل الأمور نحو غاية واحدة ، لا يتحتم أن تكون السعادة العامة .. فان الملوك يرغبون فى السلطان المطلق ، فى حين أن الناس يهيبون بهم من أقصى الآفاق وأقدم العهود بأن خير سبيل الى ذلك هو أن يتحببوا الى شعوبهم .. وهذا صحيح ولكنه لسوء الحظ ينبذ دائما فى بلاط الملوك .. اذ لا مراء فى أن السلطة التى تنشأ عن حب الشعب هى أقوى السلطات ، ولكنها تكون غير ثابتة ولا مطلقة ، ومن ثم لا يقنع بها الحكام قط !

ومن ناحية أخرى، اذا كان من المتعذر على دولة كبيرة أن تحظى بحكم صالح، فان من الاكثر تعذرا أن يتأتى هذا الحكم على يدى ملك فرد .. **ومن أسباب النقص التى تجعل الحكم الملكى -فى الوقت ذاته - أقل شأنا من الحكم الجمهورى ، أن صوت الشعب قلما يرفع الى أعلا المناصب - فى الجمهورية - من لا يكونون مثقفين ولا مقتدرين .. أما فى الملكية ، فكثيرا ما يكون الذين يصلون الى القمة ، مجرد محتالين ، ومخادعين ، ودساسين ، ترفعهم مواهبهم الدنيئة الى أرقى مناصب البلاط ، ثم لا يلبث أن يتكشف قصورهم وانحطاطهم واضحين للجمهور ..**

ولقد قضى على التيجان أن تورث فى أسرات معينة ، ووضعت نظم لتوارث الحكم ، تفاديا لنشوب النزاع عند موت الملوك .. وهذا معناه أن النـــاس اذ قبلوا تعيين الحاكم بالوراثة بدلا من الانتخاب ، آثروا الطمأنينة الظاهرية على الادارة الحكيمة ، وفضلوا أن يتعرضوا لأن يحكمهم أطفال أو طغاة أو مأفونون على أن يتنازعوا ويختلفوا على اختيار الملوك الصالحين !

وتتآمر كل العوامل على أن تنتزع من الشخص الذى يتولى السلطة على الآخرين ، الشعور بالعدل والحجى .. وكم من عناء قيل لنا انه يبذل لتعليم الامراء الصغار فنون الحكم ، ولكن تعليمهم لا يجديهم على ما يظهر ، ومن ثم فقد يكون من الأفضل أن يكون « فن الطاعة » هو أول ما يتعلمون .. واذا أيقنا من أن التربية الملكية تفسد من يتلقونها ، فأى أمل يرجى من

سلالة من الرجال ينشأون على هذه التربية ؟ .. اذن ، فمن خداع النفس أن نخلط بين الحكم الملكى - المفروض فيه السوء - والحكم الذى يقيمه ملك « صالح » بمحض المصادفة ! ولكى ندرس الحكم الملكى على حقيقته ، يجب أن نتأمله حين يتولاه أمراء مستبدون أو اشرار طالحون - وهى الحـالة الغالبة - اذ أن من لا يكون منهم مستبدا أو طالحا بطبعه ، لا يلبث العرش أن يجعله كذلك !

الحرية ليست فى متناول كل الشعوب !

◆ **وليست** الحرية بالثمرة التى يمكن أن تنمو فى جميع الأجـواء ، ومن ثم فهى ليست فى متناول جميع الشعوب .. وكلما تأملنا هذا المبدأ - الذى وضعه مونتسكيو - ازددنا شعورا بصحته وصدقه .. وكلما ناقشناه انفسحت الفرص للعثور على أدلة جديدة لاثباته ..

والحق أننا كلما فكرنا ، وجدنا أن الفارق بين الدولة الحرة والدولة الملكية يتمثل فى أن كل شىء فى الأولى يستغل للصالح العام ، فى حين أن القوى العامة وقوى الافراد - فى الدولة الثانية - تتبادلان التأثير ، فتستفحل احداهما كلما ضعفت الأخرى .. ثم ان الحكم الفردي يزيد الناس تعاسة - بدلا من أن يزيدهم سعادة - حتى يتسنى له أن يحكمهم ، ويتحكم فيهم !

ومن ثم ، نرى فى كل جو أسبابا طبيعية يمكن على هديها تعيين نوع الحكم الذى يستلزمه البلد ، بل ونستطيع أن نتعرف منها على نوع سكان هذا البلد !

ولما كانت الارادة الخاصة تعمل باستمرار ضد الارادة العامة ، لذلك فان الحكومة تسعى باستمرار ضد الأمة .. وبما انه لا توجد ارادة أخرى تعمل على تحقيق التوازن - فى هذه الحال - عن طريق مقاومة ارادة الحاكم ، فان هذا لا يلبث أن يجد نفسه مسوقا ، ان عاجلا أو آجلا ، الى أن يكبت ارادة الأمة ويطمسها ، فيخرق بذلك المعاهدة ، أو العقد الاجتماعى .. وهذا هو النقص الذى لا مفر منه ولا مخلص ، والذى يعمل منذ مولد الدولة على القضاء عليها ، كما تعمل الشيخوخة والموت على القضاء على جسم الانسان !

حكم الفوضى .. وحكم الطغيان

◆ **ولانهيار** نظام الحكم طريقـان : أن ينكمش ويتقلص ، أو أن تتفكك الدولة وتنحل ..

وتتقلص الحكومة عندما يتسلل زمامها من أيدى الكثرة الى أيدى القلة ، أى من الديموقراطية الى الارستقراطية ، ومن الاستقراطية الى الملـكية .. وهذا ما يسوقها اليه استعدادها الطبيعى ..

أما عندما « تتفكك » الدولة ، فان سوء الحكم ، كيفما كان ، يسمى « فوضى » .. وزيادة فى دقة التمييز ، نقول ان الديموقراطية تتحلل الى « حكم الصعاليك »، فى حين أن الارستقراطية تنحدر الى « حكم الاعيان » ، كما ان الملكية تنحط الى « الطغيان » .. غير أن هذه الكلمة الأخيرة مبهمة تحتاج الى شرح .. ففى الاستعمال الدارج ، يكون الملك طاغيــة اذا حكم بعنف ودون مراعاة للعدالة والقانون .. أما فى الاســتعمال الصحيح ، فالطاغية هو الفرد الذى يستأثر لنفسه بالسلطة الملكية دون ما حق له فى ذلك .. ومن ثم فالطاغية والانتهازى مترادفان لمعنى واحد ..

هذا هو الاتجاه الطبيعى الذى لا مناص منه لاكثر نظم الحكم توطدا .. واذا كانت اسبارطه وروما قد تلاشتا ، فأية دولة ترجو لنفسها بقاء ؟

فالدولة كالجسد الآدمى ، الذى يبدأ فى الموت بمجرد مولده ، ويحمل فى كيانه أسباب فنائه .. بيد أن كلا منهما يتفاوت مدى بقائه بقدر ما يكون عليه بنيانه من متانة أو ضعف . وبنيان الانسان من صنع الطبيعة ، فى حين أن بنيان الدولة من نتاج الصنعة .. واذا لم يكن فى طوق الناس أن يطيلوا أعمارهم ، فان فى أيديهم أن يطيلوا عمر الدولة بقــدر المستطاع ، وذلك بتهيئة خير بنيان ممكن لها .. وصحيح أن خير الدول بنيانا لابد أن تصير الى نهاية ، الا أن نهايتها تتأخر عن نهاية سواها ، مالم يتسبب حادث غير متوقع فى انهيارها قبل حينها ..

قلب الدولة .. وعقلها !

◆ **واذا** كانت السلطة التشريعية هى قلب الدولة، فان السلطة التنفيذية هى عقلها الذى يسير أو يحرك جميع أجزائها .. ولقد يصاب العقل بالشلل ومع ذلك يظل الفرد على قيد الحياة ـ اذ قد يظل الفرد غبيا أو معتوها مع بقائه حيا ـ أما اذا كف القلب عن أداء وظائفه ، فان المخلوق يموت ..

ولما كان الحاكم لا يملك من سلطة سوى السلطة التنفيذية ، لذلك فهو لا يعمل الا عن طريق القوانين . ولما كانت القــوانين لا تسرى الا اذا صدرت عن الارادة العامة ، لذلك لا سبيل للحاكم الى العمل اللهم الا اذا اجتمع الشعب كله ، وأعرب عن ارادته .. (ولو رجعنا الى تاريخ روما ، لوجدنا أن أهلها كانوا يجتمعون كثيرا عن بكرة أبيهم ـ بحيث لم تكن تمضى أسابيع قلائل دون أن يعقدوا اجتماعا ـ فلم يكن الشعب يقتصر على ممارسة حقوق السيادة ، بل كان يضطلع أيضا ببعض أعباء الحكومة ، كالفصل فى بعض القضايا والمسائل)

ولا يكفى للشعب الذى يجتمع على هذه الصورة أن يقيم بنيان الدولة بالتصديق على مجموعة من القوانين ، واقامة حكومة دائمة ، أو اختيــار

الموظفين الذين يتولون الحكم .. لا يكفى هذا ، اذ قد تجد ظروف أخرى تستدعى اجتماع الشعب ، ومن ثم كان لابد للأمة من أن تنظم اجتماعات دورية فى فترات محددة لا يمكن ارجاؤها ولا الغاؤها .. وكلما كانت الحكومة قوية ازدادت اجتماعات صاحب السيادة .. الشعب

وقد يصلح هذا بالنسبة للدولة المؤلفة من بلدة أو مدينة واحدة ، ولكن .. كيف يكون الأمر بالنسبة للدولة المؤلفة من مدن عديدة ؟ هل تقسم سلطة السيادة بين المدن ، أم تركز فى مدينة واحدة تصبح بقية المدن من رعاياها ؟

لا هذا ، ولا ذاك .. فالسيادة لا تجزأ ، والا كان فى ذلك القضاء عليها .. كما أن أية مدينة لا يمكن أن تغدو تابعة لمدينة أخرى ، لأن روح الدولة هى التوفيق بين الطاعة والحرية فى المدينة كما فى الفرد .. والواقع أنه اذا لم يكن بد من أن تتألف الدولة من عدة مدن ، فلا ينبغى أن تؤثر احدى هذه المدن بأن تكون العاصمة وقاعدة الحكم ، بل يجب أن يتنقل مقر الحكومة من مدينة الى أخرى ، وأن يتنقل مكان اجتماع الشعب من اقليم الى اقليم ..

وفى اللحظة التى يجتمع فيها الشعب اجتماعا قانونيا صحيحا بوصفه صاحب السيادة ، تتلاشى السلطة الشرعية للحكومة ، وتعطل السلطة التنفيذية ، ويغدو شخص أقل المواطنين مكانة ، فى حصانة وقداسة شخص رئيس الوزراء ، اذ لا وجود للمندوبين فى حضور من انتدبوهم .. ومن ثم كان الامراء والحكام يهابون اجتماعات الشعب ، ولا يألون جهدا فى صرف المواطنين عن عقدها .. فاذا كان المواطنون جشعين ، جبناء ، ضعاف النفوس ، أكثر حبا للراحة منهم للحرية ، لم يطل بهم الصمود أمام جهود الحكومة ، فلا تلبث سلطتهم أن تتلاشى وتنهار قبل أوانها ..

نشأة المجالس النيابية والجمعيات الوطنية

◆ **ولكن** ثمة سلطة تقوم فى بعض الأحيان وسيطا بين الأمة والحكومة الجائرة .. وذلك لأنه بمجرد أن تكف الخدمة العامة عن أن تكون الشاغل الأهم والأول للمواطنين ، بحيث يتحولون الى المساهمة فى الخدمة بأموالهم بدلا من أشخاصهم ، فان الدولة لا تغدو بعيدة عن الانهيار .. **لأنك تراهم عندئذ - اذا غدت الحرب لازمة - يدفعون أجور الجند ويتخلفون فى دورهم .. واذا دعت الضرورة الى أن يجتمعوا ، يرشحون نوابا يمثلونهم ، ويمكثون هم فى بيوتهم ! .. ولا يلبثون بالتقاعد والمال ، أن يمكنوا للجنود من أن يستعبدوا البلد ، وللنواب من أن يبيعوها !**

وقد أدى فتور الوطنية ، والانصراف الى المصلحة الخاصة ، واتساع الدول ، والغزو ، وسوء الحكم ، الى انتهاج أسلوب انابة مندوبين أو ممثلين للشعب فى الجمعيات الوطنية ، التى آثر الناس فى بعض الدول أن يلقبوها بـ « السلطة الثالثة » .. وهكذا جعلوا الصالح الخاص للسلطتين الأخريين ـ الملك والحكومة ـ فى المقدمة ، والصالح العام فى المرتبة الثالثة !

والواقع أن السيادة لا يمكن أن توكل الى مندوب ، لنفس السبب الذى لا يمكن لأجله أن تجزأ .. فهى فى صميمها تتمثل فى الارادة العامة ، ومن ثم لا تقر الانابة .. ولهذا فان نواب الشعب ليسوا ، ولا يمكن أن يكونوا ، ممثليه ، وانما هم وكلاؤه الذين لا يملكون أن يقطعوا بقرارات حاسمه باتة .. فكل قانون لا يقره أو يصدق عليه الشعب بنفسه وشخصه ، يكون باطلا .. وفى اللحظة التى يسمح الشعب فيها لنفسه بأن يكون ممثلا . بمندوبين ينوبون عنه ، لا يغدو حرا ، بل لا يكون له وجود !

الوزراء خدام الشعب ، لا سادته !

◆ **واذا** ما تم توطيد السلطة التشريعية على الأسس الصحيحة ، فان الخطوة التالية تكون انشاء سلطة تنفيذية على نفس النمط .. وقد كان المعتقد أن هذا العمل عقد بين الشعب والحكام الذين يقيمهم على نفسه .. ولكن الواقع أن ليس ثمة فى الدولة سوى عقد واحد ، هو عقد التشارك ـ العقد الاجتماعى ـ الذى يلغى وجود أى عقد ثان .. أما نظام الحكومة فليس بعقد ، وانما هو قانون .. **فأولئك الذين يعهد اليهم بتصريف السلطة التنفيذية ليسوا سادة الشعب ، وانما هم مستخدموه . يستطيع أن يرفعهم ، ويستطيع أن يخفضهم عندما يشاء .. فالمسألة بالنسبة لهم ليست مسألة عقد ، وانما مسألة طاعة ، وهم حين يقبلون الاضطلاع بالوظائف التى تكلها اليهم الدولة ، ليسوا سوى مؤدين لواجبهم كمواطنين ، دون أن يكون لهم أقل حق فى أن يناقشوا شروط المهمة ..**

لذلك فعندما يقيم الشعب نظام حكم وراثى ، سواء كان هذا النظام ملكيا محصورا فى أسرة واحدة ، أو أرستقراطيا مقصورا على طبقة واحدة ، فانه لا يكون ملتزما بالتزام ، وانما هو يختار شكلا مؤقتا لتصريف شئونه ، يبقى الى أن يختار شكلا آخر غيره ..

وليس فى الدولة قانون أساسى لا يمكن نسخه أو نقضه ، ولو كان العقد الاجتماعى ذاته .. لأنه اذا أجمع المواطنون ـ مجتمعين ـ على فسخ العقد ، فمن المستحيل أن يرتاب أحد فى أنه يصبح مفسوخا شرعا وقانونا ..

الكتاب الرابع

العقد الاجتماعى لا بد أن يصدر عن اجماع

◆ **وعندما** تكون الدولة على شفا الانهيار ، لم يتبق منها سوى شبح أو هيكل ، وعندما تصبح الرابطة الاجتماعية مفسوخة فى قرارة كل قلب ، وتنتحل أوضع المصالح لنفسها ذلك الاسم القدسى : « الصالح العام » ، فان الارادة العامة تغدو بكماء .. ولكن هذا لا يعنى انها تلفت أوماتت ، فهى - على العكس - دائمة ، نقيـــة ، لا تتغير ولا تتبدل ، وكل ما فى الأمر انها أصبحت خاضعة لارادات أخرى اعتدت عليها .. ومن ثم فكلمـا ساد اجتماعات الشعب اتفاق الكلمة ، بحيث يقترب رأى الاعضـاء من الاجماع ، كانت سيادة الارادة العامة أعظم وأقوى ..

وليس هناك سوى قانون واحد يتطلب بطبيعته اجماعا تاما : ذلك هو العقد الاجتماعى .. لأنه أجدر الارتباطات بأن يصدر عن طواعية واختيار ، اذ أن كل انسان ولد حرا وسيدا لنفسه ، وليس لأحد أن يزعم - مهما كان - أن بوسعه أن يجعل أي انسان تابعا له دون موافقته !

وعلى ذلك ، فلو وجد معارضون عند ابرام العقد الاجتماعى ، فان معارضتهم لا تبطل العقد ، وانما هى تحول دون عضويتهم للجماعة وحسب ، فيكونون أغرابا بين المواطنين .. حتى اذا استقرت الدولة ، ترتب على بقائهم فيها موافقة ضمنية على العقد الاجتماعى ، اذ أن الاقامة فى أراضى الدولة تتضمن خضوعا للسيادة ..

وفيما عدا هذا العقد البدائى ، فان صوت « الأغلبية » - لا الاجماع - يكفى لالزام الباقين دائما . وينشأ هذا عن العقد نفسه .. فعندما يعرض مشروع قانون على الشعب مجتمعا ، فان الشعب لا يكون مطالبا بأن يذكر ما اذا كان يقر هذا المشروع أو يرفضه ، وانما بأن يقرر ما اذا كان المشروع يتفق والارادة العامة ، التى هى ارادته .. وكل انسان يعرب عن رأيه حين يصوت ، وتستبين الارادة العامة باحصاء الاصوات . فاذا تغلب الرأى المخالف لرأيى - مثلا - كان هذا دليلا على اننى كنت مخطئا ، لا أكثر ولا أقل ، وان ما رأيته لم يكن من الارادة العامة فى شىء ..

الديمقراطية تقتضى انتخاب الحاكم بالاقتراع !

◆ **وهناك** طريقتان لانتخاب الحاكم والوزراء ، هما : الاختيـــار ، والاقتـــراع .. ويرى مونتسكيو أن الانتخـــاب بالاقتراع ديموقراطى فى طبيعته ، وأنا أوافقه فى هذا ، ولكن .. كيف ؟ .. انه يرى أن الاقتراع



اختيار لا ينطوى على ظلم لأحد ويتيح لكل مواطن قدرا معقولا من الأمل فى أن يخدم بلاده .. ولست أعتبر هذه أسبابا ..

لكننا اذا وضعنا نصب أعيننا أن انتخاب الحكام هو من أعمال الحكم وليس من أعمال السيادة ، استطعنا أن نرى السر فى أن الاقتراع طريقة ديموقراطية بطبيعتها : ففى الدولة الديموقراطية حقا تكون الوزارة - أو تولى الحكم - عبئا ، لا امتيازا أو نفعا .. عبئا ليس من العدالة القاؤه على فرد دون آخر ، وانما القانون وحده هو الذى يلقيه على عاتق الشخص الذى يقع عليه الاقتراع ، ومن ثم فان تساوى جميع الأفراد فى الظروف وقت الاقتراع ، وعدم توقف الاختيار هنا على أية ارادة بشرية ، يبدد وجود أى قصد يغير من شمول القانون للجميع .. أى يبدد وجود أى تمييز بين الأفراد ..

وليس للاقتراع سوى مساوىء ضئيلة فى الدولة الديموقراطية الحقة ، حيث تكون المساواة تامة فى كل شىء : فى الأخلاق والمواهب والمبادىء والثروات ، مما لا يجعل ثمة فارق بين أى فرد وآخر .. ولكننى قلت من قبل أن وجود ديموقراطية حقة ، ضرب من الاحلام ..

وعندما يجمع نظام الدولة بين الاختيار والاقتراع ، فان المناصب التى تتطلب مواهب خاصة ، كالمناصب العسكرية ، يجب أن تملأ بالاختيار لا بالاقتراع

على أنه لا مجال للاقتراع أو للاختيار فى نظام الحكم الملكى ، اذ يكون العاهل هو الأمير الأوحد والحاكم الأوحد ، ومن ثم فاختيار مساعديه حق له وحده .. ومجرد تغيير هذا الوضع ، يغير نظام الحكم ..

وكما أن القانون مظهر للارادة العامة ، فان الرقابة على الحكومة والقائمين بالحكم ، مظهر لرأى الشعب فيهم .. والهيئة التى تتولى هذه الرقابة ، لا تقرر رأى الشعب ، وانما هى تعلنه فقط .. ولكن لا قيمة للرقابة اذا فقدت القوانين قوتها ، وضعفت السلطة المشرعة ..

الدين .. وعلاقته بالدولة

◆ وينقسم الدين من حيث علاقته بالمجتمع الى نوعين : عقيدة الفرد ، وديانة المواطن . فالأولى لا معابد لها ولا طقوس ، وانما هى تقتصر على ايمان الفرد - فى أعماق نفسه - بالله ، وتقيده بالالتزامات الاخلاقية الخالدة ، فهى العبادة الحقة ، والدين الصحيح ، أو ما يمكن أن نسميه بالحق أو القانون الطبيعى المقدس .. أما الثانية ، فتتمثل وتنصب على الوطن : تمنحه آلهته ، وسنته وطقوسه ، ويبين القانون مراسمها وعباداتها ..

وهناك دين الانسان ، المسيحية - لا مسيحية اليوم ، بل مسيحية الانجيل ، التى هى جد مختلفة ! - وبمقتضى هذه الديانة السماوية السامية يعتبر الانسان جميع البشر أخوة له ، بصفتهم جميعا أبناء اله واحد ، كما يعتبر أن المجتمع الذى يوحد بينهم لا يمكن أن يتحلل أو ينتهى ولو بالموت..

ولكن هذا الدين لا يرتبط بالدولة بأى رباط معين ، ومن ثم فهو يدع القوانين بكل ما تنطوى عليه من قوة ونفوذ فلا يضيف اليهما شيئا ، وهكذا تظل احدى الروابط الكبرى التى توحد المجتمع معطلة عن العمل .. لا ، بل انها تعمـــل ، ولكنها بدلا من أن تربط قلـــوب المواطنين الى الدولة ، تجذب هذه القلوب بعيدا عن الأمور الدنيوية ، وهو ما ينـاقض الروح الاجتماعية كل المناقضة ..

فالمسيحية ، كدين ، روحانية صرفة ، لا تعنى بغير السماويات . ووطن المسيحى ليس فى هذا العالم .. انه يؤدى واجبه ، بلا مراء ، لكنه يؤديه بشعور عميق من عدم المبالاة بنجاحه أو فشله فى بلوغ أهدافه .. فما دام هو لم يفعل ما يلوم نفسه عليه ، فلن يهمه أن تسير الأمور الى نجاح أو فشل على هذه الأرض . ان المسيحية تعظ بالعبودية والاتكال ، وروحهـــا تلائم الطغيان الى درجة كبيرة ، لأن المسيحيين الحقيقيين قد أعدوا ودربوا على احتمال العبودية ، دون كبير مبالاة ، بحكم عدم مبالاتهم بكل ما يجرى خلال حياتهم القصيرة على الارض ..

ولكن .. لنعد ثانية الى تعريف الحق والمبادىء المترتبة عليه . ان الحق الذى يخوله العقد الاجتماعى لصاحب السيادة على الرعايا ، لا يتجاوز - كما رأينا - حدود الضرورة العامة .. ولقد صدق مركيز دارجنسون اذ قال : « ان كل انسان فى الجمهورية حر تمام الحرية فى أن يفعل كل ما لا يوقع الضرر بالغير » .. وهذا هو الحد الذى لا يمكن تعيينه بأدق مما ذكر دارجنسون .

وعلى هذا فالرعايا لا يسألون أمام الحاكم عن آرائهم ، اللهم الا فيما يقتصر على الآراء التى تهم الجماعة .. ومن الأمور ذات الأهمية الكبرى للجماعة أن يكون لكل مواطن دين ، لأن هذا يحمله على أن يحب واجبه . ولكن تعاليم هذا الدين لا تهم الدولة وأعضاءها الا فيما يتعلق منها بالآداب والأخلاق وبالواجبات نحو الغير . وفوق هذا ، فان لكل انسان أن يرى ما شاء له من آراء ، دون أن يكون للحاكم صاحب السيادة حق الاطلاع عليها .. لأنه طالما أن الحاكم لن يكون له أى سلطان فى العالم الآخر ، فليس من شأنه مثوبة رعاياه أو عقابهم فى ذلك العالم ، ماداموا فى هذه الحياة مواطنين صالحين ..

ومن هذا نرى أن هناك دينا « اجتماعيا » يحدد صاحب السيادة تعاليمه ـ لا كمبادىء أو عقائد دينية ـ وانما كأحاسيس وعواطف اجتماعية ، لا يمكن للمرء بدونها أن يكون مواطنا صالحا ، أو رعية مخلصا .. وبينما هذه التعاليم لا تقسر أحدا على الايمان بها ، فانها تقصى عن الدولة كل من لا يؤمن بها ، لا ككافر زنديق ، ولكن كعدو للمجتمع ، عاجز عن أن يخلص فى حب القوانين والعدالة ، وعن أن يضحى ـ عند الحاجة ـ بحياته فى سبيل واجبه ..

فلتطرد الدولة من ينادى بالتعصب الدينى

◆ وخليق بمبادىء وتعاليم العقيدة الاجتماعية أن تكون قليلة ، بسيطة ، دقيقة فى بيانها ولفظها دون ما شرح ولا تعليق . فتكون الايجابية منها مقصورة على الايمان بوجود اله قادر ، عليم ، رحيم ، بعيد النظر ، حكيم .. وبوجود حياة أخرى .. وبالسعادة التى تترتب على العدل والانصاف . وبعقاب الآثم الشرير .. وبقداسة العقد الاجتماعى والقوانين ..

أما التعاليم والمبادىء السلبية ، فانى أقصرها على واحد ، ألا وهو : التسامح ! .. فما دام لم يعد ثمة دين واحد لأية أمة ، وجب أن نتسامح مع جميع الأديان التى تتسامح مع سواها ، طالما أن تعاليمهـــا ومبادئهـا لا تتضمن ما يعارض واجبات المواطن نحو وطنه ..

أما الذى يجرؤ على المناداة بالتعصب الدينى ، فجدير بأن يطرد من الدولة بلا رحمة !

حوافز الحياة



النفس والجنس .. والمجتمع ..

عزيزى القارىء ...

فى هذا الباب قدمت لك فى الاعداد الماضية من كتابى ، الكتب الاتية على التوالى : « كيف تصارح اولادك وبناتك بالحقائق الجنسية » ثم « طريق السعادة الزوجية » و ((مركب النقص)) و ((حواء الجديدة » ثم « كيف تقهر الخجل »و«كيف تقهر القلق وتستمتع بالحياة » ..

ثم قدمت لك بعد ذلك من « فنون الحياة » التى شرحها المفكر العالمى «اندريه موروا » : فن الحب ، فن الزواج ، فن الحياة العائلية ، فن الصداقة ، فن العمل ، فن الزعامة ، فن السعادة ، فن التفكير ، واخيرا فن الاستمتاع بالشيخوخة ..

ثم قدمت لك عقب ذلك سلسلة فصول كتاب ((غزو السعادة)) لبرتراند رسل .. فكتاب فرويد المشهور ((التحليل النفسى)) ، يليه ((كيف تضاعف من نجاحك فى الحياة)) ، ثم ((الجنس الاخر)) ، و((عش حياة ايجابية)) ، و((ابواب الحب المغلقة)) ، و((فن الحب))، للشاعر الرومانى أوفيد .. ثم ((الانتصار على الخوف)) ، للاخصائى المعروف ((جميس بندر)) .. و ((عش بحكمة تعش سليما)) للاخصائى الالمانى ((برنارد ديتمار))

واليوم اقدم لك هذا الكتاب النافع فى كيفية المحافظة على سلامة الاعصاب

هذا الكتاب ..

- هل تستيقظ من نومك متعبا ، مضعضع الجسم ؟
- هل تعانى آلاما فى الرأس ، وكأنما فيها مطارق تهوى بدون اشفاق ؟
- هل تشعر كثيرا بالقلق ؟
- هل أعصابك ثائرة ، وهل تشعر بالهياج سريعا ؟
- هل تجد عناء فى تركيز افكارك ؟
- هل تعانى الارق والسهاد ؟
- هل تضيق بحياتك المنزلية ؟
- هل تشكو من العزلة الاجتماعية ؟

هذه كلها عوارض تنذر باضطراب الاعصاب وضعفها .. وفى هذا الكتاب ، يعالج عالم نفسى خبير هذه الأعـراض ، ويبين لك كيف تستطيع ان تعنى بجهازك العصبى .. دون كثير جهد او عناء !

مقـــدمة

انني افكر – اذ اؤلف هذا الكتاب – فى اولئك الآلاف الذين يفشلون فى الفوز بأطايب الحياة ، بسبب « الاعصاب » ، وما هم بضعاف الأعصاب ولا بمختليها .. وانما كل ما هنالك انهم يعانون فى بعض الاحيان نوبات تجعلهم يضيقون بالحياة ، ثم لا يلبث الضيق ان ينجـاب .. وقد تنقضى اسابيع عديدة دون ان يعاودهم

ومن الجلى ان ثمة آلافا يمضون بطريقة ما فى الحياة ، يوما بعد يوم ، بجهـاز عصبى شبه مستهلك .. ولولا ذلك ما استطاع منتجـو الأدوية والمستحضرات المغذية التى تعد لسد افتقار الجسم الى بعض المـواد ، ان يحصلوا على دخل يمكنهم من الانفاق بسخاء على الاعلانات التى يدعون فيها لمنتجاتهم !

ولو انك قرأت هذه الاعلانات ، او سمعتها تذاع ، لخطرت لك بعض الأعراض التى افكر فيها : الشعور بالتعب عند الاستيقاظ ، والقفز لأنفه صوت مفاجىء ، والعجز عن تركيز الذهن ، والسهاد بالليل ، والهموم ، والقلق الدائم والشكوك والهواجس ، والشعور بالانزعاج وتوتر الاعصاب

من جراء الجو العائلى والاطفال ، والبعد رويدا عن الحياة الاجتماعية ، والاحساس بافتقاد الاطمئنان الى السلامة .. كل هذه ، وعشرات غيرها ، اعراض تنبئك الاعلانات فى صراحة بأنها نتيجة الاعصاب الضعيفة او المكدودة المنهوكة ..

ويذهب بعض المعلنين الى انبائك بأن اعصابك ضعيفة ، وان ضعفها يرجع الى فقر الدم ، أو نقص الحديد فى الجسم ، وغير ذلك من ألوان النقص والضعف .. وقد يكون الامر كذلك ، ولكن هذا ليس بالوضع الحقيقى للمسألة ، وانما هى تتمثل فى : « أيهما السبب ، وايهما النتيجة ؟ .. ضعف الاعصاب أو ضعف الجسم وافتقاره ؟ »

وكثير من الأدوية والمستحضرات المغذية تحدث اثرا طيبا اذا ما اشتد الضعف والخور بالانسان ، اى عند الاحتياج الى اسعاف سريع ، ولكن : أليس من الافضل ان نتفادى هذا الاحتياج بالاعتدال وبعد النظر ؟ .. اننى اتبين ذلك كلما وجدت بى حاجة الى اسعاف ، فاننى لا اعتبر هذه الأدوية والمستحضرات اكثر من مواد مسكنة ، مخففة ، لا تكون ذات اثر «انشائى» الا فى حالات نادرة . والواقع اننا لا نمرض الا حين نخرج على قوانين الطبيعة .. والطبيعة وحدها هى القادرة على ان ترد الينا صحتنا ! **ولكنا لا نتجه الى الطبيعة حين نشعر بالضعف ، والخور ، وتوتر الاعصاب او انهيارها ، وانما نكتفى بأن نبتلع بعض المستحضرات المغذية او نجرع بعض الادوية المقوية .. فنخفف بذلك من حدة الأعراض التى تصيح بنا منبهة ايانا بأن نعدل منهجنا فى الحياة . اى اننا لا نعمد الى عمل انشائى ، اصلاحى ، يكون له اثر دائم ..**

اننى اعرف ان ضغط الحياة كثيرا ما يكون شديدا فى عصرنا هذا ، ولكن هذا جدير بأن يحملنا على ان نعد أنفسنا قدر الامكان لتحمل هذا الضغط .. وانى لواثق ان ليس بين الأحياء من لا يستطيع ان يحسن صحته ، وكفاءته ، ومقدرته ، وسيطرته على اعصابه ، والقوة الكامنة فى نفسه ، وذلك بمراعاة بعض قواعد بسيطة ، باستمرار وانتظام .. وسأحاول هنا ان ابين هذه القواعد وخير طرق تطبيقها ، ولست اعد بشفاء سريع ، فان الطبيعة بطيئة ، ولكنها مؤكدة ومضمونة ..

انك فى حاجة الى الصحة البدنية والاتزان العقلى ، وكثير من النشاط والتفاؤل ، والهدوء فى الحياة عامة .. انى لأعرف انك بحاجة الى هذه الاشياء ، وأؤكد لك ان بوسعك ان تنالها ، ولكنك لن تنالها بمجرد التمنى ، بل لا بد لك من ان تعمل لنيلها بصبر ودأب ..

ان عملية تحسين النفس وتقويتها ، رياضة عظيمة ومسلية .. ولو انك شرعت فى ذلك من الآن ، فلن تنقضى ستة شهور حتى تتبين انك أحسنت

الى نفسك .. فليس في الحياة فن اعظم من فن التوفيق فى الحياة .. ولا فوز اعظم من التغلب على نواحى الضعف والنقص التى تحد من نشاطك ..

١ ــ العناية العامة بالاعصاب

◆ **ويكفينا** هنا ان نعرف ان الاعصاب هى الجهاز الذى يصل بين المخ والجسد ، وكثيرا ما تشبه بشكة متداخلة من أسلاك البرق (التلغراف) ، تنقل الرسائل من المخ الى الجسد أحيانا ، ومن الجسد الى المخ فى احيان أخرى . ومن الممكن ان نقول ان الاعصاب تكون سليمة اذا ما كان الجسم سليما موفور الصحة.. ومن الصحيح ان هناك حالات تصاب فيها الاعصاب بأمراض ، الا ان هذه حالات قليلة اذا قيست بسواها .. فاذا قيل لك ان « اعصابك » ليست على ما يرام ، فليس معنى هذا ان الشبكة مصابة بتلف، بل انه يعنى ان الجهاز الذى يديرها مختل ، بيد ان اسلاكه ــ اى الاعصاب ــ سليمة ، متصلة ..

على ان ندرة اصابة الاعصاب بالامراض لا يجب ان تنسينا انها انسجة حية ، فهى تحتاج الى تغذية ، والى ان تعمل وان تستريح مع بقية انسجة الجسم الحية . وهى لا تستمد غذاءها الا من الدم فقط .. وهذه حقيقة تحتاج الى بعض الايضاح لتفهمها حق فهمها :

يعتمد الدم فى تكوينه على عاملين رئيسيين : حال الاعضاء المشتركة فى انتاجه وتنقيته .. ونوع وكمية الغذاء الذى يستهلكه الجسم ..

ففى حالة نقص التغذية تجوع الاعصاب ، وفى حالة الافراط فى التغذية تهتاج الاعصاب وتتسمم .. وفى حالة سوء التغذية تفتقر الاعصاب الى بعض عناصر لا غنى لها عنها كى تؤدى مهمتها حق الأداء

وكثيرا ما نقرأ ونسمع ــ فى هذه الايام ــ عن علم الأغذية ، وأهمية الفيتامينات والاملاح المعدنية .. والواقع ان الغذاء العادى للطبقات الوسطى يجمع كافة الاملاح المعدنية والفيتامينات بكميات كافية ، واذا كان ثمة تعديل أنصح به ، فهو الاكثار من الخضر والفواكه الطازجة .. اذ يجب ان تكون الفواكه والخضر ــ غير المطبوخة ــ جزءا من الغذاء بانتظام ، لا بين وقت وآخر ، او وفقا للمزاج !

وكثرة العبث بنظام التغذية الذى اعتاده المرء ، كفيلة بأن تهدد الصحة ، وان كانت التعديلات البسيطة لا تضر .. وقد نضطر فى بعض الحالات ــ وبمشورة الطبيب ــ الى اجراء تغييرات جوهرية .. على ان الاسراف والتطرف فى تعديل نظام التغذية يؤدى احيانا الى زعزعة الصحة ــ ان لم يؤد الى الموت ــ وزعزعة الصحة تزعزع بدورها الجهاز العصبى ..

الاعتدال .. الاعتدال !

◆ **والذى** يحدث فى الغالب ، يتلخص فى ان الحالة الصحية للبعض قد تدعو الى تحذيرهم من بعض اصناف من الأغذية ، كاللحم والسكر ، فيبادرون الى تجنبها تماما ، مع ان هذا التطرف فى التجنب ، مضر كالتطرف فى الاقبال .. واذا كان لا بد من الاقلال من اللحوم مثلا ، وجب تعويض ذلك بزيادة ما يتناوله الانسان من المواد « البروتينية » فى اصناف اخرى من الأغذية ، كالجبن والبيض واللبن والبندق ، والا نقصت كمية « البروتينات » فى غذاء المرء ، مما يؤثر على جهازه العصبى ..

كذلك الامر بالنسبة للسكر ، فهو من اكثر المواد انتاجا للطاقة الحرارية ، فيجب تعويض النقص - اذا اضطررنا لذلك - بزيادة ما نتناوله من الاغذية التى يتوفر فيها السكر الطبيعى ، كالبلح والفواكه المشابهة ..

والى جانب الضرر الصحى الذى يتأتى من الافراط أو التقتير فى الاغذية، يجب الا نهمل الاثر النفسى : فالاقبال على الطعام بشهية ، مدعاة للاقبال على الحياة بشهية ايضا .. وليس معنى ذلك الافراط فى الاكل حتى التخمة ، وانما معناه عدم الحرمان من المتع التى يستطيبها الانسان فى مختلف مراحل العمر ، طالما كان حريصا على ان لا يسىء استغلال جهازه الهضمى ..

اقول هذا لأننى خبرت بنفسى الاثر النفسى الذى يحدثه الاسراف فى الحرمان من بعض اصناف الطعام ، اذ اننى كنت لا ألبث ان ارتد بعده الى الاسراف ، سواء فى الكميات أو فى التنويع ..

فقدان الشهية

◆ **واذا** كنا لا نجد قابلية لالتهام الغذاء العادى ولا لهضمه ، فمن الخير ان نبادر الى البحث عن السبب : فلعلنا لا نمارس القدر الكافى من الرياضة ، أو من الهواء الطلق ، او من الراحة .. وقد تشعر بتحسن موقوت لو خفضنا من كمية الطعام العادي او غيرناه تغييرا جوهريا ، كما يحدث لبعض الناس اذا صاموا عن الطعام او عن بعض اصنافه ، ولكن المضى على هذا النسق وقتا طويلا لا يؤدى الى خير ، ومن ثم فخليق بنا ان لا نلجأ اليه الا كاجراء لاراحة المعدة فترة قصيرة ..

ان الجهاز الهضمى يعتمد فى اداء وظيفته - اكثر ما يعتمد - على حركاته العضلية .. فاذا لحقه ضعف ، وجب ان نسعى لتحسين الجهاز العضلى والصحة البدنية عامة ، بدلا من ان نعمل على تخفيف عمل المعدة بالاقلال من الطعام . **ونلاحظ ان المسألة تجرى هنا فى حلقة مفرغة .. فان ضعف الصحة يغرى على الاقلال من الطعام ، فيؤدى هذا بدوره الى زيادة الضعف،**

وهكذا تستمر الدائرة ، حتى يصاب جهازك الهضمى بضعف يجعله شبه عاجز عن العمل ، فلا تظفر بطاقة تكفى للعمل واللعب .. ومن ثم تجد نفسك مسوقا الى ان تكون فريسة .. للأعصاب !

ولو انك فتشت معظم الاعراض « العصبية » الى اعمق اغوارها ، لوجدت « الاعياء » قاسما مشتركا فيها .. فهو السوط « السرى » الحديث المسلط على البشر .. وأصفه بأنه «سرى» لاننا كثيرا ما نعمى عن تبين الدور الذى يقوم به فى ارهاق اعصابنا ..

لقد شبهنا الجهاز العصبى من قبل بأنه كالشبكة البرقية.. وهذه الشبكة البرقية البشرية تعمل فى العصر الحديث فوق طاقتها ، وتتعرض لضغط شديد من الصباح حتى المساء ، فما لم نمدها بكفايتها من العناصر الغذائية الحيوية ، جاعت ودب فيها الخور .. ولا سبيل لهذا الامداد الا خلال تغذيتنا ..

طعامنا فيه الكفاية من الحديد

◆ لقد عرف الخبز بأنه « سند الحياة » ، واللبن بأنه غذاء كامل واف .. ففى حياة البداوة الموفورة النعم يستطيع المرء ان يعيش حياة صحية سليمة على هذين الطعامين ، دون ما زيادة اللهم الا قليلا من الزبد ..

ولكن حياتنا اليوم ليست حياة بداوة ، وليست موفورة الخيرات ، ولو اقتصرنا على هذين الصنفين من الغذاء ، فان الجوع لا يلبث ان يدب الى اعصابنا .. لأن الخبز واللبن لا يحتويان الا على قدر ضئيل من الحديد ، وهو مادة لا غنى عنها لتقوية الاعصاب ، ونجدها فى اللحم الاحمر - وخاصة لحم البقر - وفى الكبد ، والكلى ، والبيض .. كما ان الخضر الطازجة والفواكه تحتوى عليه .. ومن ثم فانك تجد ان اصناف الغذاء العادية تشتمل على كمية كافية من الحديد .. ففى بيض الفطور حديد ، وفى لحم وفواكه وخضر الغداء حديد ، وفى حساء ولحم وفواكه العشاء حديد ..

ولست أعتزم ان أخوض فى تفصيلات نظم التغذية ، بل يكفى ان تراعى النقاط التى ألخصها فيما يلى :

- اذا لم تستطع ان تتناول القدر الذى اعتدت من الطعام ، فهذا انذار بأن جهازك الهضمى فى غير حاله العادية ..

- ومن السهل ان ترده الى حاله الطبيعية ، ما لم يكن ثمة مرض حقيقى ..

- ولن يكون جهازك العصبى قويا ومتينا حتى تعيد الجهاز الهضمى الى طبيعته .. بشىء من التمرينات :

تمرينات سهلة ولكنها مهمة ..

◆ **والمشى** العادى من أجدى التمرينات لتقوية عضلات المعدة ، وكذلك ركوب الدراجات .. ففى كل خطوة ، وفى كل دفعة لبدال الدراجة تنشط هذه العضلات وتقوى ..

ومن ابسط التدريبات لهذه الغاية ، ان تستلقى على الارض - على ظهرك - وترفع ساقيك ببطء حتى يصبحا رأسيين على جسدك . ولو انك وضعت راحتيك على بطنك أثناء هذه الحركة ، لشعرت بما يجرى لعضلات المعدة .

كذلك للتنفس العميق فائدة عظمى ، لأن لضغط الحجاب الحاجز اثرا على المعدة يشبه اثر التدليك .. فضلا عن أن التنفس العميق يهدىء الاعصاب، وينقى الدم

ولقد استطعت بهذه التمرينات ان اصلح الهضم عندى ، وفى وسع كل انسان ان يوفق حيث وفقت ، لو اوتى الرغبة فى ان يصلح جهازه العصبى عامة .. على اننى لاحظت ان الكثيرين لا تتوفر عندهم هذه الرغبة ، بل يودون ان يواتيهم الشفاء وهم مضطجعون فى مقاعدهم .. مع ان الاضطجاع في المقاعد حليف لسوء الهضم

والى جانب تحقيق تغذية الاعصاب عن طريق استهلاك وامتصاص غذاء متنوع الاصناف ، يجب ان نراعى مسألة اخرى هى مسألة تنقية الدم .. **والرياضة مهمة هنا ايضا ، لأنها تزيد من كمية الاوكسيجين الذى تتلقاه الرئتان ، وتمنع خمول المعدة .. وتدليك البشرة بضع دقائق كل يوم يجرى اكثر مما يخطر ببال معظم الناس . كما انه من المستحسن تناول كمية كافية من السوائل - لا سيما الماء - لضمان غسل الكليتين ، فهما عضوان هامان فى عملية تنقية الدم ..**

هذه كلها مسائل بسيطة ، ولكن جريان الدم فى الجسم ، وسلامة الجهاز العصبى ، يتوقفان على مراعاتها .. ولا يمكن الاستعاضة عنها بتناول الاقراص والمساحيق والادوية !

تعلم كيف تستريح

◆ **وهناك** مسألتان لا بد منهما للعناية بصحة الاعصاب : اولاهما ، العمل على امدادها باستمرار بالدم الغزير ، النقى .. وثانيهما ، تفادى تعريضها لضغط شديد باستمرار .. وبتعبير آخر ، أتح لاعصابك بعض الراحة من آن الى آخر ، فلو تحقق هذا لانفسحت لك فرصة كبيرة للصمود للتوتر والسرعة اللذين يطبعان الحياة فى عصرنا .. اما اذا اهملت احدى

المسألتين فأنك تعرقل سعيك لضمان صحة اعصابك .. ولسوف نرى فيما بعد ان كثيرا من الاضطرابات العقلية تؤثر على احدى هاتين المسألتين ، وتتأثر بها ، فنسير فى حلقة مفرغة : الاضطراب العقلى يقف عقبة فى طريق صحة الجهاز العصبى .. وهذا بدوره يسهل ازعاج العقل واضطرابه ..

وهكذا نجد ميدان « الاعصاب » مليئا بالدوائر المفرغة التى لا يسهل كسرها ، ومع ذلك فلا بد من كسرها والا تعذر الشفاء ..

انى من المؤمنين بضرورة الراحة بالاسترخاء واطلاق الاعصاب من توترها - ويكفى لبيان اهمية ذلك ان اذكر ان من اهم الفوائد الحيوية لهذه الراحة ، انها تنعش الاعصاب وترد اليها نشاطها .. فان كافة اجهزة الجسم الانسانى تركن الى الهدوء اثناء الراحة ، فيكف العقل عن تركيز جهوده ، ويسترخى الجهاز العضلى ، ومن ثم لا يعود للجهاز الذى يربط بين الاثنين - وهو الاعصاب - أى عمل ، فتستريح وتستجم استعدادا لمزيد من النشاط

وكلما امعنت فى تأمل العمليات التى تحدث فعلا اثناء الراحة ، ازددت ادراكا لقيمة الراحة والاستجمام : اننى احاول كلما ركنت الى الراحة التامة أن اتصور ما يحدث لى ، فأحس بلذة التحرر من الجهد والارهاق العقلى .. واستمرىء المتعة المترتبة على استرخاء الاعضاء والعضلات .. وأنتشى بانطلاق الدورة الدموية ، حرة ، نقية .. والشعور بهذه الاشياء يجعلنى اطمئن الى أن الجهاز العصبى فى هدوء واستراحة تامين ..

وأنا اعرف من الناس من لا يستريحون قط ، منذ يقظتهم حتى عودتهم الى مخادعهم .. فما حالهم ؟ ان اعصابهم باستمرار متوترة ، وهم لا يستطيعون ان يؤدوا اى عمل عقلى على أتمه ، كما ان صحتهم البدنية تسبب لهم الانزعاج باستمرار .. وبمعنى آخر ، يكون الجسم والعقل والروح مرهقة على السواء .. مع ان مجرد الراحة والاسترخاء يكفيان لاصلاح اعصاب هؤلاء الناس .. حتى التغذية الصحيحة للاعصاب تتم على وجه أكمل فى هذه الحال ، لأن التوتر العصبى هو أعظم عدو لامتصاص اجهزة الجسم للاغذية ..

وهكذا نرى ان اساس بنياننا العصبى يستند الى مسألتين بسيطتين ، بدونها لا يمكن أن نقاوم عناء الحياة .. بل أن البنيان لا يكون كاملا بهما ، اذ لا بد من ان ينحرف حجر أو اثنان عن وضعهما من آن لآخر ، فيتحتم المبادرة الى اصلاحهما .. واذا كان الأساس متينا ، كان بوسعنا ان نطمئن الى اننا بمأمن من الضرر الخطير ذى الاثر الطويل ..

٢ ـ اعراض اعتلال الاعصاب

◆ **فاذا** فرغنا من حديث العناية العامة بالاعصاب ، جاء دور الحديث فى هذا الجزء عن الاعراض المألوفة فى حياتنا اليومية لاعتلال الاعصاب .. وخليق بك ان تستبقى فى الذاكرة ما سبق ان اوردناه فى الجزء السابق ، فان هذا يمكنك من ان تكشف اخطاءك فى معيشتك ، لا سيما ما يؤثر منها على اساس جهازك العصبى .. فان اتفه اختلال اذا تكرر لا بد من ان يحدث بمضى الوقت خللا كبيرا ..

١ ـ الشعور بالتعب عند الاستيقاظ

◆ **وقد** اخترت هذا من بين الاعراض لأبدأ به ، لأن تسعة اعشار الناس يعانون منه ، اذا صح ما ينشر فى هذا الصدد ..

فالمرء اذا كان مكتمل الصحة لا يتردد حين يستيقظ فى ان يقفز من فراشه دون ما عناء ، وهو يشعر بتحفز لأن يبدأ يومه .. وأعتقد ان الشعور بالكلل عند الاستيقاظ مرض من امراض العصر الحديث ، وليس من العسير الاهتداء الى سببه .. فلو راعى الكثيرون ان يأووا الى فراشهم فى وقت مناسب ، لما كانت بهم حاجة الى ان يشقوا بهذه المشكلة !

ان الحياة فى بعض المجتمعات تبدأ فى ساعة يعتبر النوم فيها امرا طبيعيا .. كما ان الحياة فى العصر الحديث تنحو الى الاستمرار الى ساعة متأخرة .. ويكفى أن تجلس لسماع برنامج الاذاعة حتى نهايته كى تفقد جزءا ثمينا من وقت النوم . ولو انك كنت تستطيع ان تبقى فى فراشك حتى منتصف النهار التالى لما كان ثمة ضرر من السهر. اما وانت مضطر الى ان تستيقظ مبكرا لعملك ، فانك تبدأ يومك فى هذه الحال بنصف القدر اللازم من النشاط .. وهذا أمر واضح ، ومع ذلك فكثير من الناس لا يفطنون اليه !



والى جانب ذلك نحن نخفق كثيرا فى أن ندرك اننا فى حياتنا نجنح الى التقليد والى تقييد انفسنابالعادات التى تسود مجتمعنا ، فلا نجرؤ على

التحرر منها الا حين نتبين اهمية هذا التحرر .. ومن قبيل التقليد والتقيد بالعادات اننا أصبحنا نخجل من ان نأوى الى مضاجعنا فى الساعة التاسعة مساء ، فى حين ان من الأفضل ان لا نتقيد فى ايوائنا الى المضاجع بموعد معين ، بل يجب ان نخضع لسلطان النوم متى واتانا ..

ستقول ان المرء بحاجة الى بعض اللهو والتسلية ، وهذا صحيح . ولكنك كلما أزددت صحة ، صرت اقل حاجة لذلك .. **فالمرء اذا كان سليما معافى ، متحررا من الكلل والشعور بالتعب ، يجد لذته ومتعته فى العمل والاكل والنوم والحب .. واذا كان اللهو المنشود يحرمنا من كفايتنا من النوم ، فان التعب الذى يترتب على ذلك يحيل عملنا الى واجب ممل مرهق بدلا من ان يكون ممتعا ..**

ان الشعور بالجسم مضعضعا عند الاستيقاظ ليس سوى نتيجة التعب المتراكم من جراء مضينا فى العمل بملل وضجر - فى النهار - وعدم حصولنا على قسط وافر من النوم فى الليل . ونحن لا نفطن الى هذا فى البداية ، لأن طبيعتنا تعوضنا ضمنا بطريقة ما ، وان كنا نبذل جهدا مضاعفا - دون أن نشعر - لنتغلب على التعب ، فلا نشعر به الا بعد أن يكون قد تراكم واستفحل وخلق اعراضا حادة ..

والشىء الوحيد الذى ينبغى عمله اذا ظهرت هذه الاعراض ، هو ان تأوى الى الفراش فى الساعة التاسعة مساء لمدة شهر تقريبا ، فانك اذا حسبت عدد الساعات ، وجدت انك بهذه السياسة تكسب من ساعات النوم ما يعادل اسبوعا فوق ما اعتدت .. جرب ، وسترى مدى الفائدة التى تعود عليك من هذا الاسبوع الاضافى ..

ولقد عرفت بالتجربة ، ان الانسان يظل يقظا اذا جلس فى كامل ثيابه ، اثناء ممارسته لأية تسلية .. بينما لو انك استلقيت فى فراشك وانت تنصت الى برنامج الاذاعة مثلا ، فمن المؤكد انك لن تلبث ان تنام سريعا.. مهما كانت رغبتك فى الاستماع للبرنامج !

لقد حدث هذا مرارا لى ، فأكد رأيى فى اننا نؤجل - بأسلوب غير طبيعى - موعد نومنا الطبيعى ، فنعارض بذلك الطبيعة ، ونضطر بعد حين الى دفع ثمن نزوتنا هذه ..

تجنب التخمة قبل النوم

◆ **ومن** اسباب استيقاظنا مضعضعى الجسم ، ان نأوى الى الفراش ببطون متخمة .. اذ يجب ان تكون آخر وجبة نتناولها ، قبل موعد النوم بثلاث ساعات .. كذلك ثياب النوم الثقيلة ، وكثرة الأغطية ، وازدحام غرفة النوم بالاثاث ، من الأسباب القوية المفعول ليقظتنا متعبين ..

على ان الحقيقة الكبرى فى هذا الصدد ، هى اننا بتصرفاتنا الخاطئة نفقد التوازن بين النشاط والراحة .. فما لم ، تقلل من جهدك فى النهار ، او تطيل من ساعات النوم ، فان التعب يزداد الحاحا عليك .. وانت اذ تتجاهل هذه الظاهرة ، او تحاول ان تخفف شعورك بها ، لا تقضى عليها ، بل ترجئها ، فتزداد هى فى خلال الارجاء استعصاء .. **وهنا نجد أنفسنا ازاء دائرة مفرغة أخرى : فالافراط فى الجهد فى النهار يقلل من الاستغراق فى النوم ، ومن الاثر الذى يحدثه النوم فى تجديد النشاط والطاقة . والنوم القلق يجعلنا نتعب بسرعة ويدعو الى ان نضاعف الجهد لآداء العمل .. الخ**

وهذه الدائرة من الممكن تحطيمها تدريجيا ، لو اننا عمدنا الى الراحة لبضع دقائق بين آن وآخر اثناء نهارنا ، وتجنبنا الانفعال فى العمل ، وتفادينا التعجل فى تناول وجباتنا ، ثم حرصنا على أن نأوى الى فراشنا فى وقت مناسب ، اللهم الا فى مناسبات خاصة لها حكم الاستثناء لندرتها ..

٢ ـ آلام الرأس

◆ وهذه ظاهرة مألوفة فى حالة ارهاق الجهاز العصبى أو ضعفه : كم من الناس يشعر بأن مطارق تهوى فى عنف داخل رأسه !؟ .. ان بلوغ المرء هذه المرحلة معناه انه تجاهل واهمل نذر الاضطراب التى سبقتها .. اذ لا بد انه شعر قبل ذلك بضغط فى رأسه ، او بانتفاض فى عروق الرأس ، وانه مكث بضعة أسابيع يعالج هذا الشعور بالادوية المسكنة والعقاقير .. ولو انه اهتم بهذه النذر المبكرة لتفادى آلام « المطارق » ..



والآلام المترتبة على ارهاق الاعصاب ، تحس فى كثير من أجزاء الجسم .. فقد يكون « التهاب الاعصاب » مظهرا للارهاق العصبى ، ولو انه قد يكون أيضا مرضا عضويا .. ومن العسير التفرقة بين الحالين ، تماما كما يحدث حين يصاب المرء بآلام فى الرأس نتيجة للأعصاب ، فيخالها نتيجة تعب

بدنى أو سبب صحى .. وكثيرا ما يصحب الألم ضغط على جدران الرأس يوحى الى المرء بأنه يوشك ان يجن ، فيزيده هذا ارهاقا لاعصابه ! .. والواقع أن الأمر كله ناشىء عن الافراط فى انهاك الاعصاب ، مما يؤدى الى رفع ضغط الدم ، والى اضطرار المرء الى مضاعفة الجهد لاداء عمله ، فيزيد هذا من حدة الارهاق العصبى .. وهكذا ، دائرة مفرغة اخرى ..

كما ان المصابين بضغط الدم المرتفع يطالبون عادة بأن يسيروا فى الحياة بتؤدة وهدوء ، فلا ينهكون قواهم ، كذلك الامر بالنسبة لحالات الضغط المؤقت الناشىء عن « الاعصاب » .. فاذا لم يكن من الممكن هجر العمل فى عطلة قصيرة ، وجب الاقتصار على اداء ما هو ضرورى منه ، وأدائه على مهل وفى هدوء ، دون جهد مرهق .. كما يحسن ايضا ان يستوى المرء على قدميه من آن لآخر ، فان هذا يجذب الدم الى تحت ، كما ان محاولة التوازن تشغل المرء عن التفكير فى آلام رأسه .. على ان أهم ما فى الأمر ، هو ان العلاج ميسور اذا بادرت باصلاح التوازن بين النشاط والراحة ، فلا تحاول ان تبحث فى الأدوية عن علاج ويجب ان تتجنب الثياب الضيقة ، والياقات الضيقة بوجه خاص ، وان تضع قدميك فى ماء دافىء ، ثم تأوى الى الفراش مبكرا فى اليوم الذى تعمل فيه كثيرا وتعانى فيه من وجود ضغط فى الرأس .. فاذا ما صرت فى الفراش ، فلا تفكر فى حالك ، ولا تجزع على نفسك ، بل اطلق اعصابك وعضلاتك لتسترخى ، واقنع نفسك بأن آلامك عرض مؤقت سرعان ما يزول ..

ان اكثرية اضطراباتنا العصبية ناشئة عن انفسنا ، ولو اننا عنينا بأولى بوادر الارهاق ، لأمكن القضاء على الاضطرابات فى الحال .. ولكنا نحاول ان نخدع الطبيعة ، وان نخدع انفسنا .. والأنكى من هذا اننا نزعج انفسنا ، ونتوهم اننا مقبلون على انهيار عصبى .. فى حين ان الأمر لا يستدعى الانزعاج ، بل يستدعى المبادرة الى الراحة ، والتذرع بالاطمئنان ..

وفى العدد القادم نقرأ القسم الثانى والاخير من هذا الكتاب ، وهو يتناول : الاعصاب الثائرة ، الشعور بالقلق ، صعوبة تركيز الافكار ، السهاد والهموم ، المضايقات المنزلية ، العزلة الاجتماعية .. الخ

مجلس بلدى شبين الكوم

تقبل العطاءات بالمجلس حتى ظهر يوم ١٩٥٤/١١/٢١ عن توريد ادوات كهربائية وتطلب الشروط والمواصفات من المجلس على عرضحال دمغة نظير دفع مائة مليم للنسخة الواحدة بخلاف أجور البريد ٩٠٠٢

الادارة الهندسية بالشرقية

تقبل العطاءات عن عملية تكملة الاعمال الناقصة بمجموعة «ملامس» مركز منيا القمح لغاية ظهر يوم ١٩٥٤/١١/٦ – وتطلب الشروط والمواصفات من الادارة الهندسية بالزقازيق على ورقة تمغة فئة الخمسين مليما نظير دفع مبلغ جنيه واحد بخلاف مائة مليم أجرة البريد ويمكن الاطلاع على ألبوم الرسومات بالادارة الهندسية – وكل عطاء غير مصحوب بتأمين مؤقت قدره ٢ ٪ من قيمته لا يلتفت اليه وللادارة الحق فى رفض او قبول اى عطاء بدون ابداء الاسباب .

٨٩٩٥

مجلس بلدى طنطا

تقبل العطاءات حتى ظهر يوم الاربعاء الموافق ١٩٥٤/١١/٢٤ عن :

١ – توريد مقاعد خرسانية للمنتزهات وثمن الشروط ٣٠٠ مليم

٢ – عملية ترميم وبياض أحواض الترسيب وثمن الشروط ٣٠٠ م

٣ – مزايدة بيع ادوات قديمة ومستغنى عنها بمخازن المجلس وثمن الشروط ٣٠٠ م

وتقبل العطاءات حتى ظهر يوم الثلاثاء ١٩٥٤/١١/٣٠ عن :

١ – توريد حنفيات واكشاك خرسانية للمياه وثمن الشروط ١ جنيه

٢ – توريد سيارات وموتوسيكلات ودراجات وثمن الشروط ٢ ج

٣ – توريد ماكينات جلخ ومبارد ومثاقيب للورشة وثمن الشروط ١ ج

٤ – توريد جلوبات هولوفان او ما يماثلها وثمن الشروط ١ ج

وتطلب الشروط والمواصفات من المجلس على ورقة دمغة فئة خمسين مليما نظير سداد المستحق بخلاف اجرة البريد وقدرها خمسون مليما لكل نسخة وكل عطاء غير مصحوب بتأمين ٢ ٪ من قيمته لا يلتفت اليه

٩٠١٧

نحن وأكبادنا



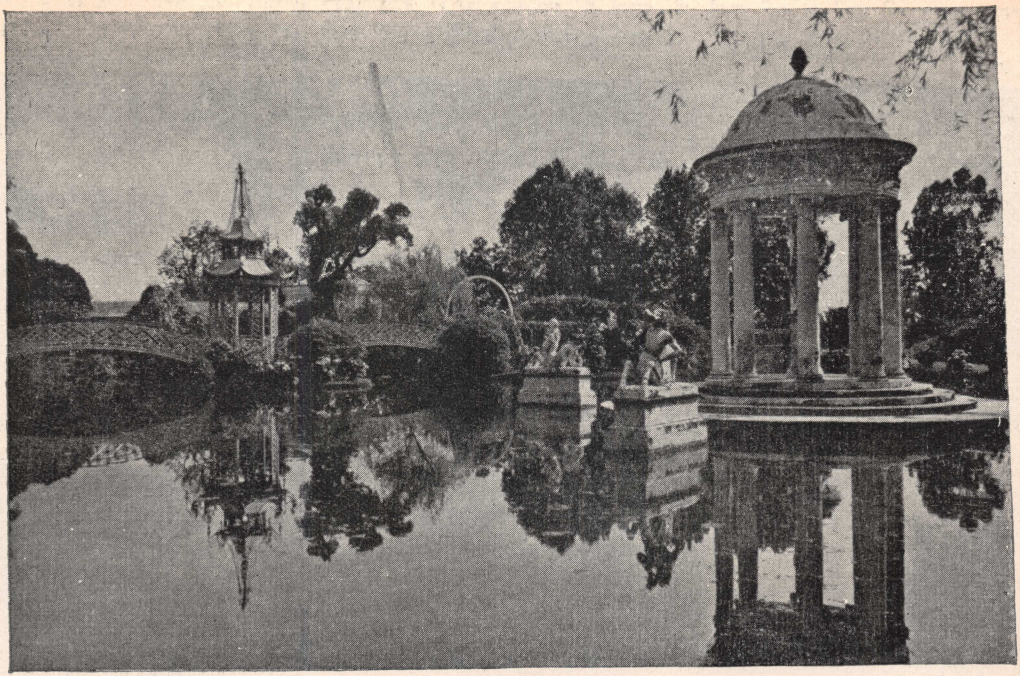
البيت والعائلة والطفل

عزيزى القارىء ..

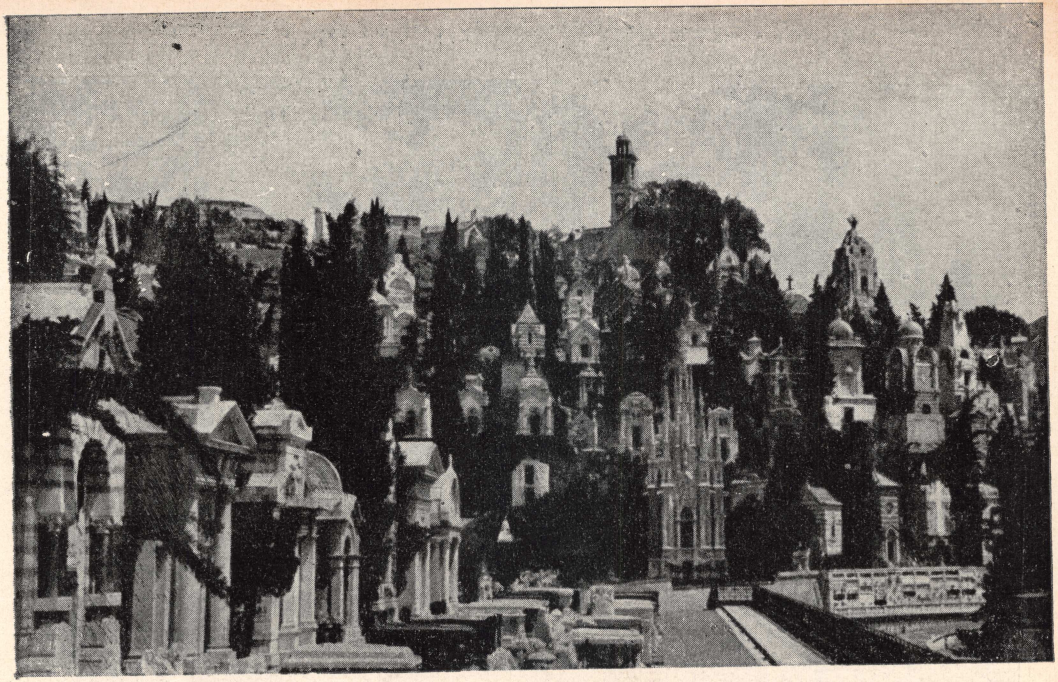
فى هذا الباب قدمت لك فى اعداد سالفة عددا من القصص الكلاسيكية ، المبسطة خصيصا كى يقرأها الصبيان ، أو يقرأها الكبار ثم يحكونها لأطفالهم ..

وابتداء من العدد الماضى قدمت لك فى هذا الباب مادة من نوع آخر .. فهى ليست للاطفال ، وانما عنهم .. ذلك ان علم النفس الحديث قد فتح آفاقا فسيحة لمحاولة اتاحة اكبر قسط ممكن من السعادة للانسان فى مختلف مراحل حياته ، عن طريق فهم ومعالجة نفسيته منذ نعومة أظفاره ، ومن ثم تربيته التربية الصحيحة التى تكفل له نفسا سليمة من العقد والمنغصات وأمراض الشخصية .. كما تكفل له جسما سليما من العلل والامراض البدنية

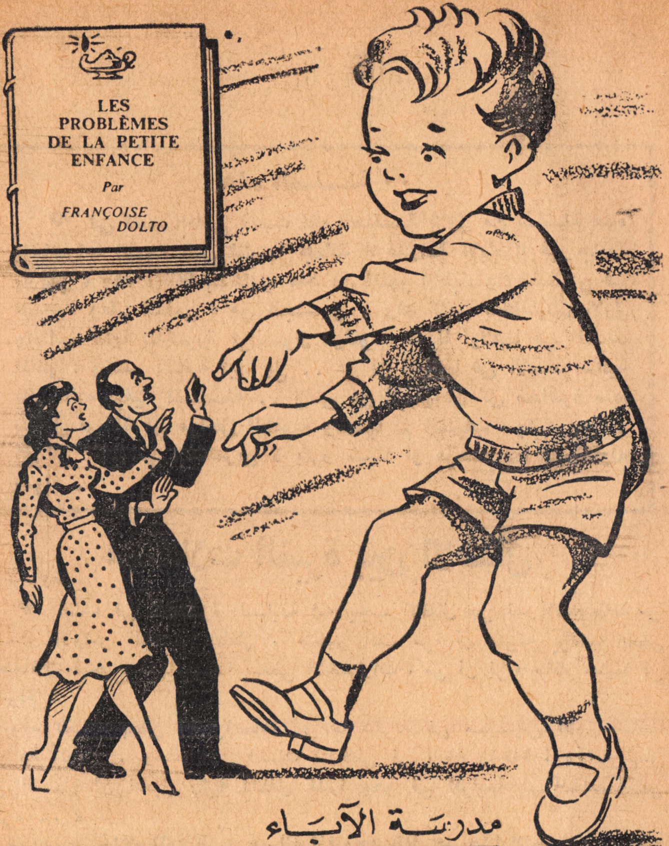
وفى الصفحات التالية أقدم لك الحلقة الثانية من سلسلة محاضرات أعدها خصيصا للامهات والآباء نفر من أشهر الاخصائيين الفرنسيين فى علم « تربية الطفل »



معبد الالهة ديانا ، والكشك الصينى .. بضاحية (بيلى) ، اجمل ضواحى جنوا



.. يصنعون من الموت جمالا ! (مقابر « جنوا » المشهورة التى تعتبر اهم معالمها السياحية .. انها تحف خالدة من الفن الايطالى تنتشر على سفح تل مدرج ، وترى فيها آلاف التماثيل الشخصية للموتى ، معبقة بآلاف التذكارات ، والشموع ، وعبارات الرثاء ..



مدرسة الآباء

مشكلات الطفولة الباكرة

للدكتورة الأخصائية فرانسواز دولتو

تلخيص الاستاذ : كليم أبو سيف

هذه السلسلة ..

◆ فى العدد الماضى قدمت لك الحلقة الاولى من سلسلة هذه المحاضرات القيمة التى نظمتها جماعة ((مدرسة الآباء)) فى جامعة باريس ، وقد ألقاها بالتناوب عدد من أشهر الاطباء والاخصائيين فى التربية وعلم النفس ، من الجنسين . وقد كانت المحاضرتان الاولى والثانية منها للدكتورة فرانسواز دولتو ، نشرنا أولاهما فى العدد الماضى ، وننشر الثانية فيما يلى .. على ان نتبعهما فى الاعداد التالية باذن الله ببقية السلسلة .. وغنى عن البيان ان كل محاضرة منها تتناول مرحلة من مراحل الطفولة والصبا ثم الشباب ، بالتدريج .. اى ان احدا من المحاضرين لا يكرر شيئا أو مرحلة مما تناوله سواه ..

مشكلات الغيرة بين الاطفال

◆ أبنت فى المحاضرة السابقة انه يجب الاقلال على قدر الاستطاعة من اصدار الأوامر الناهية للطفل . فلخير ألف مرة أن نتركه يرتكب بعض الحماقات ليخرج منها مزودا ببعض الاختبارات ، من أن نراه عاقلا مطيعا على الدوام !

وقد تلقيت بعض الاعتراضات على ما ذكرته فى محاضرتى الأولى خاصا بنظافة الطفل . وهذه الاعتراضات تتلخص فى نقطة واحدة : « انه ليس من السهل أن نتقبل رؤية الطفل قذرا وهو فى الرابعة أو الخامسة من عمره .. »

وردى على هؤلاء المعترضين هو انه اذا وجد طفل على هذا النحو ، وفى هذه السن ، فذلك يرجع الى اننا حاولنا الضغط عليه فى هذه الناحية قبل الأوان . فمن الممكن أن نطالب الطفل بأن يكون نظيفا عندما يتقدم نموه العقلى ، وعندئذ نرى انه ميال الى تقليد والديه فى جميع عاداتهما ، مثل الأكل والنظافة وغيرهما . فاذا حاد عن الطريق السوى ، فبدون أن نقرعه يمكننا أن نرسل به الى المطبخ ليأكل منفردا . انما المهم هو أن لا نشعره بأننا نفعل معه ذلك على سبيل ((العقاب)) ! وبعدئذ سيشتاق هو من

تلقاء نفسه الى العودة الى المائدة ليأكل مع أسرته . فاذا عاد اليها سيكون ، فى نظافته ونظامه ، مثل أى شخص كبير !

أما عن « التبرز » فانه يتعوده بنظام فى الشهر التاسع عشر أو الشهر العشرين من عمره اذا ساعدناه .. على شرط ألا نرغمه على اتيان ما ليس فى طاقته . وخيرسبيل هو أن ندعه يقدر أعماله بنفسه . فليس نضوج الطفل ونمو تفكيره من البطء كما نتصور ..

ورغم الصعوبات التى نصادفها فانه يجب السعى الى تربية الطفل على النظافة تربية « حرة » ، فللتربية على الحرية أهمية عظمى فى نمـــوه فى المستقبل !

مولد الطفل التالى .. والغيرة بين الاخوة والاخوات !

◆ على الأم قبل كل شىء أن لا تتدخل فى علاقة الطفل بالآخرين ، سواء كان هذا التدخل بالموافقة أو الاعتراض .. اذ يجب أن تقف على الحياد الا فيما يتعلق بعلاقتها هى شخصيا بالطفل . فاذا لم تزج بنفسها فى علاقات الطفل بسائر أعضاء الأسرة فان النتيجة الحتمية لذلك هى اختفاء المصاعب التى تواجهها الأسرة عادة فى هذه الناحية .

والطفل فى حاجة الى شهرين أو ثلاثة أشهر ليتعود على وجود طفل آخر معه . وهذا التعود يجب أن يتم بدون تدخل منا . لأننا اذا وضعنا أنفنا فى هذا الأمر فقد نصيبه بصدمة شديدة ! .. واذا رأيناه يتألم من وجود طفل آخر معه فمن الخطأ أن نصف ألمه هذا بأنه « غيرة » . والمهم هو عدم تدخلنا نحن فى هذا الموضوع ، كأن نقول له مثلا : « تعال أنظر الى أختك الصغيرة ... » بل علينا أن ندعه يفعل ما يريد أن يفعله ، ويتحمل مضاعفات احساساته الناتجة عن وجود الطفل الجديد ، الى أقصى مداها ، منفردا .. وسنرى انه سيحب المولود الجديد بعد انقضـــاء ثلاثة أشهر على الأكثر !

ومن أهم ما يجب أن نعرفه أن ما يبدو على الطفل الاكبر من حب « التعدى » على الطفل الأصغر ، ليس من علامات «الغيرة» بل من علامات «الحب» !! .. فان الطفل اذا التصق بشىء ولازمه ، يضطره هذا الالتصاق أو هذه الملازمة الى سلوك مسلك الاعتداء على ذلك الشىء ! .. فاذا كان الطفل ذكرا اتخذ هذا الاعتداء مظهر هجوم سافر .. أما اذا كانت أنثى ، فاننا نراها تعتدى بطريق خفى هادىء يوائم طبيعة الانثى ، أى بأسلوب « وخز الابر » ! .. فكم من مرة ، عند ما نطلب من الطفل الذى يلازمنا ويلتصق بنا أن يقول لنا « صباح الخير » ، نراه يرد علينا بخشونة ؟ .. وكم من مرة نراه يأتى ببعض

لعبه ويضعها بشىء من العنف على ركبتينا ؟ أليس هذا من مظاهر التحرش المزوج بالحب ؟!

وكثيرا ما يتجاهل الطفل الأكبر وجود أخيه الأصغر لأن النظر اليه يؤلمه ، وهنا نراه يحاول ملازمة الصغير ملازمة لا تخلو من اعتداء .. فيضربه أو يعضه .. وهنا ينبغى الوقوف بعيدا ومراقبة رد الفعل الذى يبدو على وجهه عندما يرى نفسه قد أبكى أخاه الصغير .. وواجبنا نحن فى هذه المناسبة أن نطيب خاطر الصغير أولا وأن نقول له : « أنت تعلم أن الأولاد الكبار أقوياء » .. وسترى عندئذ أن الكبير قد ندم على فعلته فراح يسأل : « هل آلمته ؟ » .. وسيفير من سياسة اعتدائه على أخيه الأصغر ، وقد يقلع عن هذه العادة نهائيا !

ومن أمثلة الاعتداء المزوج بالحب ما يفعله الطفل الاكبر أحيانا من احضار كل لعبه والقائها دفعة واحدة وبعنف فى سرير أخيه الأصغر ، مما قد يصيب الصغير بأذى ويبكيه ! فواجبنا أن نساعد الاكبر على ايجاد معنى ايجابى لهذا العمل نصف السلبى ، وذلك كأن نقول له : « ها أنت تبدو ظريفا مع أخيك الصغير ! »

فيجيب : « نعم ! ولكننى أبكيته .. »

فنجيبه مطمئنين : « لا تنزعج ! فقط حاول فى المرة القادمة ان تضع اللعب تحت قدميه بغير عنف ! »

الشجار بين الاخوة والاخوات !

◆ **كثيرا** ما يصبح جو المنزل لا يطاق عندما يكون فيه ثلاثة أو أربعة أولاد .. فيستحيل على الوالد ان يعمل فى بيته ، ولا يكف عن تعقب الأولادوانتهارهم .. ويتشاجر أكبر الأولاد مع من يليه .. ويصيح الثالث متأثرا بشجارهما ! ويكون مسلك الأب والأم وسط هذه الجلبة خاطئا فى غالب الأحيان ، ذلك لأنهما كثيرا ما يتدخلان بين الأولاد . وهذا خطأ كبير ، اذ عليهما ألا يتدخلا اطلاقا .. وان كان هذا بطبيعة الحال لا يعفيهما من مراقبة الأطفال ، ومن حماية الصغار ضد بطش الكبار ، منعا لحدوث مالا تحمد عقباه ! .. ان امتناع الأباء عن الزج بأنفسهم فى هذه المعارك يستلزم شجاعة منهم ، لكن الأولاد يجب أن يتركوا احرارا على أية حال .. وسيكون اليوم الثالث لاتباع هذه الخطة هو أرهب الأيام جميعا ، ففيه سوف يشتد وطيس الشحناء .. وعندئذ ينبغى أن يترك الآباء والأمهات المنزل الى نزهة قصيرة ، اذا نفد صبرهم ، وليتركا ميدان المعركة حرا .. فاذا عادت الأم الى المنزل بعد ذلك فغالبا سترى السكون قد خيم عليه ، وقد يخيم عليه نهائيا ..

فاذا أصيب أحد الاطفال اثناء المعركة ، وجاء يشكو الى أمه ما أصابه ، فعليها أن تهون عليه وتهدىء من روعه ، وتعالج اصابته .. ولكن حذار من أن تذهب الى المعتدى لتعنفه على ما فعل.. وانما عليها أن تكتفى بالسماح للمعتدى عليه بالشكوى ، دون أن تقيم من نفسها حكما أو تقتص من المعتدى !

والواقع أن هذا الاعتداء المتبادل والشجار بين الاخوة مشكلة من أعقد مشاكل التربية التى لها دقتها وخطورتها معا ، ذلك لأن الاعتداء انما هو نوع من النشاط « الحر » .. كما نرى فى المثل التالى :

كانت لأسرة بنتان ، تضطهد كبراهما الصغرى .. وكانت هذه تتحمل اضطهاد أختها وضربها اياها ببلادة ودون مقاومة .. ولم تكن لها صديقات فى المدرسة ، بل كانت منعزلة عن سائر زميلاتها ، فأثر هذا الذى تعانيه فى عملها المدرسى حتى صار دون المتوسط .. فلما سئلت عن السبب أجابت بقولها : « ان أختى تضربنى ، وأنا عاجزة عن مقاومتها .. وعليه ، فسأقتلها !! »

وكانت الكبرى أقوى فى البنية بكثير من الصغرى ، التى كانت احدى توأمتين ماتت الأخرى منهما فى الشهر الثامن عشر لولادتها ، نتيجة لأزمة صدرية . ولكن الأخت الباقية على قيد الحياة كانت تعتقد أن أختها التوأم ، التى كانت عنيفة المزاج ، قد ماتت نتيجة «غضبة» شديدة. وعليه فقد كانت تخشى أن تغضب وتثور فى وجه أختها الكبرى ، مخافة أن تموت هى الأخرى من الغضب !

وهكذا كانت الطريقة الوحيدة التى أمكن بها شفاء الصغرى من هذه العقدة النفسية أن والديها سمحا لها - بناء على نصيحة الطبيب - بأن تضرب أختها الكبرى بطريقة تمكنها من أن تنفس عن شعورها المفيظ المكبوت .. أو بعبارة أخرى سمحا لها بأن تدافع عن نفسها باعتبار أن لها كل الحق فى ذلك .. فاحتدم بين الأختين شجار عنيف انتزعت الصغرى فيه كمية من شعر أختها الكبرى ! .. **وما أن وقع ذلك حتى هدأ الجو بين الاثنتين وساد بينهما السلام ! .. والأهم من كل هذا انه بعد انقضاء خمسة عشر يوما على هذه المشاجرة - أو قل هذا العلاج - اصطنعت الصغرى لها بعض الصديقات فى المدرسة ، بعد أن كانت وحيدة منعزلة ، وبدأت تهتم بدروسها وتقبل عليها باهتمام ملحوظ !**

كيف نكون فى الطفل الشعور بالحياء ، والمسؤولية ، والعدالة !

الحياء : كيف نعمل على تكوين هذا الاحساس عند الطفل ؟

يتعين علينا أن نتجنب التناقض فى مسلك المربين فى هذه الناحية

بصفة خاصة .. فانه يبدو تناقضا أمام الطفل أن يرى انه مسموح له بالنظر الى بعض أعضاء جسمه دون السماح له بلمس هذه الأعضاء .. انه أعجز من أن يفهم هذا التناقض العجيب ، وليس أخطر على مخيلته من وجود هذه المعميات !

والقاعدة العامة هى انه يجب ألا نضع أنوفنا فى أمور تمس الحياء بين الأولاد .. وانما الذى نلقى بالنا اليه هو ما يخص الولد نفسه من هذه الأمور .. فاذا جاء طفل الى أمه يقول « هذا مقزز ! يجب عمل هذا .. ولا يجب عمل ذاك .. » فانه فى الغالب يحكم بهذه الأقوال على شىء يدور فى داخلية نفسه هو .. وهذا هو ابتداء الشعور بالذنب .. فعلى الأم ألا تبدى له رأيا ما ، بل تتركه حرا فى تقديراته وحكمه على الأشياء حتى النهاية ، فهذه هى الطريقة المثلى التى تجنبه الاحساس بالوزر أو الذنب .

كما أن الطفل يجب أن يتجنب الشعور بأنه مضطر لأن يجعل آراءه مطابقة لآرائنا ، بل لندعه يعبر عما يجيش به صدره ويختلج فى نفسه من مشاعر ومقاصد وتفاعلات .. فالطفل شديد الانصياع لمن هم أكبر منه سنا . وقد حدث فى معهد (سان برنار) أن طلب الى ولد صغير أن يرسم صورة شيطان ، فرسم صورة بنت !! فاندهش الحاضرون وسألوه عن السبب ، فأجاب بأنه كان قد رسم فى البيت صورة أخرى للشيطان غير صورة هذه البنت ولكنها لم ترق لأمه ، أما الصورة التى رسمها للشيطان الآن فهى باملاء أمه .. فكان هذا مثلا صحيحا دقيقا للعقدة النفسية التى تعانيها أمه التى كانت فاقدة الاتزان من الناحية الجنسية والزوجية ، والتى كان الشيطان فى مخيلتها يتمثل فى الفتيات اللواتى يجتذبن الرجال !

لا تقل للطفل : « لا » !

فاذا اقترح الولد عمل شىء فلا تقل له : « لا ! » ، بل دعه يمضى فى ابراز ما يقترح فعله حتى النهاية . ودعه يتممه على الأخص فى مخيلته ، فمن المهم أن تترك للطفل حرية التخيلات حتى لو كانت شريرة .. فان هذا « سيصفى » حساب هذه الأخيلة ويعدمها فى النهاية . والا فان ما كان يدور فى مخيلته على أنه أشباح باهتة يتجسد ويتبلور فى عالم الحقيقة ، بل ويتبلور فى عالم الجريمة أيضا !

ونحن اذا لم نترك الطفل حرا فى تنفيذ مشروع يتخيله ، قد نقوده الى نتائج مروعة ، فمثلا اذا قال : « سألقى بنفسى من النافذة » فلا ينبغى أن ننهره لدى سماعنا هذا منه ، بل علينا أن نشترك معه فى التفكير ، فتقول له الأم مثلا : « ترى اذا فعلت ذلك فماذا سيحدث لك ؟ » .. فيجيب : « يحدث أن أقتل نفسى » .. فتقول الأم : « وأنا ماذا أصنع ؟ » .. فيجيبها :

« أنت ؟ انك سوف تهكين بالطبع ! » .. وعندئذ سوف يقلع عن مشروعه من تلقاء نفسه !

وهكذا ينبغى أن تترك للولد الحرية ليتخيل فصول الرواية الى نهايتها ، لاننا اذا قاومناه سوف نعرضه لضغط عصبى قد يدفعه الى ابراز خيالاته فى صورة أعمال مادية فى عالم الحقيقة .. وما ذلك الا لأننا لم نسمح لهذه التخيلات بأن تجد لها متنفسا تندفع منه فتضعف قوتها ، وتبهت صورتها ، ولأننا لم ندعه يستنزف ما يدور فى مخيلته قطرة قطرة حتى يحتضر ويصبح أعجز من أن يظهر فى عالم الحقيقة على أية صورة من الصور !

هذه الحرية الداخلية لازمة للغاية لنمو الطفل فى جميع نواحى حياته ، ومنها ناحية الحياء !

الشعور بالمسئولية والعدالة : وهذه الظواهر تبين على الطفل قبل السن التى يذهب فيها الى المدرسة . فقد تظهر فى سن الثالثة أو الرابعة أو الخامسة .. ولنضرب لذلك مثلا : يفقد الطفل احدى لعبه الثمينة ، فهل ترى يضايقه ذلك ؟ .. كلا ! ان ضياعها قد يضـايق الأبوين أكثر مما يضايقه هو ! .. والذى يحدث انه سيقول معلقا على فقده اللعبة : « ان الولد الذى سيعثر على لعبتى المفقودة سيكون سعيدا بلا شك .. »

وعليه فيتحتم علينا الا نوقظ الاحساس بالمسـؤولية قبل الاوان .. والمشاهد ان الصبى فى مثل هذه الحالة يعود الى الكلام فى الموضوع بعد أيام فيقول متضايقا : « اف ! .. لو لم أضع اللعبة هنا ـ أو لو لم آخذها معى ـ لما ضاعت ! .. »

وهنا فلنقف موقف المراقب ونجيبه بقولنا :

ـ طبعا ! انك لو فعلت ذلك لما أضعتها !

ولكن ينبغى ألا نوبخه أو نعاقبه ، وانما يكفينا أن ننتظر حتى يتكون عنده الاحساس بالمسؤولية تكونا طبيعيا ، وسيكون لهذا الدرس اثره الفعـال فيه !

ومثل آخر : يكسر الطفل شيئا ثمينا ، كمصباح مثلا ، وهنا ينبغى ان ندرك ان الشىء قد كسر وليس الى اصلاحه من سبيل .. ومن ثم نعـالج الأمر بهذا المنطق : نسأل انفسنا اولا كيف وقع الحـادث ؟ لقد وقع فى الظروف الآتية : دخل الطفل حجرة الاستقبال وأسقط المصباح الثمين مثلا .. فهو هنا مذنب فى شىء واحد وهو دخوله الى حجرة الاستقبال بغير اذن ودون ان يكون هناك داع لدخولها .. وفيما عدا ذلك يجب ان نعتبر الامر غير ذى خطورة !

ولكن كيف نتدخل فى الأمر فى هذه الحالة ؟ .. **يجب اولا أن نساعد الطفل على اصلاح ما أفسد ، لانه يتوق الى ذلك . فليدفع شيئا من النقود التى ادخرها لشراء بعض الحلوى كتعويض عن الخسارة التى تسبب فى حدوثها ! .. على اننا فى الوقت نفسه يجب أن نعاقبه على الذنب الذى ارتكبه ، ويكون العقاب بأن نمنعه من دخول حجرة الاستقبال فترة من الزمن !**

وسيجىء الطفل فى اليوم التالى بادى الالم ، محتجا على ما حل به من عقاب ، وتصدر منه عفو الخاطر هذه العبارة « لماذا أعاقب ما دمت لم أكسر المصباح عن عمد ؟ »

فنجيبه : « انك لم تعاقب على كسرك المصباح ، بل على دخولك حجرة الاستقبال بدون اذن ! » .. وبهذا يضع الطفل أمام ناظريه فكرة « المسؤولية » ، التى علينا ان نساعده على تفهمها وتفهم مراميها ..

ويمكننا فى هذه المناسبة ان نضرب له المثل الآتى :

كان هناك سائق سيارة ، ركبت معه فى سيارته سيدة ، فانقلبت بها السيارة ! ان السائق لم يتعمد هذا الحادث الذى تسبب عنه كسر ساق السيدة . ولكن على السائق ان يصلح من الخطأ الذى ارتكبه عن غير عمد ، وذلك بأن يخف الى معاونة السيدة المصابة بكل ما فى وسعه . فليس الأمر هنا متعلقا بعقوبة توقع ، بل بمساعدة تبذل !

وتلتصق فكرة « الذنب » بفكرة العدالة عند الطفل فى المثل الذى ضربناه ، الى الحد الذى يدير معه فى مخيلته المثل الآتى : « ان مثلى مثل جندى كان يقود سيارة محملة بالجنود ، وكانت فى طريقه بئر .. فضغط السائق على فرامل السيارة واوقفها .. ولكن بعد فوات الوقت ، فاذا بجنديين يسقطان فى البئر ويقتلان ! لقد أحسن الجندى صنعا بالضغط على الفرامل ، فلو لم يفعل لسقطوا كلهم فى البئر وقتلوا جميعا .. لكن السائق يحس بالألم بالرغم من انه لم يرتكب جرما . وهو لن يعاقب لانه برىء .. ولكنه سيبذل جهده عند القائد العام ليجعله يسارع ببذل كل المساعدات الممكنة لعائلتى الجنديين القتيلين ! »

فنحن نرى هنا كيف يكيف العقل الصبيانى الامور ، وفى أى قالب يصبها لينفذ الى معنى المسؤولية والعدالة معا .. وهذا كثيرا ما يحدث للطفل بين سن الثالثة والسادسة

فلنعاقب الطفل ، دون أن نحرمه من الحب !

◆ **وعليه : فان الطفل الذى يرتكب حماقة – أو الذى يفشل – يتحتم علينا مساعدته ، لأن فشله لم يكن الامحاولة من المحــاولات التى لم تكلل بالنجاح !**

وينبغى الا ينتقص الفشل من قدر الطفل عند والديه أو من يشرفون عل تربيته .. فاذا لم يعاقب عل فشله بصرامة فان نفسه تظل فى قرارتها سليمة صافية الاديم !!

واذا عاقبنا الطفل ، فعلينا الا نحرمه على الاطلاق من الحب .. وعلينا ان نسارع الى مساعدة طفل يتألم من عقوبة أو فشل ، حتى يحس بان ما يحل به لا ينصب على جوهره وكيانه من حيث هو ، بل يتعلق بمسلك سلكه ليس غير !

ويجب ان يعلم ان الثقة فيه قائمة باقية .. على الدوام !

وفى العدد القادم نقرأ المحاضرة الثالثة من هذه السلسلة ، وهى للدكتور « اندريه بيرج » مدير معهد سان برنار للتربية ، وموضوعها : الطفــل والاسرة

امتحان ... فاضح !

◆ **كان** قس فرنسى صارم يمتحن شباب كنيسته فى الدين ذات يوم – خلال القرن الماضى – فسأل فتاة من الحاضرات :

– ما هو عزاؤك الوحيد فى الحياة والموت ؟

فابتسمت الفتاة ، لكنها عجزت عن معرفة الجواب..

فما كان من القس الا أن انتهز الفرصة كى يؤنبها على علاقتها بشاب يعرفه .. فقال لها :

– ما دمت قد عجزت عن الاجابة ، فدعينى أجيب على السؤال نيابة عنك : لعل عزاءك الوحيــد فى الحياة والموت هو ذلك الاسكافى الشاب الذى يقع حانوته فى شارع « آنيو » !



دائرة معارف
الثقافة العالمية
مطالعات
في الكتب والمجلات والموسوعات
ومشاهدات
في المسارح والمعارض
ودور السينما.

عرفت الارض ٦٠٠ر٠٠٠ نوع من الحشرات .. وهذه الحشرات أفتك بالبشر من القنبلة الذرية والهيدروجينية ، بل أقوى من جميع الشعوب البشرية الموجودة على ظهر البسيطة مجتمعة ، ومضروبة فى عشرة ! اقرأ هذا المقال ثم سل نفسك :



هل تسيطر الحشرات على الأرض وتحكمها؟

عن مجلة "تيت بيتس" الانجليزية

الحشرات مسئولة عن نصف وفيات البشر !

◆ ترى هل ينسى الانسان فى غمرة مخاوفه من القنبلة الذرية ، والاشعة القاتلة ، وحرب الميكروبات ، أن ثمة خطرا أشد هولا من هذه كلها ، يتهدد بقاءه .. وان هذا الخطر الرهيب ، هو .. الحشرات ؟

وهل تستطيع الحشرات أن تسيطر يوما على عالمنا هذا ؟

ان الذين راقبوا النمل فى نشاطه ، ودرسوا ما أوتى النحل من مقدرة مدهشة ، لن يطول بهم التفكير فى جواب هذا السؤال .. وأى مخلوق رأى أسراب الجراد النهم وهى تحجب قرص الشمس ، يستطيع أن يدرك لفوره هذا الجواب ! .. فالحقيقة الرهيبة هى أن الارض عرفت ٦٠٠ر٠٠٠ نوع من الحشرات ، وان هذه الحشرات أقوى من جميع الشعوب البشرية الموجودة على ظهر البسيطة ، مجتمعة معا ، ومضروبة فى عشرة ! .. ومن ثم فما لم يكبح ازدياد هذه الحشرات ، فانها لن تلبث أن تجتاح فى النهاية كل مدنية وحضارة ..

بل انها تعمل على هذا فعلا ، اذ تدل الاحصاءات الحديثة على أن الحشرات - بما تنقل من أمراض - مسئولة عن نصف الوفيات التى يمنى بها الجنس البشرى .. كما انها تلتهم من الأغذية - المخزون منها والنبت النامى - ما يكفى لأن يغذى مائتى مليون نسمة بشرية أخرى من سكان الارض !

وترجع أربعة ملايين من حالات الوفيات فى السنة - على الأقل - الى مرض ((الملاريا)) وحده ، كما أن ثلث سكان العالم مصابون بصفة ((مزمنة)) بهذا الوباء الذى يحمله البعوض .. ولا يقل ((مرض النوم)) عن الملاريا

شرا وفتكا بالملايين ، وكذلك قرينه الذى يصيب الماشية .. وكلاهما ينقلهما ذباب « تسى تسى » البغيض ..

ومن الصحيح أن جهودا كثيرة بذلت للتغلب على الملاريا بالكينين وغيره من العقاقير ، كما أن تفشى مرض النوم يكافح برش مادة « دى.دى.تى » .. غير أن هذه ليست سوى الهجمات الأولى فى معركة شعواء ستدور فى عنف مطرد لعدة أجيال ، اذا أريد استكمال كسر شوكة البلايين من الحشرات .. ذلك انها ، على العكس من معظم المخلوقات الحية ، لا تخضع لقانون طبيعى يجعل ثمة نسبة معقولة بين ما يموت منها بأسباب طبيعية ، أو يعدم ، وبين المعدل الذى تتكاثر به - والذى يصل الى درجة خيالية - فهى تظل تتضاعف دون حد !

حشرة تحرك ما يفوق وزنها ٣٥٠ ضعفا !

◆ ثم أن الحشرات لم تحرم من الذكاء وقوة التفكير .. حتى لقد كتب الدكتور داروين يقول : **« ان مخ النملة من أغرب وأروع الاجهزة الدقيقة فى الدنيا ، بحيث قد يفوق مخ الانسان فى روعته ! .. ومن ناحية أخرى فمما لا شك فيه أن أى مجتمع انسانى لم يبلغ من كمال التنظيم ما بلغه مجتمع النحل !**

بل فلنتأمل مواهب النملة فى ناحية واحدة من نواحى النشاط، وهى ناحية البناء والانشاء .. لقد كان ارتفاع الهرم الاكبر - الذى شيده خوفو فى مصر - يعادل طول الانسان مائة مرة تقريبا ، قبـــل أن تتراكم الرمال وتدفن قاعدته .. ومع ذلك ، فان التلال التى يقيمها النمل تعادل طول النملة نحو الفـمرة .. فهى بذلك أضخم نسبيا من أعظم عجائبنا !

ثم ، فكر لحظة فى قوة الحشرة المعروفة باسم « أبى مقص » - شمشون دنيا الحشرات ! - فقد أثبتت هذه الحشرة الصغيرة أن بوسعها أن تحرك ما يفوق وزنها ٣٥٠ ضعفا ! ولو أوتى انسان ما يعادل هذه القوة ، لاستطاع أن يدفع عربة قطار وزنها ٢٠ طنا ، تحمل عشر مركبات حمولة كل منها ٤٠٠٠ رطل انجليزى .. أى أن يدفع ما يناهز ٣٨ طنا !

كيف كانت الحشرات منذ ١٣ مليون سنة !

◆ **ولقد** كتب « ا. ج. بنيت » فى كتابه « أضواء على المجهـــول » يقول : « قد يبدو من المضحك أن نفكر فى دنيا تكاد الحشرات أن تسيطر عليها تماما ! » .. وفى هذا الكتاب الرائع الذى يحاول أن يلقى أضواء جديدة على الغوامض التى لا تزال على مر الاجيال ألغازا ، يبين المؤلف أن ما يطلق عليه « خطر الحشرات » ليس أمرا يدعو الى الضحك .. ذلك أن

الحشرات قد تكون ضئيلة الحجم ،ولكن الحجم لم يكن يوما قياسا لقوة سيطرة أى مخلوق على غيره .. فنحن أصغر من الفيلة بكثير ، ومع ذلك نستطيع أن نخضعها وأن نذلل قواها العظيمة لنفعنا .. ترى هل يستطيع النمل بنشاطه الجبار وذكائه اللامع ، أن يتكاثر بنسبة تكفى لأن يفرض علينا سيادته بنفس الطريقة ؟

والأنكى من هذا وأفظع ، احتمال أن تؤتى الحشرات فرص النمو فى الحجم حتى تصل الى تلك الاحجام العملاقة التى يسود الاعتقاد بأنها كانت عليها فى أبعد العصور القديمة ، كالعصر الفحمى – منذ ثلاثة عشر مليونا من السنوات – حين كان معظم العالم اذ ذاك حمأة حارة ، وكانت الظروف ملائمة للحشرات كل الملاءمة ، فكان للكثير منها أجنحة تبلغ فى الطول عدة أقدام ، وأجسام تعادل فى السمك ذراع الانسان .. وقد وجدت آثار مطبوعة على الفحم لصراصير وفراشات ضخمة ، يزيد طول جناح الواحدة منها على قدمين ! .. وتجمع الدراسات على أن أجسام كثير من حشرات ذلك العصر – وان كانت قد تحللت وتلاشت لخلوها من العظام – تعادل حجم بعض حيوانات اليوم الضخمة !

هل يعود عصر الحشرات ؟

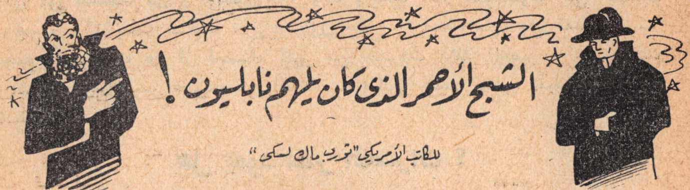
◆ **ومن** أضخم الحشرات الموجودة اليوم ، نوع رهيب من الخنافس له ثلاثة قرون .. وهو يصل فى الطول الى بوصتين ونصف البوصة .. ومع ذلك فان الظواهر توحى بأنه أوتى من الاستعداد ما كان يكفى لأن يبلغ حجم الحصان .. ولو لم ينقض العصر الفحمى ، ويفسح الطريق لأجواء أكثر برودة، لفاق هذا النوع من الخنافس أى نوع من المخلوقات دب على وجه الأرض !

والآن ، نخلص الى نقطة هامة جديرة بالانتباه .. فان الفلكيين وعلماء الطبيعة يجمعون على أن الشمس تزداد حرارة ، وان الدنيا لن تلبث على مر الزمن أن تتحول الى هشيم .. ولكن المحيطات ستصل قبل ذلك الى عهد تأخذ فيه مياهها فى الغليان ، وتستحيل مساحات كبيرة من الارض الى مستنقعات تتصاعد منها الأبخرة ، والى أدغال حمأة ، أو صحارى مقفرة ..

وفى رأى « بنيت » أن عصرا فحميا ثانيا يبدأ اذ ذاك ، فتسود الحشرات الضخمة الهائلة سطح الارض ، (اذ يعتقد انها الوحيدة – من بين المخلوقات الحية بأسرها – التى ستستطيع أن تهيىء نفسها لتتمشى مع الظروف الطبيعية والجوية التى ستسود المناطق التى تشتد حرارتها حينذاك) .. ثم يمضى المؤلف فى كتابه « أضواء على المجهول » ، فيقول : « اذا كان ثمة

كوكب آخر مأهول فى أيامنا هذه - غير الأرض - فلا شك لدى فى انكم اذا بلغتموه فلن تجدوا انسانا فى استقبالكم ليرحب بكم ، وانما ستجدون حشرات جبارة ، لا ترحم ، ولا تعرف الحب ، أو أية فضيلة من الفضائل المتواضعة التى درجت عقولنا البائسة على تقديرها .. أجل ، لن تجدوا سوى ملايين الحشرات المخيفة التى تطفر حياة ، وتسمو علينا فى الذكاء ، وتستمتع بقوة عاتية لا مثيل لها ! »

كان نابليون يسير فى نجاحه وانتصاراته المجيدة بارشاد من « شبح فرنسا الأحمر » .. فلما تجاهل ارشاده ، كان فى ذلك انهيار مجده !



الحلم الذى ازعج الامبراطور !

◆ **فى** مساء ١٦ أغسطس سنة ١٧٦٩ رأى فردريك الأكبر - امبراطور بروسيا - حلما عجيبا أثناء نومه .. رأى « نجما ساطعا » يهبط من السماء ، وهو يتوهج فى تألق مخيف ، حتى أن الامبراطور استيقظ فى جزع ، معتقدا أن شهابا قد هوى على مقربة منه ، وان وهجه قد أعماه الى الأبد .. حتى اذافطن الى ما حوله ، اطمأن الى أن شهابا ما لم يهو ، وان الحلم لم يكن سوى ايحاء بحدث سوف يكون له أثر فى المستقبل .. وقال فيما بعد باقتناع عظيم : « لقد ولد زعيم أعده القدر ليغير مجرى التاريخ ! »

ولم يدهش المؤمنون بالايحاءات غير الطبيعية ، حين تبينوا أن حلم فردريك وقع فى نفس الليلة التى ولد بها - فى بلدة « اجاكسيو » الصغيرة بكورسيكا - نابليون بونابرت .. بل وفى « نفس اللحظة » التى ولد فيها نابليون !

ولقد كانت حياة نابليون أكثر امتلاء من حياة معظم العظماء ، بالأحداث التى تحمل طابعا غير طبيعى ، وكأنما كانت ثمة قوى علـــوية قد آثرته بعناية خاصة .. فكان وطيد الايمان « بطالعه السعيد » ، حتى انه كثيرا ما كان يغير خطط معاركه فى وسط القتال ، فى جراة كانت تبدو فى نظر

قادة جيوشه تهورا واستهانة ، بل خبلا وانتحارا ! .. ولكنه كان دائما يصيب جادة الطريق دون ما خطأ ، طالما كان يسير على هدى ذلك الايحاء الغريب الذى سنروى قصته .. وما بدأ نبوغه وسلطانه فى الانحدار الا حين فقد ايمانه به !

يتنبأ للملك بموته !

◆ **ولقد** كان ظهور « شبح فرنسا الأحمر » ـ الذى لاح لعدة أشخاص غير نابليون ـ أعجب دليل على أن ثمة قوى سحرية « غامضة » تعنى بفرنسا وامبراطورها .. فلقد ظهر « الشبح الأحمر » كثيرا من المرات ، وكان ظهوره دائما فى لحظات حرجة من التاريخ الفرنسى . ومن أروع هذه المرات ظهوره فى ليل ١٣ مايو سنة ١٦١٠ للملك هنرى الرابع ، الذى كان يتبوأ العرش اذ ذاك ، وكان الملك قد أعلن ـ نظرا للظروف العصيبة وقتئذ ـ عن عزمه على أن يتولى قيادة الجيش بنفسه ..

وقبيل منتصف الليل ، استيقظ الملك من نوم غير مطمئن ، خيل اليه أثناءه انه كان يسمع صوتا عميقا ، هادرا ، يحذره وينذره .. وكان جسده يتصبب عرقا لفرط اعتقاده بأن الصوت الذى سمعه كان حقيقيا ! .. وتلفت فى خوف ، واذا به لدهشته يرى « الشبح الأحمر » فى نفس الشكل الذى ظهر فيه لسواه .. كان شبح رجل مفرط الطول ، ذى قامة عريضة ، بادية القوة ، وقد اتشح بعباءة حمراء ، وأطلق لحيته طويلة حمراء .. ومع أن الربيع كان يجتاز نهاية مراحله اذ ذاك ، فان الغرفة كانت شديدة البرودة !

وتكلم الشبح ، بنفس الصوت المهيب الأجش الذى اعتاد أن يتكلم به ، والذى سمعه هنرى قبل يقظته ، يقول له : « ستموت غدا .. سيغتالك أولئك الذين تحسبهم أوفى أصدقائك ! » .. ثم سار الشبح خلال الحائط واختفى دون أن ينتظر ردا أو احتجاجا ..

ولم تنقض اثنتا عشرة ساعة ، حتى قتل هنرى فى صبيحة ١٤ مايو ، وهو محوط بأقرب أعوانه اليه .. وكانت الطعنة القاضية من صديق له يدعى « رافياك » !

.. ويتنبأ لنابليون بالهزيمة فى أبى قير !

◆ **وكان** نابليون يعرف هذه القصة ، كما كان متأثرا بها .. فضلا عن انه كان قد عرف من مصادر وثيقة أن « الشبح الأحمر » ظهر بعد ذلك للويس السادس عشر ، فنبأه بالثورة الفرنسية وبأنه سيقتل وزوجته مارى أنطوانيت على المقصلة .. ومن ثم كان نابليون يهاب هذا الشبح ـ الذى زاره بعد ذلك مرارا ـ هيبة عميقة ، دائمة ..

وكانت اولى هذه الزيارات - التى تدعم الأدلة صحتها - فى سنة ١٧٩٨ ، ونابليون لم يتجاوز التاسعة والعشرين ، يقود جيشه فى ظروف توحى بالظفر والمجد .. ووقعت الزيارة قبيل معركة الاهرام فى مصر ، وتضمنت انذارا بنكبة بحرية .. وقد كسب نابليون معركة الاهرام ، ولكن هزيمة الاسطول الفرنسى على يدى الاميرال نيلسون فى أول أغسطس من ذلك العام ، كانت نكبة عظمى !

أما المرة الثانية ، فجاءت بعد معركة « واجرام » المشئومة ، اذ أمهل « الشبح الأحمر » نابليون أربع سنوات يحقق فى أثنائها سلاما عاما .. ولكن نابليون أبى أن يقبل هذا النذير من البداية ..

ومن الجلى أن نابليون وحده هو الذى شهد الشبح فى المرتين ، وقد سجل قصتهما بعبارات مقتضبة .. ولكن هناك تسجيلا كاملا دقيقا لثالثة الزيارات ، اذ كان ثمة شاهد ثان حضر الزيارة كلها ، وشاهد ثالث حضر شطرا كبيرا منها !

يدخل والابواب مغلقة !

◆ **حدث** ذلك فى صباح أحد أيام يناير سنة ١٨١٤ .. وكان نابليون قد منى بهزائم ماحقة ، وغدا معرضا لهجوم قوات جبارة .. وكان يجلس فى مكتبه بقصر « التويلرى » ، لا يرافقه سوى وزيره « الكونت مول » ، وسكرتيره الخاص « نيوفال » ..

ولابد من وصف الحجرة لندرك تماما ما حدث .. كانت قاعة فخمة اتخذتها « مارى تيريزا » - زوجة لويس الرابع عشر - مخدعا فيما مضى .. وكانت خزانات الكتب تكسو الجدران ، وليس هناك سوى نافذة واحدة ، وسوى باب واحد ، يفضى الى حجرة داخلية صغيرة .. وكان مكتب نابليون فى منتصف القاعة .. بينما جلس « نيوفال » الى مكتب آخر أمام النافذة .. وبدا نابليون مهموما ، مشتت الحواس ، منصرفا الى أفكاره السوداء لا يكاد يلقى بالا الى ما كان الكونت مول يقول .. وما لبث أن نهض وراح يسير فى الحجرة متخبطا ، شارد الفكر ، ثم طلب فى النهاية الى الكونت مول أن ينتقل الى الحجرة الداخلية ، ريثما يستجمع أفكاره ويرتبها ..

وهكذا لم يبق فى القاعة سوى الامبراطور وسكرتيره الخاص .. بينما كان الكونت وحده فى الحجرة الداخلية ، وقد انصرف الى قراءة كتاب .. وكان الباب الذى بين الحجرتين ، والباب المفضى من قاعة المكتب الى الردهة ، مغلقين ..

وفجأة ، أحس الكونت ببرودة غير عادية تشيع فى الحجرة الداخلية ، فرفع بصره عن الكتاب ، وشد ما كانت دهشته اذ رأى « رجلا طويلا ، ذا عباءة حمراء ، ولحية حمراء » .. وكان البابان لا يزالان مغلقين !

وقال الرجل فى صوت خشن ممتلىء : « يجب أن أتحدث الى الامبراطور فورا ! »

فأجاب الكونت فى تلطف رغم دهشته : « لا يريد الامبراطور أن يزعجه أى مخلوق الآن فهو يرجو أن يبقى فى سرية تامة .. »

وتقدم الغريب الذى لم يذكر مول انه رآه قبل ذلك اليوم ، والذى ولج الحجرة مجتازا الحراس والبابين الموصدين .. ونهض الكونت ليحول بينه وبين باب مكتب نابليون .. ولما رأى الرجل سادرا فى تقدمه ، مد يده ليدفعه ، وما كان أشد ذعره اذ تبين أن يده غاصت فى الرجل ، وكأنهـا تغوص فى نسمة ذات برودة جليدية !

ورمق الغريب ذو اللحية الحمراء ، الكونت مول بنظرة آمرة ، وقال له بصوته العميق : « ادخل وقل للامبراطور ان الرجل ذا اللحية الحمراء يجب أن يراك فورا .. »

وأطاع الكونت وهو يرتجف .. ولعجبه أمره نابليون لتوه بأن يسمح للغريب بالدخول ، فصدع بالأمر ، ثم أغلق الباب خلف الرجل الطويل ، وبقى فى الحجرة الخارجية ..

الانذار الاخير !

◆ **ولم** يتورع الكونت مول اذ ذاك عن استراق السمع خلال ثقب مفتاح الباب ، فسمع الصوت المهيب جليا ، وادخر كل كلمة قالها الشبح فى ذاكرته بحرص وعناية .. كان الصوت يقول فى انذار : « هذه ثالث مرة أظهر فيها أمامك .. ولقد أمهلتك فى المرة الثانية أربع سنوات لتحقق سلاما عاما ، وأنذرتك اذا لم تصدع بأن أسحب حمايتى عنك .. ولقد تخليت عن أن تتبع ارشادى ، ومن ثم أنذرك بأنه لم يعد أمامك سوى ثلاثة شهور تتم فيها تنفيذ ما لديك الآن من خطط ، أو تستجيب فيها لمقترحات الصلح التى قدمها لك الحلفاء .. فان لم توفق فى أول الأمرين ، أو تستجب لثانيهما ، فستنتهى حياتك العامة بالدمار .. فتذكر هذا جيدا ! »

وسمع الكونت مول بعد ذلك صوت نابليون يجادل زائره فى جزع ويحتج فى رجاء بأن الشهور الثلاثة لا تكفى لكسب ما فقد ، ولا لتحقيق صلح مشرف .. ولكن الصوت الأجش الممتلىء قطع عليه كلامه قائلا : « لست أحفل

بالأعذار .. اننى أمهلتك ثلاثة شهور ، لا أكثر » .. ثم ران على قاعة المكتب الصمت !

ومع أن مول كان منتبها ، حريصا ، الا أنه لم ير الغريب أو يسمعه يغادر مكتب نابليون . وبعد بضع دقائق ، فتح السكرتير « نيوفال » الباب وأشار اليه كى يدخل .. وبدا نابليون « شاحبا ، مرتبكا » ، فأرجأ اجتماعهما الى وقت آخر ..

ولقد بحث الكونت مول الأمر - بعد ذلك - مع « نيوفال » سرا ، فأصر هذا على أنه لم ير غريبا ذا لحية حمراء وعباءة حمراء فى ذلك الوقت ، ولكنه سمع الصوت الرهيب ينبعث من فضاء القاعة .. كما سمع رد نابليون وحديثه مع الشبح .. وكان نابليون فى منتهى الاضطراب وشرود الذهن ، حتى انه لم يبرح مكتبه فى ذلك النهار ..

ويروى التاريخ ما حدث بعد ذلك ، اذ اختار نابليون أن يمضى فى القتال ، ولكن العوامل التى كانت ضده شلت جهوده .. وبعد ثلاثة شهور - كاملة - من ظهور الشبح وانذاره ، نزل نابليون فى ١١ أبريل سنة ١٨١٤ « باسمه ونيابة عن خلفائه ، عن عرش فرنسا وايطاليا ! »

يظهر فى « سانت هيلينا » وفى فرنسا .. فى لحظة واحدة !

◆ **ولقد** مات نابليون فى الثانية والخمسين من عمره فى منفاه فى جزيرة سانت هيلينا المنعزلة ، وقيل انه مات محطم القلب .. وعلى أى الأحوال فقد وقعت له أحداث كثيرة بدت « غير طبيعية » وهو مستلق على فراش الموت فى أصيل ٥ مايو سنة ١٨٢١ ، غائبا فى غيبوبة الاحتضار ..

فقد هبت فجأة عاصفة هوجاء عاتية على المنزل الذى كان راقدا فيه ، فاقتلعت كثيرا من الاشجار .. وانقضت صاعقة فشطرت شجرة الصفصاف الحبيبة الى الامبراطور والتى اعتاد أن يجلس تحتها فى أمسيات الصيف عاكفا على كتابة مذكراته .. ثم انقضت العاصفة بسرعة كما بدأت ..

وقبيل الخامسة ببضع دقائق ، رأى الدكتور انتومارکی - وكان أحد الأطباء الذين لازموا الامبراطور فى ساعاته الأخيرة - ما أذهله : رأى شخصا غريبا لم يسبق له أن رآه ، يقف الى جوار الفراش ، مفرط الطول ، عريض البنيان ، بادى القوة ، فى عباءة حمراء ، وقد تدلت لحيته حمراء هى الأخرى .. وكان يحدق فى الامبراطور المحتضر دون أن ينبس ببنت شفة .. وشلت الدهشة حركة الطبيب ، ولكنه رأى الغريب يرفع يديه فوق الجثة فى حركة توحى بأنه كان يباركه .. وفى تلك اللحظة ،

تسللت أشعة الشمس الى الحجرة ، فتلاشى الغريب .. ولفظ نابليون آخر أنفاسه .. وكانت الساعة السادسة الا ست دقائق ، بالضبط !

وقبيل الساعة السادسة بدقائق ، من نفس اليوم ، كانت أم نابليون جالسة فى قاعة الجلوس بقصر بونابرت ـ على بعد آلاف الاميال من فراش ابنها المحتضر ـ حين أعلن الخادم اليها مقدم ضيف يحمل أنباء سيئة عن ابنها .. وحملقت مدام بونابرت فى الغريب بذهول .. كانت عيناه حزينتين ، صارمتين ـ وان لم تخلوا من لطف ـ وكان يشع من كيانه برد جليدى .. وتكلم أخيرا فى صوت عميق ، مهيب ، فقال : « سيدتى .. لقد مات ابنك » ! .. ثم اختفى لفوره !

وتمالكت مدام بونابرت نفسها بعد لحظة ، فاندفعت الى البهو ، فاذا بها تصادف الخادم الذى أعلن اليها مقدم الغريب ذى اللحية الحمراء .. فسألته : « هل رأيت السيد ـ الذى أدخلته منذ لحظات ـ وهو يغادر الدار ؟ »

فأجابها الخادم : « لم يمر أحد من هنا ياسيدتى مذ قدت الغريب اليك .. فأنا لم أبرح هذا المكان »

وسجلت مدام بونابرت عندها تاريخ وساعة هذا الحادث الغامض .. ولم تتلق نبأ وفاة ابنها الا بعد شهور ، وعلى الأصح ، فى شهر يوليو ، فاذا بها تتبين انه مات فى نفس اللحظة التى شهدت فيها « شبح فرنسا الأحمر » وسمعت صوته !

ترى هل تسيطر القوى السحرية الخفية على مقادير الأمم ، وترشد حكامها ، وتسحب معونتها حين يقابل الارشاد بالرفض ؟ .. وهل يرى بعض كبار الزعماء أمثال نابوليون « أطيافا تنبىء بالمستقبل ؟ » .. ان التاريخ يتضمن ما يثبت أن رؤى « غير طبيعية » ـ كتلك التى وردت فى المقال ـ قد حدثت مرارا كثيرة .. ولعل التفسير الوحيد لها ، أن الحاكم الأعلى للكون يشرف على مصائرنا جميعا ، ولو ضد رغباتنا ..



لماذا يخون الأزواج.. والزوجات ؟

بحث طبى نفسانى فى أسباب الخيانة الزوجية
للدكتور " ادوارد ستريكر "

نظرة خاطئة الى المشكلة !

◆ **لا أعرف** حفل زواج مدنى أو دينى ، لا يقسم فيه العروسان على أن يفى كل منهما للآخر ، مدى الحياة ! .. وهذا التأكيد الرسمى التقليدى بالوفاء يجعلنى أعتقد أن الخيانة الزوجية ليست شذوذا نادرا ، وانما هى مسألة تشغل بال الازواج والزوجات .. مذ عرف الزواج !

على انه لا شك فى أن الخيانة الزوجية أكثر شغلا لنا اليوم مما كانت فى أى عصر سابق ، اذ انها أصبحت كثيرة الحدوث ، تتفشى على نطاق واسع ، فى جميع طبقاتنا الاجتماعية والاقتصادية !

((والفسق)) من أكثر الاتهامات التى تتردد فى قضايا الطلاق .. وأكاد أشك فى وجود زيجات لم تعكر صفوها الشكوك والقلق اللذان يدفعان الزوجة الى أن تسائل نفسها : ((أتراه يخوننى ؟)) .. ويجعلان الرجل يسائل نفسه : ((أتراها تخدعنى ؟))

ومأساة الخيانة الزوجية ، فى نظر علماء العلاج النفسى ، ليست فى أن نصف الازواج والزوجات - على الأقل - يمارسونها .. ولا فى انهم جميعا يشغلون انفسهم بالتوجس منها ، وانما المأساة هى انه لا يكاد يوجد من يفهم حقا لماذا تحدث الخيانة الزوجية ؟!

والذين يخالون انهم يفهمون المشكلة ، يكونون أحيانا أشد خطرا وتأثرا من أولئك الذين يكتفون بأن يشيحوا عنها غير حافلين .. ولقد استمعت فى مأدبة عشاء حضرتها من عهد قريب ، الى امرأة ذكية ، مثقفة ، ظنت انها توصلت الى العلاج الواقعى للمسألة .. وقد قالت لى : ((ان لى ابنة فى السادسة عشرة ، ومن الطبيعى أن ((آمل)) أن تنتقى - حين تتزوج - رجلا فاضلا ، وأن توفق الى استبقاء وفائه لها .. ولكننى لن أدعها تتعلق بأوهام ، ومن ثم فاننى أخبرها بأن الخيانة الزوجية تكاد تكون أمرا مؤكدا فى الزواج الحديث ، وان الطلاق من أكثر الاحتمالات .. حتى تكون متأهبة لمواجهة هذه الحقائق فى صراحة ، وتدبر حياتها وفقا لها ..))

وجاهدت للاحتفاظ بأدبى وأنا أعمد الى افهام هذه الأم المخطئة بأننى لا أعتبر مسلكها فاسدا ، بعيدا عن الأدب فحسب ، وانما هو هدام ، فلو أن ابنتها اتبعت هذه النصيحة « الواقعية » ، لكان من المؤكد أن تقضى على احتمالات السعادة فى زواجها ! .. واذا كان علماء العلاج النفسى يجدون من المهام الشاقة عليهم أن يصدموا الناس فيما ينتابهم من مشاعر خاطئة عن أنفسهم .. الا اننى لم أجد غضاضة فى مصارحة محدثتى تلك بأننى لا أجد أى مأخذ - من الناحية السيكولوجية - على المذهب العريق الذى يعتبر الزواج رباطا مقدسا أو شركة تمتد مدى العمر ، وتطبع بطابع الوفاء التام .. كما انه ليس من السذاجة أو من تجاهل الواقع فى شىء ، أن يطمع الزوج والزوجة فى أن يحظى كل منهما بوفاء الآخر طيلة عمريهما ، وان يجزع أو يحزن اذا ما شابت الخيانة زواجهما !

الخيانة مرض انسانى !

◆ **واضح** سبيل - من الوجهة النفسية - للازواج والزوجات كى يواجهوا نذر الخيانة المستفحلة ، هى أن يدركوا أن الخيانة مرض انسانى ، وان الآثم كثيرا ما يكون أشد تألما ، من المأثوم فى حقــه - زوجا كان أو زوجة - كما اننا كثيرا ما نجد أن الخيانة الزوجية عرض خارجى لمشكلة قد تكون خطيرة بحيث تهدد صاحبها فى صحته العقلية ..

ومعظم الأفكار الشائعة عن أسباب الخيانة الزوجية وطرق علاجها ، أفكار حمقاء ، عتيقة ، لاتلقى أى ضوء على المشكلة ، بل انها لا تزيدها الا سوءا .. وأدعى هذه الافكار للعجب - فى رأيى - هو الجواب الذى يبادر اليه الناس اذا ما سئلوا : « من الملوم ؟ » .. فمن الطبيعى أن القانون ينحاز الى الجانب الذى لحق بهالضرر ، وليس ثمة من يرى أن تقابل الخيانة بالتسامح أو الاغضاء .. ومع هذا تجد الناس - وهم يقرون بذلك - يقولون : « ما كان ينبغى للزوج أن يرتكب هذه الخيانة .. ولكن من يلومه ، وزوجته على ما نعرفها عليه ؟ .. انها هى التى دفعته ، بمسلكها ، الى ما فعل ! »

ومثل هذا العطف يتاح للمرأة مع مزيد من الترفق ، فتجد جيران الزوجة الفاسقة يكادون ينبرون للدفاع عنها ، قائلين : « انها على كل حال أصغر سنا من الزوج بكثير ! »

وفى معظم الأحوال ، نجد أن كلا من الشريكين فى الاثم يشرع - اذا ما نوقش الحساب - فى تبرير ذنبه بأن عيبا فى زوجه دفعه الى أن ينشد صحبة شريكه فى الفسق .. وجدير بنا أن نتأمل بعض هذه الأعذار :

١ ـ ضعف الزواج من الناحية الجنسية

وهنا نلاحظ أن الأجيال القلائل الأخيرة ألقت أهمية كبيرة على العلاقات الجنسية .. ويقع قسط من هذا الوزر على علماء الطب النفسى ، كما يضطلع الخيال القصص الشعبى بنصيب آخر .. ولعل من المؤسف حقا أن مستوى الرغبة الجنسية والاستجابة لها قد أصبح يقاس بتلك الصور المثيرة التى توصف بتفصيل وعناية فى بعض من أكثر رواياتنا رواجا .. وأكاد أعتقد أن الكثير من هذه الروايات كتب بأقلام رجال ونساء لا يعرفون الكثير فى الواقع عن المسائل الجنسية !

فالزوج ـ أو الزوجة ـ الذى لا يشعر بمتعة مثيرة كتلك التى وردت فى الفصل الخامس عشر من رواية « كذا » ـ مثلا ـ لا يلبث أن يشعر بنقد مرير لزوجه ، وان كتم هذا الشعور فى نفسه ! .. **وليس معنى هذا أن العلاقات الجنسية الناقصة أو الضعيفة ، ليست ثغرة تعاب فى أى زواج ، ولكن الزوج الذى يقول انه أقدم على الخيانة لأن زوجته « باردة العواطف » ، أو الزوجة التى تسائل نفسها : « لعل غير زوجى يكون خيرا منه » .. هذا الزوج أو هذه الزوجة ، لا يخطر بباله قط أن الذنب قد يكون ذنبه هو .. لأنه يحاول أن يقارن الخيال الذى قرأه فى القصة ، بالحقيقة ..**

٢ ـ افتقاد الحب لدى الزوج أو الزوجة

◆ كم من خائن أو خائنة تعلل بأن زوجته ـ أو زوجها ـ لم تعد تحبه .. فيتخذ من الشعور بعدم الحب ، أو بنقص التقدير ، أو باهمال شأنه ، مبررا للخيانة ؟! انك تسمع الزوجة تقول فى هذا الصدد : « أن زوجى لم يكن يحفل بى ، لذلك استطبت أن أجد من يقول لى من جديد اننى جميلة ، وانه يشتهينى ! »

وتسمع الزوج يقول : « لا أكاد أحس بأن لى فى البيت حسابا .. فلست لدى زوجتى أكثر من مصدر يمدها بالقوت ! »

ولكن المناقشة لا تلبث أن تكشف للطبيب النفسى ـ وللزوج الخائن أو الزوجة الفاسقة ـ أن هذا الشعور بافتقاد الحب ليس بالجديد ، بل هو فى صميم التكوين الأساسى لنفسية المريض ، وقد ظل يساهم فى اتعاسه مذ داخله ـ فى صغره ـ الشعور بأنه مهان ، أو بأنه لا يحظى بحقه من الرعاية والاهتمام . ومن ثم فليس من الانصاف أن تلوم زوجتك ـ أو زوجك ان كنت سيدة ـ وان تعدها مسئولة عن شىء أصابك فى طفولتك » ..

٣ ـ « المناكفة » بين الزوجين !

◆ .. **والمشادات** التى تقوم بين الزوجين بسبب « المناكفة » المعتادة ، والعناد ، والثورات والانفجارات المترتبة على الغيظ ، كثيرا ما تتخذ أسبابا لتدبير الخيانة الزوجية .. ولا تخرج القصة عادة عن هذا المثال : **« لم تكن الحياة مع زوجتى مبهجة ، أو ممتعة ، فلم أكن أتوق قط الى الذهاب الى بيتى .. ولما كانت سكرتيرتى جذابة ، ذكية ، تفهمنى ، فقد دعوتها بضع مرات للعشاء .. وقبل أن أفطن الى ما حدث ، كنا قد غدونا عشيقين ! »**

٤ ـ حجج الاطفال .. وحجج الشيوخ!

◆ **ومن** أسباب الخيانات الزوجية ايضا ، توهم الطرف الخائن أن الآخر قد سبقه الى الخيانة ! .. ذلك انه قد يحلو للزوج أحيانا أن يقنع نفسه بأن زوجته تخونه .. وقد يروق للزوجة أحيانا أن تعتقد بأن زوجها يخونها .. وهى عادة مألوفه فى دفاع المرء عن تصرفاته ، تلازمة منذ الصغر .. هل رأيت الطفل حين يضرب زميلته فى اللعب ، ثم يزعم انها هدمت له البيت الذى صاغه من الرمال ؟ .. ولكننا عادة لا نقبل العذر من الطفل ابن الثالثة ، فما بالك بالكبير !

وثمة « عذر » آخر يتعلل به البعض للخيانة ، هو ما يخالج الشخص من جزع فى أواخر الحلقة الرابعة أو أوائل العقد الخامس من عمره .. فأنت تسمعه يعبر عن هذا الجزع بأساليب عدة ، كأن يقول : « لقد انقضى على زواجى زهاء ربع القرن ، وانى لأتوق الى بعض المغامرات والمتع قبل أن تفوتنى فرصة العمر ! » .. أو تقول المرأة : « لقد تزوجت صغيرة ، فلم تكن لى علاقة ما ، قبل الزواج .. وأخشى أن تكون قد فاتتنى بعض المتع ! »

ومن الصحيح أن هذه الاعذار جميعا قد تنطوى على قدر من الحقيقة .. فان الزوجة « المناكفة » ، والزوج الذى لا يجود قط بكلمة لطيفة ، يساهمان فى تمهيد طريق الخيانة .. ولكن الرجل ـ أو المرأة ـ الناضج ، العاقل ، المتزن التفكير ، لا يسعى الى علاج أى نقص حقيقى فى علاقاته الزوجية باللجوء الى الخيانة ، .. **ومن ثم أصبح علماء النفس والطب النفسى يشعرون ـ مما توصلوا اليه من معرفة بحوافز ودوافع النفس البشرية ـ بأن عدم النضوج ، وبرود العواطف ، هما السببان الرئيسيان « الجديان » للخيانة الزوجية :**

فالزوجة الموغلة فى الفسق تكون عادة غير مكتملة العقل والنضوج ، كما تكون عرضة لأن تبرد عواطفها ، فلا تستشعر متعة الاستجابة الجنسية ،

بل تتنقل بين أحضان الرجال سعيا وراء المغامرات المثيرة وارضاء النزوات .. ومع ذلك فهى لا تحظى بما تنشد !

كذلك يكون الزوج الذى اعتاد الخيانة ناقص النضوج ، قد خلفت فيه المعلومات الخاطئة التى أزجيت اليه فى طفولته عن المسائل الجنسية اعتقادا بأن الجنس فاكهة محرمة .. فتجده يفقد لذته فى نطاق الزواج « الشرعى » الذى يقره المجتمع ..

ثلاثة أسلحة ضد الخيانة

◆ **والخلاصة** ان كل زواج ـ حديثا كان أو قديما ـ يجب أن يكون على استعداد لأن يدافع عن نفسه ضد صدمة الخيانة التى تضعضع الحياة الزوجية . وخير عدة لهذا الدفاع ، الوقائع التالية :

١ ـ ان الخيانة ليست تعويضا عن العلاقة الجنسية الشرعية المشكو منها .. بل أن جو التكتم ، والسرعة ، والشعور بالذنب ، وغيرها من العوامل التى تصحب الخيانة ، تذهب بالفرض الجنسى المنشود من العلاقة الآثمة !

٢ ـ ان من العبث مقاومة الزوج ـ الرجل أو الأنثى ـ الخائن بالوعظ الأخلاقى ـ فهو قد يكون فاسقا شريرا لا يتأثر بهذا الوعظ ! ـ وانما المهم أن ندرك انه فى الوقت ذاته مريض ، يعانى من اضطرابات قاسية فى شخصيته ، وهذه الاضطرابات لا تؤثر على حياته الجنسية فحسب ، وانما تؤثر أيضا على مقدرته على العمل بكفاءة ، وعلى جدارته كأب ، وعلى مسئوليته كمواطن ، بل على امكانه أن يكتسب أى احترام .. ومن ثم فالزوج « معتاد الخيانة » هو مريض يجب حثه على اللجوء الى طبيب نفسى !

٣ ـ انه ليس من علاقة سوى الزواج تتيح حياة جنسية كاملة ، ممتعة .. فان القدرة على الاستمتاع الجنسى لا تتوقف على معرفة واسعة بالغواية والأساليب العاطفية المتباينة ، وانما هى تنمو وتزدهر بطول المعاشرة ، وتربية الأبناء ، وانشاء الأسرة ، فى ثقة واعتداد متبادلين ، وفى تشاطر للهناء والأحزان ..

والعلاقة الجنسية أكثر ما تكون ارضاء فى الظروف العادية المتعارف عليها فى الحياة الزوجية . وقد وصفها جورج برنارد شو وصفا دقيقا اذ قال : **« ان الزواج شائع مرغوب فيه لأنه يجمع بين ذروة الغواية (والاغراء الجنسى) .. وذروة الفرص العاطفية الصافية !**

✻

« كتابى » : واتماما للبحث ، ومساهمة فى اتاحة فرص السعادة الزوجية لك ـ سواء كنت زوجا أو زوجة ـ بالطريق الايجابى ، (بعد أن حاول

البحث السالف أن يتيح لك فرصة السعادة بالطريق السلبى ، باستبعاد أسباب الشقاء والشقاق والخيانة) .. أقدم لك فيما يلى استفتاء طريفا قد يعينك على أن تصبح زوجا موفقا – أو زوجة موفقة :

هل انت زوج مثالى ؟

للكاتبة « آن برستون » – عن صحيفة « واشنطون بوست »



◆ فى كل شهر تتطلع آلاف «العرائس» الى الأزواج الذين فزن بهم ، فى تقدير واعجاب ، وقد اشرقت عيونهن بالآمال ، والأحلام .. ذلك انه كلما كان الزوج جديدا ، بدت أخطاؤه قليلة .. ولكنه لا يلبث أن يكشف عن أخطائه ، تدريجا : فيبدأ بأن ينسى غطاء أنبوبة معجون الأسنان .. ثم لا يلبث أن ينسى عيد ميلاد أحد أفراد الأسرة ، أو ينتقد طعاما على المائدة ، أو يغفل عن ابداء اعجابه بصنف أعدته عروسه بيدها !

وهناك مائة طريقة وطريقة يستطيع بها الزوج أن يقصى نفسه عن طبقة الأزواج « المثالية » .. ولكن هناك أيضا مائة طريقة وطريقة اخرى تمكنه من أن يحتفظ بالنظرة الحالمة التى ترمقه بها زوجته !

وأنت – أيها الزوج – قد تكون بدأت تترهل وتفقد شعرك ، ولكنك ستظل زوجا لطيفا فى عينى زوجتك طالما كانت تحس بأنك تحبها وتقدرها ! .. وهذه عشرة أسئلة تعطيك فكرة عن مركزك فى هذا الميدان :

١ – **هل** تساعد فى شئون البيت اذا كانت زوجتك متعبة أو مريضة ؟

٢ – **هل** أنت سخى فى الاطراء اذا أعدت زوجتك صنفا شهيا من الطعام ،أو ارتدت ثوبا أنيقا ، من أجلك خاصة ؟

٣ – **هل** تتذكر تاريخ ميلادها ، وعيد زواجكما ؟

٤ – **هل** تقتسم الفائض من النقود معها بالتساوى ؟

٥ – **هل** تحاول تجنب الانانية أو الدكتاتورية فى الشئون الزوجية ؟

٦ – **هل** تبذل جهدا كى تبدو مرحا لطيفا ، ولو كنت عائدا الى البيت مرهقا أو مجهد الأعصاب بعد العمل ؟

٧ – **هل** تهتم بأن تخطر زوجتك اذا اضطررت للتأخر فى العودة الى البيت ، أو اذا فكرت فى أن تصحب ضيفا فى عودتك ؟

٨ – **هل** تحاول أن تتحاشى انتقاد زوجتك أو ارباكها أمام الناس ؟

٩ – **هل** تحاول أن تجعل علاقاتكما الجنسية مرضية لكليكما ؟

١٠ – **هل** تقدر ذكاء زوجتك وحكمها ، وتقديرها للناس ؟

اذا أجبت بـ ((لا)) عن خمسة أسئلة أو أكثر ، فأنت زوج أناني ، أوتوقراطى ، غير ناضج ..

أما اذا كانت ((لا)) جوابك عن عدد يتراوح بين سؤالين وأربعة ، فلا داعى لأن تطمئن كثيرا .. وان كان ((من الممكن)) أن تصبح زوجا معتدلا

أما اذا قلت ((لا)) عن سؤالين فقط ، فأنت أحد اثنين : اما زوج نادر ، فذ ،استثنائى .. واما انك لم تلتزم الدقة فى الاجابة ، فيحسن أن تسلم القلم لزوجتك كى تجيب هى عنك !

.. وهل انت زوجة مثالية ؟



والمشاهد أن النساء يملن – لأسباب عديدة ، – الى أن يعتبرن أنفسهن زوجات مثاليات ! .. وهذا هدف طبيعى ، بيد أن من الصعب قياس مدى بلوغهن اياه .. فالطعام الذى يلـذ لزوج ، قد يربك الهضم لدى زوج آخر ! .. والفتاة المرحة قد تشيع الانشراح فى قلب الزوج الحزين ، ولكنها قد تكون مبعث ضيق وازعاج للزوج الذى يجب أن يكون مبرزا عن سواه فى أى مجتمع .. ومن ثم فالزوجة المثالية هى التى يقدر لها أن تبعث الرضى فى نفس زوجها .. وكفى !

وليس من سبيل الى قياس دقيق للمسألة ، ولكن الاسئلة العشرة التالية تعطيك فكرة صحيحة الى حد بعيد ، عن مدى رضى زوجك عنك :

١ – **هل** تلحين فى مناقشة زوجك عن نسيانه واهماله وما يضايقك من تصرفاته ؟

٢ – **هل** تلقين على عاتق زوجك المهام والشئون المنزلية التى تستطيعين أداءها بنفسك ؟

٣ – **هل** يندر أن يتخذ زوجك قرارات هامة فى الشئون المالية ، أو شئون الاطفال ، أو غيرها من المسائل العائلية ؟

٤ – **هل** تنفقين على الثياب والكماليات أكثر مما ينفق زوجك ؟

٥ – **هل** تشكين من أن غيرك من الزوجات أحسن منك حالا ؟

٦ – **هل** تكونين باردة فى علاقاتك الجنسية فى كثير من الأحيان ؟

٧ – **هل** تبدين عدم اهتمام بعمل زوجك وبهواياته ؟

٨ – **هل** يندر ان تتحملى عناء أعداد طعام شهى لزوجك ؟

٩ – **هل** تعدين لزوجك عادة ما تشغلينه به بمجرد وصوله الى البيت ..؟

١٠ – **هل** أنت مسيطرة على انتباهه واهتمامه ؟

◆ **اذا كانت اجابتك بـ « نعم » عن ستة أسئلة أو أكثر ، فانت فى حاجة الى اصلاح شامل .. أما اذا تراوحت اجاباتك الايجابية بين سؤالين وخمسة ، فانت لا تزالين بعيدة عن أن تكونى « زوجة مثالية » ، ولكن أمامك فرصة طيبة لتحسين حالك ..**

والاجابة بـ « نعم » مرة واحدة ، تجعلك قريبة من الكمال والمثالية .. أما عدم الاجابة ب « نعم » اطلاقا ، فمعناها المثالية التامة

لكن الأهم من معرفة الزوج ـ أو الزوجة ـ درجة نجاحه أو فشله فى هذا الامتحان ، أن يتعظ به ، فيعرف عيوبه .. ويحاول اصلاحها !



الجزيرة التى كانت تهدد السلام !

◆ **يخيل** الى ان الناس فى كل عصر يميلون الى ان يصدقوا كل غريب غامض .. واكثر الموضوعات استثثارا بتكهناتهم اليوم هى مسألة الأجسام الطائرة الغريبة التى تبدو فى السماء ، ومسألة الوصول الى الفراغ المحيط بالأرض .. بيد ان فكرة الاراضى والمدن والشعوب الضائعة ـ اى التى اختفت فجأة وتلاشت ـ ستظل دائما تستهويهم .. وكلما بعدت القصة ـ من حيث الزمان والمكان ـ كان ذلك ادعى لانتشارها ورواجها ..

وأعتقد ان عدد الذين قرأوا رواية « فى قاع المحيط » ، التى ألفها سير « ارثر كونان دويل » عن محاولة وهميـــة للبحث عن قارة « اتلانتس » الضائعة فى اعماق المحيط ، يفوق عدد الذين قرأوا اول وصف تناول هـذه القارة ، وأعنى ذاك الذى كتبه الفيلسوف الاغريقى « افلاطون » قبيل سنة ٣٥٠ قبل الميلاد ..

ولقد استمد « افلاطون » الرواية من مصادر قوية ، وثيقة .. ولكنه فى الوقت ذاته رجع الى الماضى ، اذ قال انها رويت قبل ذلك بستين عاما فى بيت سقراط بأثينا ، على لسان شخص من كريت زعم انها تنوقلت فى اسرته

من ايام « سولون » الحكيم .. اى قبل الأعوام الستين بمائة وخمسين عاما اخرى .. وهذا أهم ما ورد فى القصة :

قيل ان سولون كان قد زار كهنة معبد « سايس » فى مصر ، وتبادل معهم الروايات التاريخية ، فقال له الكهنة ان الاغريق ما زالوا يجهلون الكثير عن تاريخهم ، وتغلبوا على جدله فى هذا الصدد بقصة مغرية ، زاد من اغرائها انها أضفت على الاثينيين مجدا جديدا ووصفتهم بأنهم منقذو العــالم !

وكانت القصة تتلخص فى ان ثمة جزيرة قوية منيعة كانت تقوم منذ حوالى ٩٠٠٠ سنة ، خلف « أعمدة هرقل » ـ التى نسميها اليوم بمضيق جبل طارق ـ على اطراف المحيط .. أى بمنأى عن العالم القديم ، بتعبير اهل ذلك الزمن ..

وكانت تلك الجزيرة ـ كما قالوا ـ اكبر من ليبيا وآسيا ـ (وكان هذان الاسمان يطلقان اذ ذاك على ما يعرف اليوم بافريقيا الشــمالية والشرق الاوسط) ـ محوطة بجزر أخرى.. وكانت جيوشها تغير على سواحل أوربا المشرفة على المحيط الاطلسى .. ومع ان حلفاء أثينا تخلوا عنها ، الا انها استطاعت فى النهاية ان تتغلب وحدها على تلك الجيوش .. وسرعان ما أعقبت ذلك زلازل عنيفة فى الجزيرة المهزومة ، وسيول وفيضانات جائحة ، وفى يوم وليلــة رهيبين ، غرقت « اتلانتس » تحت الماء .. وظل الطين السميك المتخلف عنها يقوم حائلا دون اجتيــاز المحيط الاطلسى فى ذلك المكان ..

هل بالغ أفلاطون فى القصــة ؟

◆ وفى الجزء الثانى من القصة اطلق أفلاطون لخياله العنان ، فروى انه كان فى منتصف الجزيرة الكبرى سهل خصيب محــوط بسلسلة من الجبال .. وكانت ثمة قصور ومعابد وجسور وسفن ، وقد وشيت مبانى الجزيرة بالفضة والذهب والعاج .. وزيادة فى الخيال ، ذكر ان ثمة مادة غريبة ثمينة تدعى « اوريكالكم » كانت تسجل عليها القوانين .. وكان كل شىء منظما بدقة متناهية : كانت السلطة المطلقة موكلة الى عشرة ملوك ، وكان هناك جيش ضخم من رماة الرماح والغزاة الذين يمتطون العجلات .. ولكن هؤلاء الناس الذين انحدروا من سلالة الآلهة ، والذين كانوا صالحين افاضل هانئين ، لم يلبثوا ان انحطوا ، حتى قــرر الاله « زيوس » ان يعاقبهم ..

ولم يختم « افلاطون » القصة ، ولكنه كان قد وجه القراء الى العبرة التى ارادها .. فان نكبة « اتلانتس » اظهرت كيف استطاعت دولة اغريقية صغيرة ان تهزم دولة كبيرة باذخة الغنى ..

وهناك شك فى ان « سولون » روى القصة ، اذ يعتقد تلاميذ افلاطون انه ابتكرها لايضاح بعض نواح من الرسالة التى كان يبشر بها .. ولكن ، هل استمد « افلاطون » اساس قصته من بعض الروايات الشعبية القديمة ؟

لقد صور افلاطون الحياة فى « اتلانتس » لمواطنيه ، بنفس البراعة والأسلوب اللذين كان رسامو العصور الوسطى يرسمون بهما شخصيات التوراة ويخلعون عليهم ثياب تلك العصور .. فبدت العجلات الحربية والمعابد وما اليها من التفصيلات التى اوردها ، معقولة بالنسبة لادراك الاغريق للماضى ، ولكنا – على حداثة عهدنا – ندرك اليوم عن عصور ما قبل التاريخ اكثر مما كانوا يعرفون ، رغم ان الشقة لم تكن قد بعدت بينهم وبين تلك العصور .. **ومن ثم فان ما اسرف افلاطون فى اضفائه على القصة من تفصيلات ، يبدو لنا اليوم اصطناعا قصد منه اقرار اثرها فى النفوس .. اذ ان الحياة التى صورها فى اتلانتس ضرب من المستحيل ، سواء بالنسبة للعصر الذى قيل ان اتلانتس كانت فيه على قيد الوجود – اى قبل الميلاد بعشرة آلاف سنة – او بالنسبة لعصر افلاطون .. فان خبراء التاريخ والآثار يجمعون على ان اوربا الجنوبية وافريقيا الشمالية كانتا اذ ذاك فى العصر الحجرى الاوسط ، وكان يسكنهما اقوام من البدائيين ، يعيشون على الصيد ، مستخدمين أدوات من الحجر البسيط المجرد .. ومن ثم فان المدن ، والقنوات ، والتماثيل الذهبية ، كانت فوق امكانياتهم ومواهبهم .. وهكذا نرى ان الحياة التى عزاها افلاطون الى اتلانتس كانت محض خرافة وخيال ! (وان لم ينف هذا احتمال ان « اتلانتس » كان لها وجود حقيقى ، كجزيرة عادية ، مجردة من الحضارة الخيالية التى اضفاها عليها افلاطون !)**

بقية القارات تتنازع على « اتلانتس » !

◆ **ولم** يطرأ اى تطور على قصة اتلانتس الى ان اكتشفت امريكا ، فاذا الالسن الفضولية المتطفلة تنطلق من عقالها .. وكان أن زعم سويدى يدعى « ردبيك » فى سنة ١٦٧٥ ، ان « اتلانتس » كانت تقوم فى موقع السويد .. ومن ذلك الحين ، عزيت اتلانتس الى كثير من البلاد والاماكن ، حتى لقد قيل انها كانت مملكة « مو » الخيالية التى زعموا انها قامت يوما فى امريكا الوسطى .. كما قيل انها كانت تقع على مقربة من سواحل تونس .. بل لقد ربط البعض بينها وبين اندثار قصر « مينوس » – فى « كنوسوس » بجزيرة كريت – حوالى سنة ١٤٥٠ قبل الميلاد ..

ولكن ، هل يمكن الاستدلال على موقع جغرافى لاتلانتس ؟

من المسلم به ان مستوى اليابسة – بالنسبة لسطح البحر – قد تعرض

فى عصور جيولوجية سحيقة ، سبقت خلق الانسان ، ولا يزال يتعرض الى اليوم ، لسلسلة من التطورات الشديدة فى كافة ارجاء الدنيا .. لذلك ، فليس من العجيب ان نجد لدى جميع الاقوام تقريبا - حتى الاسكيمو - قصصا واساطير متوارثة عن السيول والفيضانات .. ولا سبيل الى ربطها بعضها ببعض للدلالة على نكبة عمت الدنيا بأسرها ، لأن تواريخ حدوثها واسبابها كانت متباينة كل التباين ...

هل وقع « الطوفان » فيهـــا ؟

◆ ولقد حاول البعض ان يربط بين غرق « اتلانتس » وقصة الطوفان التى وردت فى الكتب المقدسة ، ولكن هذه الأخيرة تشير الى فيضـان اقليمى حدث فى اراضى العراق والشام واراضى « اور » ، بعد العصر الذى نسبت اليه « اتلانتس » بآلاف السنين ..

ويقول الذين يحاولون التشبث بقصة اتلانتس ان الانفجارات البركانية كثيرا ما دمرت جزرا صغيرة فى الماضى ، وان ثمة قرائن وفيرة على وقوع انفجارات من هذا النوع فى البلاد المحيطة بالموقع الذى حدده افلاطون لاتلانتس ، مثل جزر « كنارى » وافريقيا الشمالية الغربية ..

ويبدو موقع جزر « ازور » - فى اواسط المحيط الاطلسى - خير موقع يحتمل ان تكون اتلانتس قد قامت فيه .. بيد ان اولئـك المتشبثين لا يملكون سوى ان يقروا بأن الانفجارات والهزات البركانية لا يمكن ان تقضى تماما على جزيرة تبلغ فى حجمها عداد القارات ..

ومع ان الجزر الصغيرة لا تزال حتى اليوم تبـدو وتختفى فى اواسط المحيط الهادى بسبب البراكين ، ومع وجود اسطورة شائعة هناك تشبه قصة « اتلانتس » عن جزيرة تدعى « ليموريا » ، الا ان تلك الجزر جميعا لا تعدو ان تكون مساحات صغيرة متناثرة فى عرض المحيط .. ولا يمنع هذا من ان نقر بوجود أسباب قوية تدعو الى الاعتقاد بأن مياه المحيط الهادى طمت - فى العصر السحيق الذى يعرفه الجيولوجيـون باسم « العصر الثلاثى » - على مساحة كبيرة من اراض كانت بسيطة الارتفاع فى اواسط المحيط فغطتها تماما .. وكان ذلك راجعا الى هبوط سطح اليابسـة من ناحية ، والى ارتفاع مستوى مياه المحيط من ناحية اخرى .. ولكن ذلك العصر سبق خلق الانسان بآماد طويلة ..

ولقد شهد المحيط الاطلسى حدثا شبيها بهذا .. فان جزر « الآزور » ما هى الا قمم هضبة مغمورة تحت الماء ، غارت فى المحيط فى الفترة الوسطى لمرحلة تكوين الارض ، وهى التى تسمى عصر الزواحف .. ولكن هذا ايضا كان قبل خلق الانسان ..

ونخلص من كل هذا اذن الى ان « اتلانتس » كانت قارة يحيط بها الماء من كل جانب ، وان وجودها فى نطاق التاريخ الذى تلا خلق الانسان ، امر معقول ، مقبول .. فماذا بعد ذلك ؟ .. ان الأقوام البدائية كانت تبالغ فى تضخيم النكبات المحلية الى درجة هائلة فى اساطيرها ، لأن العالم كان فى ادراكهم محدودا ببلادهم ، فكانت النكبة التى تحيق بهم تبدو شاملة للعالم بأسره .. كما ان سيرة البشرية فيما قبل التاريخ ، حافلة بالأدلة على حدوث تغييرات فى مستوى البر والبحر ، تحت عوامل طبيعية .. مثال ذلك ، الأدلة العلمية الكثيرة على ان مستوى البحر ـ عند اوربا الغربية ـ أخذ فى نهاية العصر الجليدى الأخير فى الارتفـاع تدريجيا ، اذ شرعت الطبقات الجليدية فى الانصهار .. فى هذه الفترة ـ التى تقع بين سنة ١٠٫٠٠٠ وسنة ٥٫٠٠٠ قبل الميلاد ـ انشق خليج دوفر ، وانساب الماء الملح من بحر الشمال الى بحر البلطيق فحوله من بحيرة الى بحر .. كما انشق مضيق جبل طارق .. وكثيرا ما نعثر اليوم على الادوات الحجرية التى كان الصيادون يستعملونها فى العصر الحجـرى الاوسط ، تحت المستوى الذى تبلغه مياه المد ، ومع آثار الغابات التى غرقت ..

وليس معنى ذلك ان اولئك الناس غرقوا ، وانما معناه ان الماء اغار على مواقع معسكراتهم .. وقد ظل عدوان البحر وزحفه على الارض ، من الظواهر الهامة قرونا طويلة عديدة .. ومن الامثلة على ذلك ، ان الحد الأعلى لمستوى البحر فى بطاح كمبريدج لم يتسن للمياه الوصول اليه الا حوالى سنة مولد المسيح . وهذا كله يتيح لنا حقائق كافية لتقدير الاساطير التى تدور حول « ليونيز » .. بل انه قد يفسر ايضا سر اختفاء بلدة « ين » التى كانت من أعمال مقاطعة «بريتانى » الفرنسية .. وسر اختفاء جزيرة « اسميد » التى توحى الاساطير بأنها كانت تصل ما بين جبل طارق وجزر « هبريد » .. وقد كانت « اسميد » تحتل مكانا على الخرائط الانجليزية منذ مائة سنة ، كصخرة فى شمال جزر « آزور » .. بيد ان هذه القصص جميعا ، لا تتصل بقصة « اتلانتس » فى شىء .. فان زحف الماء على الساحل فى بعض البقاع ، على تلك الصورة العادية ، يحدث من آن الى آخر ، ويحدث اليوم ايضا ..

على أن العصور السابقة للتاريخ لم تنطو على قصة غرق واحدة بل على آلاف .. ولم تشهد اختفاء « اتلانتس » واحدة ، وانما شهدت اختفاء العديد من الجزر الصغيرة ، بيد أنه ليس ثمة دليل يوحى بأن قصة « أتلانتس » تنطبق على احدى هذه الجزر ..

محتويات الكتاب

مطابع شركة الاعلانات الشرقية



فينوس (من تحف المثـــال « كانوفا » التى يزخر بها متحف
« پيتي » بفلورنسا)



النبى موسى (التمثال الخالد للفنان الخالد ميكيل انجلو ، وهو
معروض بكنيسة « القديس بطرس فى الاغلال » بروما)

كتابي

الليلة الحادية عشرة !

« .. وفى الليلة الحادية عشرة ، كانت جالسة فى البهو بعد العشاء منصرفة إلى خيطها وابرتها ، وانا بجوارها انظر اليها وأتنهد ولا أدرى ما أقول ..

وطال السكون حتى قطعته قائلة :

— ألم يبق لديك شئ تقوله ؟

قلت : « بقيت كلمة واحدة تتردد تردّد الخوف بين القلب واللسان ! »

قالت وعينها إلى الخيط والأبرة :

— انى انتظرها منذ زمن طويل !

— عدينى أن تنسيها ان لم تصادف هواك !

— لك ما تشاء ..

قلت وكأنى أحس بطيف " كليوباترة " منتصبا أمامى يسخر من سخريتى بها فى لحظة غرور :

— انى أحبك !

فطاف فى وجنتيها ظل من الحمرة ، ثم رفعت رأسها ، ونظرت الى قائلة :

— ليتك تحبنى كما أحبك ، منذ حدثتنى عن فقد صديقك ! ان الحزن على ضياع الأصدقاء شئ جميل ..

ولكن الأجمل منه كانت القبلة الطويلة التى ختمت هذا الحوار القصير !

(من قصة « مس جين » ، إحدى قصص هذا العدد)

شركة فن الطباعة ٥٨١٤٩